د ٣ — عدد ١١
أغسطس ١٩٤٦

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية
رئيس التحرير : طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصري
شركة مساهمة مصرية
القاهرة

مدونة جوستنيان

في الفقه الروماني

INSTITUTES DE JUSTINIEN

يتبعها

نظام للمواريث وضعه جوستنيان

ويليها

بعض قواعد وتقريرات فقهية رومانية

وبعض تقديرات أخلاقية

نقله إلى اللغة العربيـــة

عبد العزيز فهمى

رئيس محكمة النقض والابرام سابقاً

يظهر قريبا



آراء النقاد
فى كتاب « العروبة »

LE PANARABISME

تأليف چان ليجول
رئيس تحرير « لابورص اجيبسيين »

«Le nouvel ouvrage de notre rédacteur en chef, M. Jean Lugol, *LE PANARABISME*, a paru en librairie. Volume de 300 pages, enrichi de plusieurs illustrations et de cartes soignées, *LE PANARABISME* vient à son heure. L'auteur s'est efforcé de jeter une abondante lumière sur les problèmes historiques et actuels qui concernent les nations arabes.»

La Bourse Egyptienne, 3 juin 1946.

« ألف الأستاذ چان ليجول رئيس تحرير جريدة « لابورص اجيبسيين » كتاباً نفيساً عن بلاد الشرق العربى . . . وعنى المؤلف عناية فائقة بموضوع الكتاب ، فاعتمد فى تأليفه على وثائق تاريخية وزينه بصور متقنة لملوك الدول العربية ورؤسائها وبصور جميلة أخرى للمدن الكبيرة فى هذه البلاد . . . وصفوة القول أن كتاب الأستاذ ليجول خليق بأن يطلع عليه المهتمون بالشؤون العربية . »

المقطم فى ١٥ يونيه ١٩٤٦ .

«Dans les temps effervescents que nous vivons, voici un livre qui s'impose à notre attention de façon toute particulière. Ce n'est pas seulement un plaisir et un profit que de le lire, c'est un devoir.»

Le Progrès Egyptien, 23 juin 1946.

« عرف مسيو چان ليجول بأبحاثه القيمة التى يخرجها لنا بين الحين والحين فى صورة كتب وافية شاملة لدقائق الموضوع الذى يختصه بالبحث ... واليوم يخرج علينا المسيو ليجول بكتاب جديد قيم عن جامعة الدول العربية ... فالكتاب مرجع هام من مراجع التاريخ العربى يصلح لتنوير أذهان الأجانب بشأن كل ما يتصل بالعرب والجامعة العربية . »

الكتلة فى ٨ يوليو ١٩٤٦ .

«A tous les lecteurs de langue française qu'intéressent les problèmes du nouveau monde arabe, le livre de M. Lugol sera une lecture des plus utiles, celle d'un grand manuel d'introduction à la vie politique et morale d'Etats appelés à jouer un rôle capital dans la paix et la prospérité du monde. Nous ne pouvons que vivement le recommander.»

Le Journal d'Egypte, 9 juin 1946.

« هذا كتاب قيم أصدره بالفرنسية الأستاذ چان ليجول وصدره بكلمة لمسيو چورج بيكو يقول فيها : « إن العالم العربى فى حالة تطور وهو فى الوقت الحاضر قوة محدودة جداً بالنسبة لما سيصبح عليه فى مستقبل غير بعيد . » . . . وعلى الرغم من عدم اتفاقنا تماما مع المسيو ليجول فى جميع آرائه ، إلا أن الكتاب قيم ومكتوب بروح المؤرخ المطلع . »

آخر ساعة فى ١٩ يونيه ١٩٤٦ .

«Ceux qui se perdent encore dans la complexité des questions orientales liront avec profit *LE PANARABISME*: c'est là un guide simple et clair du monde arabe en pleine renaissance.»

Images, 16 juin 1946.

الكاتب المصرى
مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين
سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصرى فى أول كل شهر عن دار الكاتب المصرى ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان ،
١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو ما يعادلها .
يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب المصرى . لا تقبل الاشتراكات لأقل من سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة
تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤
الادارة : ٤٥٠٣٤-٤٧٨١٥-٥٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI
Monthly literary magazine published by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)
Editor-in-chief : Taha Hussein

الكاتب المصرى

رمضان ١٣٦٥



أغسطس ١٩٤٦

مجلد ٣ — عدد ١١

الأدب بين الاتصال والانفصال

أى المذهبين أهدى سبيلا : مذهب الأديب الذى يؤثر العزلة لعقله وقلبه وفنه ، وينظر إلى الحياة الإنسانية الواقعة من برجه العاجى ، لايحفل بها ولايقف عندها ، ولا يلتفت إليها ، إلا أن تكون مصدراً لأثر من آثاره الفنية ، فهو حينئذ يستوحيها ويستقصيها ، ويصدر عنها فيما يرسم من الصور ، وما يحدث من الآثار ، يقف منها موقفه من الطبيعة غير الواعية ، يتخذها مادة لفنّه دون أن يشاركها بعقله وقلبه وشعوره فيما يختلف عليها من الأحداث ، وما يلم بها من الخطوب — أم مذهب الأديب الذى يأخذ بحظه من هذه الحياة الواقعة ، فيسعد حين تشيع فيها السعادة ، ويشقى حين يستأثر بها الشقاء ، ويجاهد مع المجاهدين ليكسب لنفسه وللناس ، أو قل ليكسب للناس ولنفسه حظاً جديداً من سعادة ، وليدفع عن الناس وعن نفسه طائفاً عارضاً من شقاء ؟

هـذه هى المسألة التى يلهج بها الأدباء الفرنسيون فى باريس منذ وضعت الحرب أوزارها ، بل قبل أن تشب الحرب نارها . فقد فرضت هـذه المسألة نفسها على الأدباء الأوربيين منذ كان الاصطدام العنيف بين المذاهب فى تنظيم الحياة السياسية والاجتماعية بين الحربين حين عظم أمر الشيوعية فى روسيا ، وأمر الفاشية فى إيطاليا وألمانيا ، واجتهدت الديمقراطية التقليدية فى أن تثبت بين هذين المذهبين من مذاهب السياسة والاجتماع ، وفى أن تدفع عن نفسها خطر الفناء الذى يأتيها من التسلط المطلق للجماعة ، ومن التسلط المطلق للفرد ، على دقائق الحياة الاجتماعية والفردية على السواء . فقد وجـدت الشيوعية أدبا

شاركوا فيها، ودافعوا عنها، وقاموا دونها يحمونها بألسنتهم وأقلامهم، ويحاولون نشرها فى أقطار الأرض. ووجدت الفاشية كذلك أدباء أنفقوا مايملكون من قوة وجهد فى الذود عنها، والقيام دونها. ونظرت الديمقراطية فإذا الساسة وحدهم هم الذين يناضلون ويجاهدون لحمايتها أول الأمر، وإذا الأدباء لايحفلون بها ولا يتكلفون حمايتها، وإنما يؤثرون أنفسهم بخيراتها، ويستمتعون فى ظلها بما يتاح لهم من الحرية ليحيوا كما يحبون، وينعموا كما يستطيعون، ويكتبوا كما يشاءون ومتى يشاءون وفيما يشاءون من الموضوعات. وأكبر الظن أنهم كانوا خليقين أن يمضوا فى طريقهم تلك لايلتفتون إلى ما حولهم من الحياة الواقعة لو لم يحسوا الخطر يأتيهم من انتشار الشيوعية والفاشية فى بيئاتهم الخاصة التى يعيشون فيها، ولو لم يشعروا بأن هـذا الخطر يتغلغل فى حياة أوطانهم تغلغلا مخيفاً، ويوشك أن يخضعهم لأحد المذهبين اللذين كانا يتنازعان أوربا بين الحربين.

هنالك تبينوا أن حريتهم معرضة للخطر، وأن ثقافتهم معرضة للزوال، وأن فنهم معرض للفناء، وأنهم مخيرون بين اثنتين: إما أن يفنوا فى الشيوعية أو الفاشية فيذهبوا مذهب غيرهم من الأدباء الشيوعيين والفاشيين، وإما أن يمنحوا الديمقراطية التقليدية ألسنتهم وأقلامهم، ويشاركوا أصحاب السياسة فى الدفاع عنها والقيام دونها وحمايتها من أن يجتاحها هذا الخطر أو ذاك. رأوا ذلك رأى العين وأحسوه إحساساً قويًّا ملحًّا، فاضطروا إلى أن يشاركوا فى الدفاع عن الديمقراطية، وذهب بعضهم مذهب الفاشية، وذهب بعضهم الآخر مذهب الشيوعية، وخرج الأدب من عزلته، وانحدر الأدباء من بروجهم العاجية إلى أسواق السياسة وميادين الصراع حول المنافع العاجلة والمصالح القريبة، ونشأت هذه الظاهرة الأدبية التى تسمى التضامن فى تبعات الحياة.

ثم كانت الحرب، واضطر كثير جدًّا من الأدباء إلى ما اضطر إليه غيرهم من عامة الناس من مصانعة العدو أو مقاومته، ومن الانحياز إليه أو التألب عليه؛ ولم يبق أو لم يكد يبقى أديب أوربى يستطيع أن يقول إنه محتفظ بعزلته، مستأثر بوحدته، معتصم ببرجه العاجى ينظر إلى اضطراب الناس من حوله كما ينظر إلى ضوء الشمس حين تشرق، وإلى ظلمة الليل حين تغمر الكون، وإلى الأغصان حين يداعبها النسيم، أو إلى ماء الجدول حين يداعب الحصباء، وإلى الطير

حين تملأ الجو غنـاء وبكاء ، وإلى أمواج البحر حين تعصف بها الريح .

أُكره الأدباء على أن ينزلوا بأدبهم إلى الحياة الواقعة ، وعلى أن يشاركوا الناس فى آلامهم وآمالهم ، وفيما يتاح لهم من سعادة أو شقاء . حتى الذين آثروا الصمت منهم لم يؤثروا الصمت ترفعاً عن المشاركة فى الحياة الواقعة ، ولا تمنعاً على التضامن الاجتماعى ، ولا حبًّا فى الاعتصام بالبروج العاجية ، وإنما اتخذوا الصمت سلاحاً لعلّـه كان أمضى من الـكلام أحيانا . فقد كان العدو المنتصرون يودُّون بجدع الأنوف لو ظفروا من هؤلاء الأدباء الصامتين بشىء من تأييد ، كما كان الصديق المتضامنون مع العدو عن رضا أو عن كره ، والذين كانوا يسمون بالـكويسلنج يتمنون أيضاً بجـدع الأنوف لو أتيحت لهم معونة هؤلاء الأدباء الصامتين . فقد اضطر الأدباء إذن إلى أن يشاركوا فى الحياة الواقعة ، وإلى أن يختاروا بين المذاهب السياسية والاجتماعية التى كانت تتنازع أوربا فى ذلك الوقت ، وأدوا ثمن هذه المشاركة غالياً : ضحَّـوْا فيها بأنفسهم أحياناً ، وبراحتهم أحياناً ، وبحريتهم دائماً . ثم تضع الحرب أوزارها بين الجند المقاتلين دون أن تضع أوزارها بين الساسة المختصمين . فالناس لايقتل بعضهم بعضاً منذ حين ، وقد انهارت ألمانيا وإيطاليا واليابان ، واستسلمت بلا قيد ولاشرط ، ولـكن الخصـومة السياسية حول النظم المختلفة ما زالت قائمة كعهدها قبل أن تشب الحرب ، وكعهدها بعد أن شبت الحرب ، فما عسى أن يكون موقف الأدباء من هذا الصراع المتصل بين النظم السياسية والاجتماعية ؟ أيشاركون فيه بعد الحرب كما شاركوا فيـه قبل الحرب وأثناء الحرب ، أم يستأنفون حياتهم تلك القـديمة فينحاز إلى العزلة منهم من يحب العزلة ، ويصعد إلى البروج العاجية منهم من يحب الاعتصام بهذه البروج ؟ وبعبارة موجزة : أيباح للأديب أن يحيا حيـاة العزلة ، وأن يخلص لفنِّـه المحض ، وأن ينظر إلى الحياة الإنسانية الواقعة كما ينظر إلى الطبيعة الصامتة يتخذها مادة لفنِّـه ليس غير ، أم يُفـْرَض على الأديب أن يحيا مع الناس ، فيألم حين يألمون ، ويأمل حين يأملون ، ويشاركهم مشاركة كاملة فيما يجـدون من نعيم وبؤس ، ومن سعادة وشقاء ؟ وبعبارة أشد وضوحاً وإيجازا : أينبغى للأدب أن يكون لوناً من ألوان الترف ، أم يجب على الأدب أن يكون أداة من أدوات الحياة ؟

هذه هى المشكلة التى تقيم الأدباء فى باريس وتقعدهم منذ حررت فرنسا. وقد يخيل إلى كثير من الناس كما يخيل إلى الأدباء الفرنسيين أنفسهم أنها مشكلة جديده طارئة. ولكن نظرة يسيرة سريعة فى التاريخ الأدبى لأى أمة من الأمم الحيّة تكفى لإقناعنا بأن هذه المشكلة ليست جديدة، وبأن حظها من الطرافة ضئيل جدًّا يوشك ألا يكون شيئاً. فأنت تستطيع أن تنظر إلى أى عصر من عصور الأدب الفرنسى، مثلا منذ أوائل القرن السادس عشر إلى الآن، فسترى أن الأدباء قد انقسموا دائماً هذا النوع من الانقسام، فكان منهم المشاركون فى الحياة الواقعة، والمؤثرون للعزلة والانفراد. وكان أثر الذين يشاركون فى الحياة الواقعة دائماً أعظم خطراً وأجلّ شأناً من أثر الذين يحبون العزلة، ويعتصمون بالوحدة، ويلزمون بروجهم العاجية ينزلون منها وحيهم الأدبى تنزيلا.

فلست أدرى إلى أى حدّ يمكن أن يقال إن مونتنى ورابليه فى القرن السادس عشر كانا معتزلين يعتصمان بالبرج العاجى، مع أن الواقع الذى ليس فيه شك هو أن أدبهما يصوّر حياة الطبقة الفرنسية التى كانا يعيشان فيها أصدق تصوير وأبدعه. وقل مثل ذلك بالقياس إلى الشعراء الذين عاشوا فى ذلك العصر؛ فهم قد عاشوا مع طبقتهم عيشة تضامن لا اعتزال، وهم قد صوروا طبقتهم تصويراً صادقاً؛ منهم من اتصل بالقصر فصور حياة القصر، ومنهم من عاش من الشعب فصور حياة الشعب. وكانت الحال كذلك فى القرن السابع عشر، فلم يكن كورنى ولا راسين ولا بوالو معتزلين يلقون وحيهم من بروجهم العاجية، كما كان أبُللون يلقى وحيه فى معبد دلف، وإنما كانوا يشتقون فنهم من الحياة الواقعة من حولهم، يتخذون مذهب القدماء فى الأدب وسيلة إلى تصوير هذه الحياة الواقعة بما فيها من ألم وأمل ومُثُل عليا. فأما موليير فأمره أوضح من أن يحتاج إلى بيان.

أما القرن الثامن عشر فهو القرن الذى عرف تضامن الأدب مع الحياة الواقعة فى أوسع حدوده وأبعد آماده. فمن الخطأ كل الخطأ أن يقال إن ڤولتير ومونتسكيو وديديرو وروسو كانوا معتزلين أو مترفعين عن الحياة اليومية الواقعة. والثورة الفرنسية لم تأت من لاشىء، وإنما جاءت من تطور الحياة الواقعة نفسها من جهة، ومن تصوير الأدب لهذه الحياة وتطورها من

جهة أخرى ، ومن إشعار الأدب للشعب بأن الحياة التى كان يحياها لم تكن تلائم حقه فى الحرية والإخاء والمساواة والعدل . فإذا تركنا هذا القرن فسنلاحظ أن القرن التاسع عشر كان عصر الصراع بين الأدب ، وبين الذين خاصموا الحرية ، أو حاولوا أن يضيعوا ما كسبه الشعب الفرنسى من ثورته الكبرى . وقد احتاج نابليون إلى أن ينظم حربه التى نصبها للأدباء الأحرار ، كما نظم حربه التى نصبها لخصومه من الإنجليز والروس والنمسويين ، وكانت له شرطته الداخلية ذات النظام الدقيق العنيف . وكان له صرعاه من الأدباء ، كما كان له جيشه العظيم وصرعاه من خصومه الخارجيين . وأكبر الظن أن نابليون لم يحارب الأدباء إلا لأنهم قاوموه ، وأن الأدباء لم يقاوموه إلا لأنهم خالفوه فى الرأى ، ولم يخالفوه فى الرأى إلا لأنهم تضامنوا مع الحياة الواقعة ، ولم يعتصموا بالبروج العاجية ، ولم يؤثروا العزلة وما تستتبعه من العافية على الجهاد مع المجاهدين . وقد كان للملكية الفرنسية بين الإمبراطوريتين أنصارها وخصومها من الأدباء ، وكان لها صرعاها وضحاياها ، كما كان لها أصدقاؤها الذين استمتعوا فى ظلها بالسعادة والنعيم . وهذا كله لايدل إلاّ على أن الأدباء ، أو كثرة الأدباء ، لم يستطيعوا أن يؤثروا حياة العزلة . والثورة الفرنسية الثانية سنة ١٨٤٨ ، لم تأت من لاشىء وإنما جاءت من تطور الحياة الواقعة ، ومن تصوير الأدباء لهذا التطور ، ومن إقناعهم للشعب بأن سادته قد أضاعوا عليه ما جنى من الثورة الكبرى . وقد كان للإمبراطورية الثانية صرعاها من الأدباء . وما نظن أننا فى حاجة إلى أن نذكر فكتور هوجو ، وما أظن أحداً يستطيع أن يقول إن فكتور هوجو ولامرتين كانا من أنصار العزلة وعشاق البرج العاجى ، حتى فلوبير الذى أبى أن يحفل بشىء غير الفن ، وفرض على نفسه حياة خالصة للأدب وللأدب الخالص ، حتى فلوبير لم يستطع أن يمتنع على المشاركة فى الحياة الواقعة ، والتضامن مع الناس فيما كانوا يجدون من أمل وألم . ويكفى أن تقرأ قصته الرائعة « التربية الشعورية » *L'Education sentimentale* ، وأن تقرأ رسائله ، وأن تقرأ كتابه الخالد — *Bouvard et Pécuchet* — لتعلم أن برجه العاجى لم يكن إلا ملجأ يأوى إليه ليستعرض ماجنى من مشاركة الناس فى حياتهم الواقعة ، ثم يعرضه بعد ذلك عليهم فى صوره الرائعة التى تدفع إلى العمل ، وتملأ القلوب شوقاً إلى المثل العليا ، وإزورارا عن هذه الحماقة التى تعرّض الشعب لعبث العابثين .

فإذا كانت الجمهورية الثالثة فالكثرة الضخمة من الأدباء مشاركة فى السياسة إلى أبعد حدود المشاركة . وليس من شك فى أن جورس ، وليون بلوم ، وأناتول فرانس ، وموريس باريس ، وپيجى لم ينتظروا ظهور الشيوعية والفاشية ؛ ليشاركوا فى الحياة السياسية الواقعة مشاركة تختلف عنفاً وليناً باختلاف أمزجتهم وما كان يحيط بهم من الظروف . وقد عرف الفرنسيون فى آخر القرن الماضى أزمة دريفوس تلك التى أكرهتهم جميعاً على أن يشاركوا فى السياسة مشاركة فعليّة عنيفة لم يتخلف عنها عالم ولا أديب .

فإذا لهج الأدباء الفرنسيون الآن بالتضامن الأدبى مع الحياة الواقعة ، وإذا أسرفوا فى ذكر الأدب المتضامن والأدب المعتزل ، فهم فى حقيقة الأمر لا يأتون بشىء جديد ولا يواجهون مشكلة جديدة ، وإنما هى مشكلة قديمة خالدة : إلى أى حدٍّ يستطيع الأدب أن يعتزل الحياة الواقعة دون أن يصبح لغواً من اللغو ، وسخفا لا غناء فيه ؟ وإلى أى حد يستطيع الأدب أن يشارك فى الحياة الواقعة دون أن يضطر إلى الإسفاف الذى يفسده ، وإلى الابتذال الذى يلغيه ؟ والشىء المحقق فيما أعتقد هو أن الفرنسيين كغيرهم من الأوربيين ، بل كغيرهم من الناس المتحضرين ، يمرون بهذه الأزمة العنيفة التى تمر بها الأمم بين حين وحين ، والتى تضطر المثقفين وقادة الرأى إلى أن يتجاوزوا عن عزلتهم أكثر مما تعودوا أن يفعلوا ، وإلى أن يأخذوا بحظهم من الجهاد اليومى ؛ لينصروا هذا المذهب أو ذاك ، وليحققوا هذا اللون أو ذاك من ألوان المثل العليا .

وقد صورت فى العدد الماضى من هذه المجلة ذلك الصراع العنيف بين العدل والحرية . فهذا الصراع لا يمكن أن يتحقق ولا أن تظهر آثاره ، ولا أن يؤتى ثمره إلاّ إذا كان هناك مصارعون يديرون بينهم مايديرون من هذا الجدال العنيف . فالحرية ليست شيئاً قائماً بنفسه يمكن أن يلتزم خطة الدفاع ، أو أن يتخذ خطة الهجوم . والعدل كذلك ليس شيئاً قائماً بنفسه يمكن أن يتخذ هذه الخطة أو تلك . وإنما الحرية والعدل خصلتان قائمتان فى أنفس الناس : هؤلاء يؤثرون الحرية ، وهؤلاء يؤثرون العدل ، وهؤلاء يؤثرون شيئاً وسطاً بين ذلك . وهم جميعاً يختصمون ويصطرعون ، ويجادل بعضهم بعضاً . والخصومة بينهم لا تكون بالعمل وحده ، وإنما تكون بالعمل والقول ، ولعلها أن تكون بالقول أكثر مما تكون بالعمل . وانتصار الحرية على حساب العدل يعرّض الناس جميعاً ،

ومنهم الأدباء ، لحياة قاسية قوامها الظلم . وانتصار العدل على حساب الحرية يعرّض الناس جميعاً ، ومنهم الأدباء أيضاً ، لحياة قاسية قوامها المساواة وفيها شيء كثير من الخضوع . فالأديب مضطر إلى أن يدافع عن نفسه ، لأنه هو نفسه معرض بحكم هذه الأزمة لفقدان الحرية ، أو لفقدان العدل ، أو لفقدانهما جميعاً . فالعزلة الأدبية فى هذا الوقت ليست إلا حكما بالموت على الأديب . ولولا أن هذه الأزمة العنيفة تثير الشهوات ، وتدفع الأهواء إلى الجموح ، لما اختلف الأدباء الفرنسيون كما يختلفون اليوم حول الأدب المعتزل والأدب المتضامن . فالحرية فى حاجة إلى أن يدافع عنها أنصارها ، والعدل فى حاجة إلى أن يدافع عنه أنصاره . والأديب الذى ينحاز إلى نفسه ويعكف عليها ويفرغ لها ، لا يزيد على أن يسجل أنه زاهد فى الحرية والعدل جميعاً ، أى أنه زاهد فى الحياة . أو قل إنه لا يزيد على أن يسجل أنه طفيلى يعيش من كسب غيره ، ينتظر أن ينتصر هذا الفريق أو ذاك ليعيش فى ظله ، وينعم بما يلقى إليه من الفتات . وهذا الأديب فيما أعلم لا يوجد أو لا يكاد يوجد . وفى الحياة بعد ذلك أشياء أخرى غير الحرية والعدل ، والناس فى حاجة إلى هذه الأشياء ؛ فهم يختصمون حولها كما يختصمون حول الحرية والعدل . والأديب مثلهم يحتاج إلى هذه الأشياء كما يحتاج إلى الحرية والعدل ، فهو مضطر إلى أن يخاصم ويجاهد ليحقق رأيه فى كل مشكلة من المشكلات التى تمس الجماعة وتؤثر فى حياتها . ومن هنا يمكن أن يوجد الأديب الذى لا يخاصم فى العدل ، ولا فى الحرية ، ولكنه يخاصم فى الدين ، أو يخاصم فى الإلحاد ، أو يخاصم فى هذا المذهب أو ذاك من مذاهب الدين ، أو يخاصم فيما شئت من هذه المشكلات الإنسانية التى لا تنقضى والتى تتجدد فى كل يوم .

والأدب الفرنسى ليس وحده موضوعاً لهذا الخلاف حول التضامن والاعتزال ، فالمسألة كما قلت آنفاً قديمة لا تتصل بعصر دون عصر ، عامة لا تتصل ببيئة دون بيئة ولا بجيل دون جيل .

أكان الأدب اليونانى مثلا معتزلا أم متضامناً ؟ مسألة من شأنها أن تضحك الشعراء والفلاسفة ، والكتاب اليونانيين لو أنها ألقيت عليهم . فقد كان الأديب اليونانى بطبعه مواطناً يونانيًّا ، يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، ويؤدى واجباته الوطنية ، ويشهد الاجتماعات السياسية ، ويدافع عن هذا الحزب

أو ذاك ، ويجنى ثمر هذا الدفاع نعيما أو بؤساً وسعادة أو شقاء . والذين يقرءون الأدب اليونانى والفلسفة اليونانية يعلمون ذلك حق العلم ويقدرونه حق قدره . ومن ذا الذى يستطيع أن يقول إن التراجيديا اليونانية لم تكن تميل إلى المحافظة السياسية ، وإن الكوميديا لم تكن تعبث بالديمقراطية ، وإن سقراط قد شرب السم ؛ لأنه آثر الاعتزال الفلسفى على التضامن مع الحياة الواقعة ، وإن أفلاطون لم يغرق فى السياسة إلى أذنيه ، وإن أرسطاطاليس لم يضطر بحكم السياسة إلى أن يموت غريبا ! ولم يكن الأدب عند الرومانيين أقل مشاركة فى الحياة الواقعة من الأدب اليونانى . فربما كان أظهر شىء فى الأدب اللاتينى الخطابة وقد كانت كلها أو أكثرها سياسة ، والتاريخ وقد كان كله أو أكثره سياسة . فأما الشعر فقد حاول أن يتجنب السياسة فلم يبلغ مما أراد شيئاً ؛ لأن السياسة كانت تفرض نفسها على المواطن اليونانى والرومانى فرضا ، لا يعنيها أن يكون هذا المواطن أديبا أو حذّاء .

وأدبنا العربى أكان متضامناً مع الحياة الواقعة أم كان مترفعا عنها ؟ أهو الآن أدب متضامن أم أدب معتزل ؟ مسألة لا تخلو من عبرة وعظة . فقد كان أدبنا العربى حيًّا قويًّا حين تضامن مع الحياة الواقعة ، وكان فاتراً متهالكا حين اضطرته الظروف إلى الاعتزال . وما أريد أن أذكر الشعر العربى فى العصر الجاهلى ؛ فقد كان أمره أوضح من أن يحتاج إلى بيان . كان الشاعر العربى لسان القبيلة ، يسجل مآثرها ، ويذيع مفاخرها ، ويدافع عنها فى المواطن التى تحتاج إلى الدفاع ! وما كان أكثرها ! فقد كان أدبنا الجاهلى ، وهو كله شعر ، متضامناً لا يطيق الاعتزال ولا يسيغه ؛ لأن الشاعر كان فرداً من أفراد القبيلة يحيا بحياتها ويشارك فيما يصيبها من خير أو شر ؛ فإن خالف عن هذا التضامن فهو الخليع الذى يجب أن يعيش عيشة الصعاليك ، وهو بهذا يخرج عن التضامن مع القبيلة إلى تضامن آخر ليس أقل منه مشاركة فى الحياة الواقعة ، وهو التضامن مع أمثاله من الصعاليك .

كان أدبنا الجاهلى متضامناً إذن . فأما أدبنا الإسلامى فقد كان تضامناً كله : كان تضامناً حين كان الشعراء المسلمون والمشركون يتقارضون قصائدهم دفاعاً عن الإسلام أو دفاعاً عن حياة قريش قبل أن تسلم قريش . وكان تضامناً حين نشأت الأحزاب السياسية بعد موت النبى ، وحين انحاز كل شاعر إلى حزب من

الأحزاب يدافع عنه باليد واللسان . حتى هؤلاء الفحول الذين ظن الناس أنهم فرغوا للشعر وتجاوزوا عن السياسة ، لم يستطيعوا أن يفرغوا للشعر ولا أن يتجاوزوا عن السياسة ، وإنما انحاز الأخطل إلى بنى أمية ، وانحاز الفرزدق إلى العثمانية ، وعارض الحجاج وغيره من ولاة العراق ، وانحاز جرير إلى الزبيريين ثم باع شعره لبنى أمية . وفرغ بعض الشعراء للفن الخالص ، فأدركهم الخمول على ما أتيح لهم من الجودة الرائعة ؛ ولعل ذا الرمة أن يكون مثلا صادقاً لهؤلاء الشعراء الذين أرادوا أن يعتزلوا فلم يصيبوا من الاعتزال إلا الإخفاق والخمول . وإنا لنبذل مانستطيع من الجهد لنرد إلى ذى الرمة وأشباهه شيئاً من الإنصاف ، فلا نكاد نظفر من ذلك بشىء على بعد العهد وتباين الظروف .

وقد ظل أدبنا متضامناً مشاركا فى الحياة الواقعة حتى بعد انقضاء العصر الأموى وتغلب الاستبداد الفارسى على القصر فى بغداد . والناس يظنون أن تغلب الفرس على العرب بعد الثورة العباسية قد اضطر الأدب إلى شىء من العزلة . وليس هذا بملائم للحق ؛ فإنى أجد الشعراء فى العصر العباسى يختصمون كما كانوا يختصمون فى العصر الأموى حول مذهب الشيعة ومذهب الجماعة ومذهب الخوارج . وليس الكتاب والفلاسفة والفقهاء بأقل تضامناً ومشاركة فى الحياة الواقعة من الشعراء . وقد كان تغلب الترك فى القرن الثالث على دار الخلافة وعلى السلطان كله خليقاً أن يبعد الأدب عن السياسة ، ولكنه لم يصنع شيئاً ؛ فقد كان الترك أقل مشاركة من الفرس فى الفن ، وأقل منهم احتفالا بهذا الذوق المترف والنحو الرفيع من الأدب ، وأشد منهم غلظة فى مواجهة المشكلات ومعالجة الخطوب ، ولكنهم على هذا كله لم يمنعوا البحترى وأبا تمام وابن المعتز وابن الرومى من أن يشاركوا بشعرهم فى السياسة العامة من جهة وفى السياسة الخاصة الطارئة من جهة أخرى . ومن ذا الذى يستطيع أن يقول إن سينية البحترى وبائية أبى تمام قد صدرتا عن شاعرين معتزلين ! ومن ذا الذى يستطيع أن يقول إن رسائل الجاحظ قد صدرت عن أديب معتزل لا يشارك فى الحياة الواقعة ! ومن ذا الذى ينكر أن ابن الرومى قد حرض على الزنج واستحث أهل بغداد لنصر الموفق ! ومن ذا الذى لم يقرأ جدال ابن المعتز لأبناء عمومته من الطالبيين ! والمتنبى أكان معتزلا للحياة الواقعة أم كان مشاركا فيها ؟ أليس من المحقق أن افتتان الأجيال بشعر المتنبى إنما هو نتيجة طبيعية لما كان من تضامن

المتنبي فى أكثر حياته مع العرب فى خصومتهم للفرس والترك ، ومع القرامطة فى سخطهم على النظام الاجتماعى ومحاولتهم تغيير هذا النظام ؟ وأبو العلاء الذى امتاز بالعزلة وانفرد بهذه الوحدة التى فرضها على نفسه فى محبسيه أو فى محابسه ، والذى ظن أنه قد حقق من هذه العزلة ما أراد مع أنه لم يحقق منها شيئاً ، أكان أدبه معتزلا أم متضامناً ؟ أيستطيع أحد أن ينكر أن أبا العلاء لم يخفق فى شىء كما أخفق فى محاولته للعزلة ؟ أما أنه نجح فى عزلته المادية فشىء جائز ؛ لأنه لزم داره ولم يخرج منها إلا مضطراً . وأما أنه أخفق فى عزلته المعنوية فشىء ليس فيه شك ولا يمكن أن يكون موضوعاً للنزاع . فلم تخل دار أبى العلاء من الطارئين عليه والملمين به يوماً من الأيام أثناء نصف القرن الذى لزم فيه داره . ولم ينظم أبو العلاء بيتاً من الشعر ، ولم يكتب فصلا من النثر إلا كان فيما نظم وما كتب متصلا بالحياة الواقعة أوثق الاتصال وأشده . فهذا الشاعر الفيلسوف الذى أنفق حياته طالباً للعزلة ، هو الذى أنتج فى الأدب العربى أدباً أقل ما يوصف به أنه أدب اجتماعى متضامن بأوسع معانى هذه العبارة وأدقها . وقد أخفق أبو العلاء فى كثير من الأشياء بحكم الظروف التى أحاطت به ، ولكنه لم يخفق فى شىء كما أخفق فى محاولة الابتعاد عن الناس . وأبو العلاء يستطيع أن يقول إنه إنسِىُّ الولادة وحشىُّ الغريزة ؛ فغريزته هذه الوحشية هى التى ميزته من غيره ودفعت الناس دفعاً إلى أن يتهالكوا عليه ، واضطرته هو إلى أن يتهالك عليهم أشد التهالك وينكر ذلك على نفسه أشد الإنكار ، ويصور هذا فى شعره تصويراً بشعاً رائعاً فى هذا البيت :

كلابٌ تعاوت أو تغاوت لجيفة وأحسبنى أصبحت ألأمها كلبا

من أشنع الخطأ إذن أن يقال إن أدبنا العربى فى عصوره المزدهرة قد كان أدباً معتزلا مترفعاً عن الحياة الواقعة أو مهملا لهذه الحياة . وإنما الذين يقولون مثل هذا القول هم الذين غرتهم ظواهر الأشياء عن حقائقها ، فلم يروا فى شعر الشعراء إلا مدحاً وهجاء ورثاء ، ولكنهم لم يتعمقوا هذا المدح والهجاء والرثاء ، ولم يفهموا هذه الفنون على وجهها ، ولم يدرسوا غيرها من الفنون التى طرقها هؤلاء الشعراء ، ولم يروا فى نثر الكتاب إلا تنميقاً وتزويقاً وتأنقاً فى اختيار اللفظ ، وتكلفاً فى تحرير المعانى ، وتصنعاً فى تعقيد الأسلوب ، ولكنهم لم

يتجاوزوا هذا إلى ما يمكن أن يكون وراءه من مشاركة فى الحياة الواقعة أو ترفع عن هذه الحياة .

والغريب أن الذين يدرسون تاريخ الأدب العربى لا يكادون يفطنون إلى أن أكثر كتَّابنا إنما كانوا يعملون فى المرافق العامة ، ويتصلون بالسلطان من قرب أو من بعد ، ويتأثرون بالخطوب التى يقتضيها الاتصال بالسلطان والاشتراك فى الحياة العامة ، ويصورون هذا كله حين يكتبون ، سواء أصدروا فيما يكتبون عما يقتضيه العمل أو عما يجدونه فى ذوات أنفسهم . وأنا ألتمس الكاتب العربى أو الإسلامى الذى نفض يده من الحياة العامة نفضاً واعتزل الحقائق الواقعة اعتزالا ، فلا أكاد أظفر به أثناء هذه العصور الأدبية العربية المزدهرة .

وواضح جدًّا أن اتصال الأدب بالحياة الواقعة ليس معناه أن ينقطع الأديب عن نفسه ، فلا يكتب ولا ينظم إلا فيما يمس هـذه الحياة الواقعة . فتصور الاتصال بين الأدب والحياة الواقعة على هذا النحو ضرب من السخف لا غناء فيه ؛ لأن الإنسان ، ولا سيما حين يكون على ما ينبغى أن يكون عليه صاحب الفن من دقة الحس ورقة الشعور وصفاء الطبع واعتدال المزاج ، لايستطيع أن ينسى نفسه ولا أن يجحد مايختلف عليها من ألوان الشعور حين يتصل بظواهر الأشياء وحقائقها .

فإغراق الشاعر فى الغناء وإلحاحه فى وصف الجمال مهما يكن مظهره ، ليس معناه انقطاع هذا الشاعر عن الحياة الواقعة واعتزاله فى برجه العاجى ، وإنما معناه أنه لا ينسى نفسه كما أنه لا ينسى غيره ، وأن ذهنه مهيأ لتلقى الانطباعات مهما يكن مصدرها ، ثم لتصوير هذه الانطباعات فيما ينشىء من أثر منظوماً كان هذا الأثر أو منثوراً . فإغراق أبى نواس مثلا فى وصف الخمر وتهالكه على تصوير أهوائه الجامحة ولذاته الآثمة ، ليس معناهما أن أبا نواس قد اعتزل حياة الناس وارتفع أو اتضع بأدبه عن المشاركة فى هذه الحياة ، بل معناه أنه قد آثر نفسه بمقدار قليل أو كثير من إنتاجه الأدبى دون أن ينسى الحياة الواقعة ، وإنما هو يشارك فيها حين يمدح الخلفاء والوزراء والأمراء ، ويشارك فيها حين يهجو ، ويشارك فيها حين يصور الزهد . ومن يدرى ! لعله يشارك فيها أشد المشاركة حين يُغْرق فى وصف الخمر ، وحين يصور الأهواء الجامحة واللذات الآثمة . لأنه لم يكن يعاقر الخمر ولا يقارف الإثم وحده ، وإنما كان فرداً من طبقة

ألفت معاقرة الخمر ومقارفة الإثم . فهو إذن لا يصور نفسه وحدها، وإنما يصور طبقة من معاصريه . وهو من هذه الناحية مشارك فى الحياة الواقعة حين تكون جدًّا وكدًّا ومواجهة للمشكلات ، وحين تكون عبثاً وهزلا ومجونا ومقارفة للموبقات . وهو من هذه الناحية أيضاً مرآة للعصر الذى كان يعيش فيه ، أو مرآة ، إن شئت ، للون من ألوان الحياة فى العصر الذى كان يعيش فيه . ولولا أن الأدباء يشاركون فى الحياة الواقعة بأدبهم لما أمكن أن يلهج مؤرخو الآداب بهذه الجمل التى يلحون علينا بها من أن الأديب صورة لعصره ومرآة لبيئته ومن أن الأدب مصدر من مصادر التاريخ ، إلى آخر هذه العبارات التى لا تدل فى حقيقة الأمر على شىء إلا أن الأدب متصل بالحياة الواقعة مشارك فيها مصور لها ، حافظ بحكم هذا كله لخصائصها التى يمكن أن تنقل من جيل إلى جيل ، وأن تصبح بعد ذلك موضوعاً لدرس التاريخ .

من السخف إذن أن يقال إن أدبنا العربى قد كان معتزلا للحياة الواقعة منفصلا عنها فى تلك العصور . ومع ذلك فقد يمكن أن نلاحظ أن الشعر مثلا قد نأى عن الحياة الواقعة فى بعض عصوره حين غلبت العجمة على الحياة الأدبية ، وحين تسلّط المستبدون من غير العرب على حياة الشعوب واستأثروا لأنفسهم وخاصتهم بالسلطان كله ، ولم يشركوا الشعب فى قليل أو كثير من هذا السلطان ، وإنما قدسوا سلطانهم ليقدسوا أنفسهم ، واحتكروا الأمور العامة وحظروا على غيرهم أن يشارك فيها أو يخوض فى ذكرها . هنالك تضاءلت الصلة بين الأدب والحياة الواقعة العامة ، وهنالك عكف الأدباء على أنفسهم وفرغوا لها ، وجعلوا يُبدئون ويعيدون فيما ورثوا من معانى القدماء ، لا يجددون شيئاً ؛ لأنهم لم يكونوا يصنعون شيئاً . فرغوا لأدب لا حياة فيه ؛ لأنهم أنفسهم لم يكونوا يحيون ، وإنما كانوا مضطرين إلى لون من الحياة يشبه الموت ، فصوروا حياتهم كما استطاعوا أن يصوروها .

فالأدب العربى قد اتصل بالحياة العامة حين أتاحت الظروف للأدباء أن يشاركوا فى هذه الحياة ، وانفصل عن الحياة العامة حين اقتضت الظروف أن يتنحى الأدباء عن هذه الحياة . وربما كان هنالك مثل يبين ذلك فى غير غموض ولا لبس ، وهو هذا الذى نجده فى القرن الأول حين كان الأدب العربى مزدهراً أشد الازدهار ، وحين كانت الحياة السياسية قوية أعظم القوة ، وحين

اضطر فريق من أبناء المهاجرين والأنصار بحكم السياسة الأموية إلى الفراغ والعكوف على أنفسهم ولذاتهم. هنالك اعتزل عمر بن أبى ربيعة والعرجى وابن أبى عتيق وأمثالهم الشؤون العامة، ولكنهم لم يعيشوا فى بروجهم العاجية، وإنما عاشوا مع الناس فى الحجاز؛ لأن الحجاز كله قد اضطر إلى اعتزال السياسة وتجنب الشؤون العامة. فكان هؤلاء الأدباء يشاركون فى الحياة الواقعة من حولهم؛ لأن هذه الحياة الواقعة كانت ابتعاداً عن السياسة واعتزالا للشؤون العامة وفراغاً للنفس وتهالكا على اللذات. وهؤلاء الأدباء مع ذلك لم يحتملوا هذه العزلة راضين عنها محبين لها، وإنما احتملوها على كره منهم وتسلوا عنها بهذا الغزل الرفيع. وهل زاد العرجى على أن صور آلمه وألم أمثاله لهذه العزلة التى فرضت عليهم حين قال:

أضاعونى وأىَّ فتًى أضاعوا   ليوم كريهةٍ وسِدَاد ثغرِ

على أن العرجى وغيره من شعراء الحجاز فى ذلك الوقت قد حاولوا الثورة على هذا الاعتزال الذى فرض عليهم، ولقوا فى سبيل هذه الثورة ألوانا من العناء حفظها لنا التاريخ. والأمر لا يحتاج إلا إلى أن نفهم التاريخ على وجهه وإلى أن نقيس حياة القدماء بحياة المحدثين. فهناك مشكلة خطيرة هى التى أنشأت مسألة الاتصال بين الأدب والحياة الواقعة أو الانفصال عنها، وهى أن حياة القدماء وحياة المحدثين إلى وقت قريب لم تكن تعتمد على الديمقراطية التى تعترف بحق الشعوب فى الحرية والعدل والمساواة، وإنما كانت تحتفظ بهذا الحق لطبقة ممتازة من الناس، إليها وحدها السلطان، وإليها وحدها الثقافة، وإليها وحدها كل ما يكوِّن الرجل الحر بالمعنى الدقيق، فأما كافة الشعب فكانت أداة مسخرة تجدّ وتكد وتشقى لتنعم هذه الطبقة الممتازة بالحكم والسلطان وبالأدب والفن وبالفلسفة والعلم.

فما عسى أن تكون الحياة الواقعة العامة بالقياس إلى الأجيال التى جرت أمورها على هذا النحو: أهى حياة الشعب الذى كان أداة مسخرة، أم هى حياة السادة الذين كانوا يستغلون هذه الحياة؟ هذه هى المشكلة التى خيلت إلى كثير من الناس أن الأدب كان معتزلا للحياة العامة. ولكن حقائق الأشياء تدل فى غير لبس على أن الأدب لم يعتزل الحياة العامة قط، وإنما الشعوب هى التى أكرهت

على اعتزال هذه الحياة العامة ونحيت عنها تنحية . فالأدب اليونانى الذى كان ينشأ فى أتينا إنما كان يحفل بحياة المواطنين الأتينيين ، وهؤلاء المواطنون كانوا قلة ضئيلة بالقياس إلى سكان أتينا وما حولها من المدن والقرى . والأدب الذى كان ينشأ فى البصرة والكوفة وبغداد إنما كان ينشأ للذين يستطيعون فهمه وذوقه من هذه الطبقة التى أتيح لها الامتياز ، وهذه الطبقة ضئيلة جداً بالقياس إلى سكان العراق . والأدب الذى كان ينشأ فى باريس وفرساى فى القرن السابع عشر مثلا إنما كان ينشأ لهذه الطبقة القليلة التى كانت تستأثر بالحياة العامة فى القصر وخارج القصر ، وهى قلة ضئيلة بالقياس إلى سكان فرنسا . وما ينبغى أن تطلب إلى الأدب أن يتصل بالذين لايستطيعون فهمه ولا ذوقه ، وإنما ينبغى أن تطلب إلى الدولة أن تهيىء الشعب للمشاركة فى الحياة العامة أولاً ولفهم الأدب وذوقه ثانياً ، ثم تلوم الأدب بعد ذلك إن اعتزل الحياة العامة ، وترفّع عن الاتصال بالشعوب . وقد طلب الأدب نفسه إلى أوربا فى القرن الثامن عشر تهيئة الشعب للمشاركة فى الحياة العامة ، والارتفاع به عن الغفلة والجهل والبؤس ، وجاهد فى ذلك حتى بلغت الشعوب منه ما أرادت فى القرن الماضى وفى هذا القرن ، واتصل الأدب بالشعب ما وجد إلى الاتصال به سبيلا . وبقيت هنا وهناك قلة ضئيلة جداً من الأدباء لم تفطن لما حدث حولها من التطور ، أو لم ترد أن تفطن لهذا التطور ، فظلت محافظة معتزلة متجافية عن الحياة الشعبية ، ولكنها لم تستطع أن تحتفظ بعزلتها وتجافيها ، أبت أن تهبط إلى الشعب فارتقى الشعب إليها ؛ لأن الشعب إذا أخذ فى الثقافة لم يقنع منها بالقليل .

وهذه المشكلة التى عرضت لأوربا وأثارت فيها هذا الخلاف ، قد عرضت لنا نحن وأثارت عندنا هذا الخلاف فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن ؛ فقد أدركتنا الحياة الحديثة ونحن على ما كان عليه الناس قبل الثورة الفرنسية : طبقة ضئيلة تستأثر بالحياة العامة فتنعم بالسلطان والثقافة وما يلائمها من الأدب ، وشعب مسخر لخدمة هذه الطبقة الضئيلة ، لاحظ له من سلطان ، ولا من ثقافة ، ولا من أدب . فى ذلك الوقت كانت الصلة منقطعة أو كالمنقطعة بين الأدب والشعب . ولكن التطور الحديث لم يلبث أن نبه الشعب إلى حقه ، وأن يتخذ الأدباء أنفسهم وسيلة لهذا التنبيه ، وإذا هم يتجاوزون الطبقة الممتازة إلى الطبقات المسخرة ، وإذا هم يخرجون من تلك العزلة أو قل يوسعون الميدان

الذى كانوا يعيشون فيه ؛ ليستطيع أن يتلقى أفواجاً من الشعب تستمع لهذا الأدب الذى كان يلقى من وراء ستار . فاصبح يُلـْقى فى الهواء الطلق ، تسمع له الجماهير وتنشره الصحف ويسعى إلى القادرين على فهمه وذوقه فى الأقطار البعيدة من الأرض . وربما كان شوقى وحافظ رحمهما الله آية بينة على هـذا التطور ؛ فقد كان شعر شوقى ينشد فى القصور ، وكان شعر حافظ ينشد فى دور الأغنياء وأصحاب الجاه . ثم لم يكد القرن يتقدم حتى أصبح شعر شوقى وحافظ ينشد فى الملاعب وينشر فى الصحف ، وحتى ذاعت دواوين شوقى وحافظ ، فتجاوزت طبقة السادة ، ووصلت إلى أيدى قوم لم يكن لهم من أمور الحكم والسلطان شئ . ثم كانت الحرب العالمية الأولى والثورة المصرية ، وإذا الحواجز تلغى بين الطبقات ، وإذا الشعب يقتحم هذه الحواجز اقتحاماً ، وإذا الأدباء الذين كانوا يترفعون عن الشعب قد أصبحوا ألسنة لهذا الشعب يعبرون عن نفسه أكثر مما يعبرون عن أنفسهم ، ويصورون حياته أكثر مما يصورون حياة أنفسهم . وقد عرفنا حياة الأحزاب السياسية ، وانقسم المصريون بين هذه الأحزاب ؛ فعدنا إلى حياة العرب فى القرن الأول من جهة : أحزاب سياسية لها أدباؤها وشعراؤها ، ووثبنا إلى الحياة الأوربية الحديثة من جهة أخرى : أحزاب سياسية لها أدباؤها وشعراؤها كذلك . وحقق أدبنا العربى الحديث هذه الصـلة الرائعة بين حياتنا القديمة وبين الحياة الأوربية الحديثة ، واستؤنف الاتصال بين الأدب العربى وبين الشعب وحياته الواقعة العامة . فأصبح الأدباء مرآة للشعب حقًّا ينطقون بلسانه ويصورون آلامه وآماله . وقـد حاول أديب أو أديبان الارتفاع بالأدب عن الشعب والاعتزال فى البروج العاجية ، فلم تظفر هذه المحاولة إلا بالإخفاق الفاحش الشنيع .

وكذلك اتصل التاريخ وأصبحت الحياة الحديثة صورة مقاربة للحياة القديمة على ما بينهما من الفروق الهائلة . فأدبنا الحديث متصل بحياتنا الواقعة ، كما كان أدبنا القديم متصلا بالحيـاة القديمة الواقعة . والفرق بين الأدبين عظيم ؛ لأن الفرق بين الحياتين عظيم أيضاً . حياتنا الواقعة شعبية أو تريد أن تكون شعبية لا يستأثر بها فريق من الناس دون فريق ، وأدبنا الحديث شعبى أو يريد أن يكون شعبياً لا ينشئه قوم ممتازون لقوم ممتازين . والحياة الواقعة القديمة أرستقراطية قد استتبعت أدباً يشبهها . ومن هنا نلاحظ هـذه الظاهرة

الطريفة ظاهرة الأدب المزدوج فى الحيـاة الواقعة القديمة ، والأدب الفرد فى حياتنا الحديثة : فى الحياة الواقعة القديمة أهمل الشعب فعاش عيشته الخاصة ، وأنشأ أدبه الخاص ، فشاع كتاب ألف ليلة وليلة ، وما يشبهه من الأدب الشعبى. وفى حياتنا الحديثة عظم أمر الشعب وأصبح كل شىء ، فعُنى به الأدباء ، ولم يحتج إلى أدب شعبى خاص ، وإنما اكتفى بهذا الأدب الرفيع الذى كان ينظر إليه من بعيد فأصبح الآن يذوقه ، ويتخذه غذاء للعقول والقلوب .

هذه هى قصة الاتصال والانفصال بين الأدب والحياة الواقعة ، تظهر خطيرة كل الخطورة حين ننظر إليها نظراً سطحيًّا ، فإذا تعمقناها وبلونا حقائقها ، رأيناها يسيرة قريبة تنحل إلى شىء يسير قريب ، وهو أن الأدب متصل دائماً بالحياة الواقعة . فإذا أصبحت هذه الحياة الواقعة شعبية ، فليس للأدب بد من أن يكون شعبيًّا أيضاً . وهذا هو الذى تتجه إليه حياة الآداب ؛ لأن هذا هو الذى تتجه إليه حياة الشعوب .

طه حسين

حق الاعتراض

فى هيئة الأمم المتحدة

ألفت لجنة من الخبراء الفقهاء لبحث مدى تطبيق حق الاعتراض droit de veto فى هيئة الأمم المتحدة ، وقد استعمله الاتحاد السوفيتى واستعملته المملكة المتحدة صراحة ، وتساءل المتسائلون هل كان انسحاب المندوب السوفيتى من مجلس الأمن كلما جاءت مسألة إيران بعد اليوم السادس من شهر مايو الذى أعلن فيه أن القوات الروسية قد تم انسحابها من تلك البلاد مظهراً من مظاهر ذلك الحق ؟ كما ذكر الذاكرون اقتراحا للمندوب السوفيتى ذاته بالنزول عن حق الاعتراض فى لجنة « الطاقة الذرية » إذا نزل عنه مندوبو سائر الدول المتمتعة به .

وحق الاعتراض هو الحق المقرر للخمس الدول صاحبات المقاعد الدائمة فى مجلس الأمن — وهن المملكة المتحدة والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى والصين وفرنسا — فى الوقوف من بعض القرارات موقفاً يبطلها ويجعلها كأن لم تصدر أصلا .

وقد قررت ذلك الحق الفقرة الثالثة من المادة السابعة والعشرين من ميثاق الأمم المتحدة ؛ إذ نصت على أن قرارات مجلس الأمن « تصدر بموافقة أصوات سبعة من أعضائه يكون من بينها أصوات الأعضاء الدائمين متفقة » . ويرجع هذا النص إلى قرار من القرارات التى كان الأقطاب الثلاثة ، روزفلت وتشرشل وستالن ، قد اتخذوها فى مؤتمر يالطا وجعلوه واحداً من الأسس التى يستمسكون بها فى مؤتمر سان فرنسيسكو . وكانت الحكمة التى استندوا إليها فى اتخاذهم ذلك القرار أن دولهم — ومعها فرنسا والصين — هى التى احتملت العبء الأكبر فى الحرب ، وهى بحكم قواتها ومعداتها التى ستحتمل أكبر العبء لا فى حالة قيام حرب جديدة فحسب ، بل فى حالات القسر

الذى يفرض على الدول المهددة لسلام العالم وأمنه منعاً للحرب العامة أو حصراً لويلاتها فى حدود ضيقة ؛ ولذلك فقد وجب أن يكون لها ذلك الحق الذى يتمشى مع ثقل تلك الأعباء .

ولقد قابلت الدول المتوسطة والصغيرة حق الاعتراض المقرر على هذا الوجه بعظيم المقاومة وشديد الاحتجاج أثناء المناقشات التى دارت حوله فى مؤتمر سان فرنسيسكو ، إذ اعتبرته ناقضاً لمبدأ المساواة بين الأمم كبيرها وصغيرها المقرر فى ديباجة الميثاق ، والمقول إنه المبدأ الأصيل الذى يقوم عليه النظام العالمى الجديد . وكان لمصر فى هذا الصدد موقف بل أكثر من موقف . والحق أن انجلترا والولايات المتحدة كانتا فى وقت من أوقات المناقشة فى سان فرنسيسكو قد أظهرتا من اللين ما بدا معه الأمل فى إلغاء ذلك الحق ، لكن تشدد الاتحاد السوفيتى وتأييد فرنسا لهذا التشدد قطعا حبل ذلك الأمل .

وعندما عرضت أحكام التصويت على اللجنة المختصة فى مؤتمر سان فرنسيسكو احتدم الخلاف فى شأنها على وجه لم يسبق له مثيل ، وهوجمت امتيازات الدول العظمى من جانب الدول الأخرى على أساس أن حق الاعتراض المخول لها لا وجه له ، وخاصة بالنسبة للقرارات الصادرة فى مرحلة الحل السلمى للمنازعات . وخشى فى هذا الشأن أن يؤدى استعمال هذا الحق إلى عجز المجلس عن السيطرة على النزاع ، فيفلت زمامه من يده ، ويتخذ مجراه خارج دائرته .

واقترحت مصر أن يعاد النظر فى أحكام التصويت ، فتصدر جميع القرارات سواء كانت متعلقة بالإجراءات أو بالمسائل الموضوعية بأكثرية ثمانية أصوات على أساس رفع عدد الأعضاء إلى أربعة عشر . ويكفى أن تصدر القرارات فى المسائل الموضوعية بأغلبية ثمانية أصوات وموافقة أربع من الدول العظمى الخمس متى لم تكن إحدى هذه الدول طرفا فى النزاع الذى يتعلق به قرار المجلس ، فإذا كان القرار صادراً بالقيام بعمل من أعمال القسر ، فللدولة العظمى التى لم توافق على هذا القرار أن تمتنع عن الاشتراك فى هذه الأعمال ، ولكن يقع عليها ألا تقدم أى عون للدولة التى تتخذ هذه الأعمال ضدها .

على أن الدول العظمى تمسكت بالصيغة التى أقرت فى مؤتمر يالطا ، ولم تجد اعتراضات الدول الصغرى ، فلم تقبل الدول العظمى أى تعديل فيها .

وفى أثناء المناقشة فى مسألة التصويت تقدمت الدول الصغرى باستفسارات

حتى فى شأن تطبيق أحكام التصويت ، وأحيلت المسألة إلى لجنة فرعية نظراً لما أثير من شكوك فى مدى هذا التطبيق ونطاقه ، وخاصة بعد أن أبدت المملكة المتحدة تفسيرات ثبت فى المراحل اللاحقة أنها تتجاوز ما اتفقت عليه الدول العظمى فى النهاية . وتقرر أن تعد تلك اللجنة قائمة بهذه الاستفسارات تقدم إلى الدول العظمى فى صورة أسئلة يطلب منها الرد عليها بجواب مشترك . وشكلت هذه اللجنة من أحد عشر عضواً ، ومثلت فيها الدول العظمى جميعاً وأستراليا وكوبا ومصر واليونان وهولندا وسلفادور . واشتملت قائمة الأسئلة على اثنتين وعشرين مسألة مختلفة أريد الاستفسار عن استعمال حق الاعتراض فى كل منها . ووعدت الدول الداعية إلى مؤتمر سان فرنسيسكو بإعداد تصريح مشترك منها ومن فرنسا .

وفى أثناء إعداد هذا التصريح — على حد ماورد فى تقرير وزارة الخارجية المصرية عن أعمال مؤتمر الأمم المتحدة للتنظيم الدولى الصادر فى سنة ١٩٤٥ والذى نستقى منه المعلومات المتصلة بتطور حق الاعتراض فى اجتماعات ذلك المؤتمر ولجانه — ثار الخلاف فى إحدى المسائل بين الدول الداعية نفسها . فمع أن هذه الدول لم تختلف فى أى وقت على ضرورة الأخذ بإجماع الدول العظمى عند إصدار قرارات المجلس فى مرحلة حل المنازعات حلا سلميًا فقد أثيرت مسألة حق دولة من الدول ذوات المركز الدائم فى منع نظر المجلس فى نزاع ليست طرفا فيه وفى منع المناقشة بشأنه . واختلف الرأى بين هذه الدول فى تفسير صيغة يالطا ، وهل هى تجيز لمثل هذه الدولة هذا الحق أو لاتجيز . وقد سبق أن أصدرت وزارة الخارجية الأميريكية فى الفترة الفاصلة بين مؤتمر يالطا ومؤتمر سان فرنسيسكو تصريحا رسميا يتضمن تفسيراً لأحكام التصويت المتفق عليها فى يالطا على وجه يقضى بأن لاحق لمثل هذه الدولة فى منع المجلس من النظر فى مثل هذا النزاع ومن المناقشة فيه . ولم يخرج موقف الولايات المتحدة فى المؤتمر عن حدود هذا التصريح ، بل انضمت إليها فى هذا التفسير المملكة المتحدة والصين وفرنسا . أما الاتحاد السوفيتى فقد أبدى عند إعداد التصريح المشترك أن النظر فى أى نزاع فى مجلس الأمن والمناقشة فيه إنما يعتبر كل منهما مسألة تتعلق بالموضوع لا بالإجراءات ، وبهذا تنطبق عليهما الأحكام التى تنطبق على بقية المسائل الموضوعية كأعمال القسر وتدبير الحلول السلمية للمنازعات . وأصرت

الدول الداعيـة الأخرى على ضرورة تأكيد حق النظر والمناقشة فى أى موقف يعرض أمره على مجلس الأمن ، فيجرى هذا النظر وتلك المناقشة قبل أن تستعمل إحدى الدول ذوات المركز الدائم حقها فى منع المجلس من الانصراف إلى اتخاذ التدابير اللاحقة المفروض اتخاذها فى شأن النزاع .

وانتهى الخلاف بين الدول الكبرى بعدول الاتحاد السوفيتى عن وجهة نظره الأولى . وقد استغرق حل الخلاف وإعداد التصريح المشترك ثلاثة أسابيع تبين للجنة الفرعية بعد انقضائها أن هذا التصريح لم يتضمن الإجابة على جميع الأسئلة، فحاولت الحصول على زيادة فى الإيضاح . وإذ يئست من الحصول عليها أحيلت المسألة إلى اللجنة الفنية . وقد وجدت هـذه اللجنة نفسها مضطرة إلى قبول التصريح بالحالة التى أعلن بها .

« على أن الدول العظمى أكدت أثناء المناقشـة أنها فى استعمال حقوقها فى التصويت سيحدوها دائمـاً الإحساس بتبعاتها نحو الدول الصغرى ، وإنها لن تستعمل حق الاعتراض إلا فى أضيق حدوده . »

ومعنى كل هذا الذى أوردنا أن وجهات النـظر إلى حق الاعتراض لا تزال مختلفة ، إذ لم تصل اللجان ولم يصل المؤتمر إلى توحيدها ، وهذا الاختلاف الباقى هو الذى دعا إلى تأليف لجنة الخبراء وتكليفها بحث مدى تطبيق ذلك الحق .

على أن النصوص الواردة فى ميثاق الأمم المتحدة لا تجعل من حق الاعتراض المقرر للخمس الدول صاحبات المقاعد الدائمة فى مجلس الأمن حقـاً مطلقاً .

ويجب التمييز بادئ ذى بدء بين التصويت فى الجمعية العامة والتصويت فى مجلس الأمن . أما التصويت فى الجمعية العامة فيقوم على مبدأ المساواة بين الأصوات جميعاً ، وتصدر القرارات فيها بأغلبية الثلثين فيما سمتها الفقرة الثانية من المـادة الثالثة عشرة « المسائل الهامة » ، وبالـكثرة المطلقة للأعضاء الحاضرين على حد ماوردت به الفقرة الثالثة من المـادة المذكورة ، لـكن دون أى اشتراط خاص بأصوات الدول العظمى وضرورة وجودها بين الـكثرة المقررة .

أما مجلس الأمن فقد تولت المـادة السابعة والعشرون من الميثاق مسألة التصويت فيه فميزت بين المسـائل « الإجرائية » والمسائل « الأخرى » .

واشترطت للمسائل الإجرائية أن « تصدر القرارات فيها بموافقة سبعة من أعضاء المجلس » دون تمييز بين أصحاب المقاعد الدائمة فيـه وأصحاب المقاعد الموقوتة ، ونصت بالنسبة للمسائل الأخرى كافة على أن تصـدر القرارات فيها « بموافقة سبعة من أعضائه يكون من بينها أصوات الأعضاء الدائمين متفقة » . ولـكنها استثنت من هذه المسائل الموضوعية الأمور الخاصة بحل المنازعات حلاً سلمياً ، وهى أقرب إلى محاولات التوفيق منها إلى اتخاذ الخطط ، وقضت بالنسبة لها بأن « يمتنع عن التصويت من يكون طرفاً فى النزاع » وإن كان واحداً من الأعضاء الدائمين أنفسهم .

أما فى المجلس الاقتصادى والاجتماعى وفى مجلس الوصاية ، فلا امتياز لصوت من أصوات الأعضاء على صوت سواء أكان صاحبه من أصحاب المقاعد الدائمة أم لم يكن .

وإذن فلا يستعمل حق الاعتراض إلا فى المسائل غير الإجرائية التى تعرض على مجلس الأمن وحده ولا يكون صاحب الحق طرفاً فيها ، وهو إذا كان طرفاً فإنه لا يستعمل هذا الحق فقط بل إنه لا يشترك فى التصويت أصلا .

أما الانسحاب من المجلس — وهو الذى تكرر صدوره عن المندوب السوفيتى فى اجتماعات نيويورك — فلا يمكن اعتباره مظهراً من مظاهر حق الاعتراض أصلا ؛ إذ يجب إعلان الاعتراض صريحاً حتى يكون هناك اعتراض . وقد جرى العرف فى لندن على هذه الوتيرة ، فجرت المناقشات فى المسألة الإيرانية وفى المسألة اليونانية والأندونيسية وجرت قدما ، وعرضت فى بعضها اقتراحات بقرارات ، فأعلن مندوب روسيا فى واحدة ، وأعلن مندوب بريتانيا العظمى فى ثانية أنه لن يوافق على قرار مستند إلى ما تقدم من اقتراح . فعرض المجلس إلى الاقتراحات أخرى تقدم أصحابها بها بعد التهديد بالاعتراض ، ووصل فيها إلى تسوية أو لم يصل ، فاعترض المندوب الروسى أو البريتانى ، وحال اعتراضه الصريح دون صدور القرار .

نعم إن عدم حضور مندوب إحـدى الدول صاحبات المقاعد الدائمة يجعل حكم الفقرة الثالثة من المادة السابعة والعشرين غير قابل للتطبيق ؛ وهى تنص على أن القرارات تصدر « بموافقة سبعة أصوات يكون من بينها أصوات الأعضاء الدائمين متفقة » . وفى غياب واحد منهم لا تكون هناك « أصواتهم »

ولاتكون أصواتهم «متفقة» ؛ وهذه هى المسألة الجدية التى تعرض على الخبراء. وهى المسأله الغامضة فى نظرنا بين سائر المســائل المتبينة خلال مواد الميثاق .

على أن الخبراء سيعرضون حتما لتلك القائمة من المسائل التى كانت قد أعدت فى اللجنة الفرعية التى ألفها مؤتمر سان فرنسيسكو، ولم تحظ « بزيادة الإيضاح » الذى كانت تتلمسه فى صدد موضوع التصويت وحق الاعتراض. ولعلهم يعرضون فى الوقت ذاته لمبدأ الاعتراض الذى تقوم القيامة من كل ناحية فى وجهه ؛ لاعتدائه على مبدأ المساواة التى يستند إليها الميثاق، وتستند إليها هيئة الأمم المتحدة والاتجاهات الدولية الجديدة كلها . ولعلهم إذ يعرضون له يوصون بإلغائه ولا سيما بعد ما بدا من جانب المندوب السوڤيتى فى لجنة الطاقة الذرية استعداده للتزول عنه إذا نزل الآخرون .

محمود عزمى

جرائم الحرب

ومحاكمات نورنبرج

تجرى منذ أشهر فى مدينة نورنبرج الألمانية القديمة محاكمة الفريق الأول من مجرمى الحرب الألمان . وقد اختيرت نورنبرج لإجراء هذه المحاكمة لأسباب أدبية ، منها أنها كانت معقلا من أهم معاقل النازية ، وفيها عقد المؤتمر النازى الكبير سنة ١٩٣٥ وصدرت فيه قوانين نورنبرج الشهيرة لحماية الجنس الآرى وإقصاء الجنس اليهودى نهائيا عن حظيرة الأمة الألمانية . وهى الآن تشهد خاتمة المأساة النازية ودمغ زعمائها الأكابر بطابع الجريمة ، وربما شهدت غدا رءوس بعضهم تسقط فى ساحاتها تنفيذا لحكم المحكمة الدولية .

وهذه المحاكمة هى الأولى من نوعها فى ميدان القانون الدولى ، وقد سنت من أجلها أصول ومبادئ جديدة لم يعرفها القضاء الجنائى الدولى من قبل ، وصيغت أنواع جديدة من الجرائم الدولية لم يكن يسوغها العرف الدولى ، فغدت بذلك مستقى لطائفة من القواعد والسوابق التى تتصل أشد الاتصال بجرائم الحرب وتحديد تبعاتها ومعاقبة المسئولين عنها .

على أننا نستطيع أن نعتبر محاكمة نورنبرج ، بالرغم من كونها الأولى من نوعها ، مرحلة جديدة لمحاولة قديمة . ذلك أن مسألة جرائم الحرب ومعاقبة المسئولين عنها مسألة قديمة ترجع إلى الحرب الكبرى ، وقد كان الألمان فى الحرب الكبرى كما كانوا فى الحرب العالمية الثانية هدف الاتهام . ولم تدخر ألمانيا الإمبراطورية يومئذ ، شأنها فى الحرب المنقضية ، أية وسيلة من وسائل السفك المروع أو التدمير الشامل إلا استعملتها ضد أعدائها : فمن حرب الغواصات ، إلى استعمال الغازات الخانقة لأول مرة ، إلى قتل الرهائن والأسرى والفتك بالمدنيين بمختلف الوسائل والصور . ومن ثم فقد فكرت الدول المتحالفة يومئذ فى أن تحمل زعماء ألمانيا الإمبراطورية تبعة هذه الجرائم ، وأن تسعى إلى

معاقبتهم باعتبارهم « مجرمى حرب » يسئلون عما اُقـتُرِف بأوامرهم من جرائم أو أعمال اعتبرت منافية لقوانين الحرب .

وجاءت معاهدة ڤرساى تحققت للحلفاء الظافرين ، وفى مقدمتهم انجلترا وفرنسا وأمريكا ، ما أرادوا من النص على مسئولية مجرمى الحرب ووجوب محاكمتهم ومعاقبتهم على ما اقترفوا من جرائم . وأفردت المعاهدة لهذه المسألة قسما خاصا هو القسم السابع (المتعلق بالعقوبات) ويشتمل على أربع مواد ، من المادة ٢٢٧ — ٢٣٠ وقد نص فيها على اعتبار إمبراطور ألمانيا ولهلم الثانى « مرتكبا لجريمة عليا ضد المبادئ الأخلاقية الدولية ، وضد حرمة المعاهدات المقدسة » ، وعلى أن تنشأ لمحاكمته محكمة خاصة من قضاة يمثلون الدول المتحالفة تسترشد فى حكمها بالمبادئ والعهود الدولية والمبادئ الأخلاقية الدولية ، وتوقع على المتهم نوع العقاب الذى ترى تطبيقه ، كما نص على اعتراف الحكومة الألمانية للدول المتحالفة بحق إحالة الأشخاص الذين ارتكبوا أعمالاً تنافى قوانين الحرب وتقاليدها إلى محاكم عسكرية لمحاكمتهم ومعاقبتهم ، وعلى أن تقدم الحكومة الألمانية إلى الحلفاء جميع الأشخاص الذين ارتكبوا مثل هذه الأعمال ، وأن تقدم جميع الوثائق والمعلومات اللازمة لإثبات الجرائم المنسوبة إلى المتهمين والبحث عن المجرمين وتقدير التبعات .

ولكن نصوص معاهدة ڤرساى فى هذا الشأن لم يكتب لها التنفيذ العملى ؛ فقد عجز الحلفاء عن وضع يدهم على إمبراطور ألمانيا السابق ؛ إذ لجأ إلى هولندة وأبت هولندة تسليمه تمسكا منها بحق إيواء اللاجئين السياسيين ، ولأن ألمانيا لم تسلم أحد أبنائها الذين أريدت محاكمتهم ومعاقبتهم على ما ارتكبوا خلال الحرب من أعمال اعتبرها الحلفاء جرائم يجب العقاب عليها . وساعد ألمانيا على سلوك هذه الخطة تفرق كلمة الدول الظافرة ، ولا سيما انجلترا وفرنسا ، وانسحاب أمريكا قبل بعيد من ميدان الشؤون الأوربية .

وقد دار التاريخ دورته ، وعادت مسألة مجرمى الحرب لتتخذ فى الحرب العالمية الثانية أهمية خاصة ، وذلك نظراً لفداحة الأعمال الإجرامية التى ارتكبها الحزب النازى ، وما أنزلته القيادة الألمانية بالبلاد المفتوحة من ضروب التدمير والسفك التى لم يسمع بها . وأبدت الدول المتحالفة ، أو الأمم المتحدة ، منتهى الإصرار

والعزم على وجوب القبض على مجرمى الحرب الألمان ومحاكمتهم على ما اقترفوا من جرائم . وظهر هذا الإصرار فى صورة قرارات اتخذتها الدول المتحالفة الكبرى . أولا وقبيل هزيمة ألمانيا فى مؤتمر القرم فى فبراير سنة ١٩٤٥ حيث نص ضمن قراراته على وجوب معاقبة مجرمى الحرب الألمان عما ارتكبوا من جرائم . وثانياً فى وثيقة النصر الأولى التى تضمنت شروط التسليم التى فرضت على ألمانيا (٥ يونيه سنة ١٩٤٥) وفيها نص على وجوب تسليم جميع زعماء الحزب النازى وغيرهم ممن تعلق به ريبة الإجرام النازى . وثالثاً فى مؤتمر بوتسدام (يوليه — أغسطس سنة ١٩٤٥) حيث تضمنت قراراته نصاً جديداً فى هذا الشأن .

وأنشأت الدول المتحدة الكبرى — بريطانيا وروسيا وأمريكا — لجنة مشتركة للنظر فى جرائم الحرب ، ووضع الأصول والإجراءات التى يجب اتباعها فى محاكمة المسئولين عنها . وثارت فى البداية بعض صعاب قانونية دولية حول مركز رئيسى دولتى المحور ، أعنى هتلر وموسولينى ، وهل يحاكم كل منهما أمام محكمة خاصة أم يعاقب بمقتضى قرار سياسى على نحو ما اتبع فى شأن نابوليون بونابرت ، وهو المثل الوحيد من نوعه الذى يقدمه لنا التاريخ فى هذا الباب . ولكن سرعان ما حسمت هذه الصعاب بمصرع الرجلين واختفائهما من الميدان إلى الأبد ، وفيما عدا ذلك فقد استقر رأى اللجنة على أن يقدم إلى المحاكمة سائر الزعماء والقواد والساسة الذين تلحقهم التبعة مهما كانت أشخاصهم ومراكزهم .

وقد أنشئت « المحكمة الدولية العسكرية » أو المحكمة العليا لجرائم الحرب بمقتضى اتفاق عقد فى أغسطس سنة ١٩٤٥ بين بريطانيا العظمى وأمريكا وروسيا وفرنسا ، ووصف الغرض من إنشائها بأنه « إقامة الدعوى العمومية على كبار مجرمى الحرب من دول المحور الأوربى ومعاقبتهم » . ونص على أنها تختص بمحاكمة مجرمى الحرب الذين لا تتصل جرائمهم بمحيط جغرافى معين ، ويشمل هؤلاء بنوع خاص أكابر مجرمى الحرب . أما المجرمون الأصاغر فسيحاكمون فى البلاد التى ارتكبوا فيها جرائمهم . وجعل مقرها الدائم فى برلين ، وهى تعقد الآن أولى محاكماتها فى نورنبرج بصفة مؤقتة للبواعث الأدبية التى أشرنا إليها .

ويلحق بهذا الاتفاق دستور للمحكمة مكون من ثلاثين مادة ، يتناول إنشاءها واختصاصاتها وسلطاتها والإجراءات التى يتعين اتباعها فى التحقيق وفى إقامة الدعوى العمومية . وبالرغم من أن المحكمة قد وصفت بأنها « دولية عسكرية » فإنها تتألف من أربعة قضاة فنيين ينتمون إلى الدول الأربع ، ويتولى رآستها اللورد لورنس أحد أعضاء محكمة الاستئناف الإنجليزية ، ويقوم بمهمة الاتهام فيها أيضاً نفر من القضاة وأعضاء النيابة غير العسكريين .

ويؤلف دستور المحكمة من مزيج من الأصول الإنجليزية والأمريكية وأصول القارة ، سواء فيما يتعلق بالاتهام أو النفى والسماح للمتهمين بالاستعانة بالدفاع (المحامين) وتوجيه الأسئلة ، وأن يتقدموا بأى دليل للدفاع عن أنفسهم. بيد أن المحكمة منحت فيما يتعلق بالإثبات حرية العدول عن قواعد الإثبات الفنية ، ولها أن تنتفع إلى أقصى الحدود بالإجراءات والوسائل غير الفنية ، كما أن لها أن تقبل أى دليل ترى له قيمة مرجحة .

وكما عنى دستور المحكمة بالناحية الشكلية أو ناحية الإجراءات ، فقد عنى فى الوقت نفسه بالناحية الموضوعية ، وذلك بتعريف الأعمال التى يمكن أن تعتبر جرائم حرب وتدخل فى اختصاص المحكمة ويمكن أن تلحق تبعتها الأفراد العاديين ، وذلك على النحو الآتى :

أولا — التآمر والاتفاق الجنائى على ارتكاب أو على ما يتضمن ارتكاب جرائم ضد السلم أو جرائم حرب أو جرائم ضد الإنسانية .

ثانياً — جرائم ضد السلم . وتشمل تدبير أو تحضير أو شهر حرب اعتدائية أو حرب يترتب عليها انتهاك المعاهدات الدولية أو الاتفاقات أو التأكيدات أو الاشتراك فى تدبير عام أو مؤامرة ترمى إلى إضرام مثل هذه الحرب .

ثالثاً — جرائم حرب . وتشمل كل الأعمال التى يترتب عليها انتهاك قوانين الحرب أو تقاليدها .

رابعاً — جرائم ضد الإنسانية . وتشمل جرائم القتل والإبادة والاسترقاق والنفى وغيرها من الأعمال غير الإنسانية ، والتى ترتكب ضد السكان المدنيين سواء قبل الحرب أو أثناءها .

وعلى ذلك فقد اعتبرت المحكمة الدولية العسكرية هيئة قضائية لها أصول وقواعد خاصة تسير عليها بمقتضاها ، وعليها وفقاً لدستورها أن تقدر إدانة

المتهمين وبراءتهم وفقاً للأصول والقواعد الموضوعة ، لا وفقاً لتقديرها الخاص ؛ كما أن عليها أن تدعم الحكم الذى تصدره فى حق أى متهم — بالإدانة كان ذلك الحكم أو البراءة — بالأسباب التى تستند إليها . ويتعين بمقتضى ذلك أنه إذا ثبت أن أحد المتهمين لم يرتكب جريمة من الجرائم التى عددها دستور المحكمة ، فإنه يجب الحكم ببراءته .

وقد وجهت إلى المحكمة الدولية العسكرية وإلى دستورها طائفة من الملاحظات والمطاعن الهامة، تتلخص فى كيفية تأليفها ، وفى شرعية دستورها ، وفى كونه يعتبر ذا أثر رجعى سواء من حيث التطبيق أو نوع الجرائم التى نص عليها .

فأما عن تأليف المحكمة ، فقد قيل إنها تتألف من قضاة من الأمم المتحدة الظافرة ، وإن تأليفها على هذا النحو لمحاكمة أبناء الأمة المهزومة لا يتوافر فيه ما يجب لتحقيق العدالة من النزاهة ، والبعد عن التأثر بالعواطف والميول الشخصية ، وإنه كان خيراً لو أنها ألفت من قضاة محايدين لا تحدوهم مثل هذه المؤثرات . ويردون على ذلك بأن المحكمة تؤلف من خيرة القضاة ، وأن لها دستوراً خاصًّا لا تستطيع الخروج عليه ، وأنها تجرى محاكماتها فى علانية تامة ، وهذا فى ذاته ضمان لرقابة الرأى العام الدولى على إجراءاتها ، وأنه ليس من المحتوم فى جرائم الحرب أن يتولى أمرها قضاة محايدون ، وإلا كان من المتعذر أن تقدم قضايا التجسس والتخريب أمام القضاء الوطنى لدولة ما .

وأما عن شرعية دستورها ، فقد قيل إنه فضلا عن كونه قد وضع على يد مشترعى الأمم الظافرة ، فإنه يتضمن من الناحية الموضوعية النص على جرائم لم يعرفها القانون الدولى من قبل ، ولم تصطلح الأمم على اعتبار مثل هذه الأعمال جرائم حرب يعاقب عليها . . . كما يتضمن النص على تبعات لم يصطلح من قبل على التسليم بها . وهذا ما حاولت هيئة الدفاع عن المتهمين أن تثيره فى بداية المحاكمة .

ويردون على ذلك بأنه قد يكون حقًّا أن هذه الجرائم مستحدثة فى القانون الدولى ، ولكنها على أى حال يمكن أن ترجع إلى بعض أصوله . فأما تهمة التآمر على السلم ، وهى التهمة العامة التى تنضوى تحتها سائر التهم الأخرى ، فلا شك أنها

تقوم على أسس ثابتة . وقد كانت نيات الحزب النازى نحو انتهاك السلم تتطور بتطور الحوادث وازدياد مقدرته على تنفيذ تهديداته بالقوة القاهرة ، وكان الغرض وهو غزو الأمم وضم الأراضى ، والوسيلة وهى شهر الحرب بأروع الأساليب والصور ، يتحـدان معاً ليسبغا على المؤامرة لوناً إجراميا لا شك فيه .

وكذلك التهم المتعلقة بارتكاب جرائم ضد السلم ، وهى تتلخص فى تدبير وشهر الحرب الاعتدائية وانتهاك المعاهدات والاتفاقات الدولية ، فهذه ليست بعيدة عن روح الأصول الدولية . ذلك لأن الحرب الاعتدائية قد اعتبرت عملا خارجاً على القانون بمقتضى ميثاق كلوج . وإذا لم تكن قد سُنَّتْ لارتكابها عقوبة معينة ، فإن كثيراً من مبادئ القانون الدولى لم تسن لها فى حالة المخالفة عقوبات معينة . وهذا الاتجاه إلى اعتبار الحرب الاعتدائية جريمة دولية يقوى ويشتد منذ الحرب العالمية الأولى ، وهو يجد صداه اليوم بصورة عملية فى دستور المحكمة العسكرية الدولية . وهكذا تصبح الحرب الاعتدائية بالفعل جريمة دولية يجب أن يلقى الذين يدبرونها جزاءهم .

وأما عن التهم الخاصة بجرائم الحرب فقد اعتبرت الحرب الإجماعية ، بما تنطوى عليه من وسائل مثيرة فى القتال واحتلال الأمم المسالمة ، مخالفة لقوانين الحرب وعرفها ؛ وعلى ذلك فلا بأس من أن يقرر العقاب على جرائم دبرت ونفذت بشناعة باعتبارها جزءاً من السياسة العسكرية العامة .

ويمكن أن يقال مثل ذلك بالنسبة للنوع الرابع من الجرائم التى تقررت المحاكمة عنها ، وهى الجرائم التى ارتكبت ضد الإنسانية . نعم إن القانون الدولى لا يعنى بالأمور الداخلية لبلد ما ، ولـكن الصورة التى ارتكبت بها هـذه الجرائم فى ألمانيا النازية من إبادة الجماعات ، وقتل وتعذيب الألوف من الأبرياء فى معسكرات الاعتقال وغـير ذلك مما يجعل أثرها يتعدى إلى الجماعة الدولية سواء من الناحية المادية أو الناحية الأدبية . وبذلك تغدو ذات لون دولى .

هذا ، وأما عن الاعتراض القانونى المتعلق بكون هذه الأعمال والجرائم قد وقعت قبل سن المبادئ والنصوص الجنائية التى تعاقب عليها ، وكونها تغدو بذلك ذات أثر رجعى وهو ماينافى أصول التشريع الجنائى ، فإنه يصعب علينا أن نجد حقيقة ما يدحضه من الناحية الفقهية . ولـكن قيل فى ذلك إن هذه

الأعمال والجرائم كانت من الروعة والشناعة بحيث يستحيل أن نجد لها أى مسوِّغ ، وإن التمسك فى مثل هذه الحالة بأصول التشريع التى وضعت فى الأصل لتحقيق العدالة يقضى بالعكس إلى إهدار العدالة فى مثل هذه الظروف الخاصة .

تلك هى النواحى الفقهية التى يمكن أن تثيرها محاكمات نورنبرج . على أن لهذه المحاكمات نواحى أدبية ونفسية وسياسية لا يمكن إغفالها .

إن الفريق الأول من مجرمى الحرب الألمان الذين يحاكمون اليـوم أمام المحكمة العسكرية الدولية فى نورنبرج ، وهم أكابر المسئولين ، يضم معظم الذين بقوا على قيد الحياة من زعماء ألمانيا النازية من الساسة والقادة أمثال جورنج ، وفون ريبنتروب ، وهيس ، وروزنبرج ، وفون بابن ، وفون نويرات ، وشاخت ، وشترايخر ، والأميرال دونتز ، والجنرال يودل ، وفون كيتل ، وبراوختش ، وفون رونشتت ، وغيرهم من أعاظم هيئة اركان الحرب الألمانية . وهكذا يرى الشعب الألمانى زعماءه الذين سيطروا على أقداره وقادوه حيناً إلى النصر ، ثم ألقوا به أخيراً فى هاوية الدمار واليأس ، يدمغون بطابع الجريمة ، ويحطمون كما تحطم التماثيل الزائفة ، وتدمغ معهم الآثار الأخيرة للنظام العنيف الذى جلب على ألمانيا والشعب الألمانى أفدح كارثة عرفها فى تاريخه . وتمزيق الزعامة النـازية السياسية والعسكرية ، واختفـاء زعمائها من الميدان على هذا النحو ، يعاون فى التحوط للمستقبل ، وفى الحول دون قيام حركات رجعية جديدة فى ألمانيـا المهزومة الممزقة ، على الأقل لأمد طويل .

ومن جهة أخرى ، فإن الأثر العميق الذى تتركه هذه المحاكمات فى الجماعة الدولية يبعث شيئاً من الأمل فى أن يتدبر المغامرون من الزعمـاء والساسة الذين تحفزهم عواطف التعصب القومى أمرهم . قبل المخاطرة بإثارة حرب اعتدائية لا يضمن فيها النصر المحقق . وسيذكر الرؤساء والقادة دائماً أن الهزيمة لن تنطوى على فقد المناصب والنفوذ إلى حين فحسب ، بل سوف تجلب معها تبعة الجريمة ، وعار المحاكمة ، والموت المشين .

محمد عبد الله عنان

ذكريات

اهتماماتى الأدبية فى لندن

عند ما أرجع بذاكرتى إلى البذور والجذور التى نشأت ونبتت منها ثقافتى الحاضرة أجد أنها تكاد جميعها تعود إلى الفترة الواقعة بين ١٩٠٧ و ١٩١١ حين كنت فى لندن . ففى تلك الفترة كانت هناك طائفة من المذاهب والنظريات ، فى الأدب والعلم ، « تتجرثم » . وقد كان من حظى الحسن أن أدركت الجراثيم الأولى لهذه الحركات . ومع أنى الآن مشرف على الستين ، فإنى أجد ، بالاستبطان الذهنى ، أن ما أعرفه أو أعتقده أو أدعو إليه من نظريات أو مذاهب فى ١٩٤٦ إنما أخذت جراثيمه الأولى فى تلك الفترة . ولم تكن الزيادة فى السنين بعد ذلك سوى زيادة فى نمو هذه النظريات والمذاهب أو التوسع فيها أو التفرع منها . وظنى أن هذا هو المألوف أيضاً فى سير التكشف الثقافى عند غيرى ، أى إننا لا نكاد بعد العشرين نجدد شيئا ، وإنما قصارانا أن ندافع عما أحببنا او تلقينا راغبين ، ثم يبعثنا الحب إلى النمو بالتوسع والتعمق . وعندى البرهان على ذلك ؛ فإنى فى ١٩٠٩ ألّفت رسالة صغيرة تبلغ نحو ٣٠ صفحة بعنوان « مقدمة السبرمان » ، حين أعود إليها الآن ، أجد فيها جميع الجراثيم الفكرية التى لاتزال تشغل ذهنى . وهى تمتاز بفجاجة فى الأسلوب مع فجور فى التفكير . إذا كانت تدل على عقل خام ناشىء ، فهى أيضا تدل على عقل مستطلع واثب .

واندمجت فى المجتمع الإنجليزى الجديد . وأعنى بنعت « الجديد » تلك الطوائف والجماعات المستطلعة المتسائلة فى « الجمعية الفابية » و « جمعية العقليين » وأمثالها . وكان كل شىء فى تلك السنين فى البوتقة فى سبيل التغير والتطور . فقد كان حزب الأحرار فى مجده يتوده كامبل بانرمان واسكويث ولويد جورج . ولكن هذا المجد كان يحمل غبار القرن التاسع عشر ، وتراكم هذا الغبار حتى لم يستطع الأحرار أن ينفضوه عنهم ، فلم تمض عليهم بعد ذلك نحو عشر سنوات حتى خنقهم . فلم نعد نسمع عن الأحرار بعد الحرب الكوكبية الأولى . وكانت

جراثيم الاشتراكية تختمر فى كل أوربا ، وكان هؤلاء الأحرار أنفسهم عجينتها التى نمت فيها هذه الجراثيم .

ولم يمض علىّ عام فى لندن حتى وجدتنى أتجه نحو اليسار أى نحو الاشتراكية . ولم يكن هذا الوجدان سياسيا فقط ، فقد وجدتنى اشتراكيا قبل أن اقرأ ماركس لقوة الجذب التى كانت عند الاشتراكيين فى ناحيتى العلم والأدب . ذلك أن هؤلاء المجددين فى السياسة كانوا أيضا مجددين فى العلم والأدب ، يؤمنون بمذهب داروين ، ويؤلفون جمعيات لليوجنية أى إصلاح النسل ، كما كانوا يقرأون الأدب الروسى ونيتشه وإبسن . ولذلك أدركتنى الاشتراكية عن طريق الأدب أكثر مما أدركتنى عن طريق السياسة . وكان «التطور» لا يزال مذهبا أكثر مما كان نظرية علمية . ولذلك أنفق «العقليون» مجهوداً كبيراً فى المقاومة السلبية للكتب المقدسة بدلاً من أن ينيروا أو يشرحوا حقائق التطور .

وأذكر أنه فى تلك السنوات طغى الأدب الروسى على لندن . فلم يكن هناك حديث أو سمر إلا عن جوركى أو دستويفسكى . وأذكر أنى حضرت محاضرة عن تولستوى فوجدت الحاضرين المستمعين كأنهم فى معبد خاشعين . وكانت المحاضرة أيضا أشبه بعظة دينية . وكان هذا طبعا من الانحرافات فى تفسير تولستوى ؛ لأن مقام تولستوى فى الفن كان أكبر جداً من تلك التطوحات الوعظية التى شطح فيها . وأذكر أن أحد الناشرين عرض قصة صغيرة لأندرييف تدعى « السبعة المشنوقون » فسارت فى المكتبات كأنها حريق ، فلم يكن أحد يتكلم إلا عنها . وهذا يدل القارئ على المكانة العظمى التى احتلها أدباء الروس فى لندن فى تلك الفترة ، حتى أشار إليهم برنارد شو مرة بقوله « العمالقة » . ولما عدت إلى القاهرة شرعت ، بهذا التأثير ، أترجم « الجريمة والعقاب » لدستويفسكى . وطبعت منها على نفقتى جزءاً يبلغ نحو ١٢٠ صفحة . ولكنى أخفقت فى نشره حتى بعت هذا الجزء بسعر مليم واحد للنسخة الواحدة . وثبطنى هذا عن المضى فى الترجمة لسائر القصة . ولكنى دأبت فى الحديث والكتابة عن الأدباء الروس ، حتى صار كثير من القراء الذين كانوا يجهلونهم على وجدان بهم .

وفى تلك السنوات عرفت إبسن ونيتشه وبرنارد شو وولز . وأذكر أنى

قضيت ليلة كاملة إلى الصباح وأنا أقرأ نيتشه وقد أخذنى سحر أسلوبه وجراءة تفكيره . ونيتشه لا يخطو ولا يعدو ، ولكنه يقتحم . ولكنى عند ما أرجع أيضاً إلى الاستبطان الذهنى أجد أنى لم أتأثر كثيرا به أو أن أثره كان مقصورا على سنوات ، على الرغم من الحماسة التى كنت أتلقى بها مؤلفاته وأحفظ بها عباراته . فأنا الآن خلو أو كالخلو من المركبات الذهنية التى أستطيع أن أعزوها إلى نيتشه . أما مؤلفات داروين مثلا فكنت أقرؤها فى عناء ومشقة ، حتى كنت أترك الكتاب أياما أو أسابيع ثم أعود إليه يحفزنى إحساس الواجب لا الرغبة ؛ فلم يكن له فى صدرى حماسة . ومع ذلك هو الباقى الآن فى كيانى الثقافى . وكتابى « نظرية التطور وأصل الإنسان » هو إحدى ثمرات داروين . ولا تزال هذه النظرية تفتق فى خلاياى الذهنية ، وتحملنى على توسع وتعمق فى التفكير البيولوچى والسيكلوچى والاجتماعى .

وهنريك إبسن يعد الآن من الكتاب القدامى ، ولكنه كان جديدا فى تلك الفترة بين ١٩٠٧ و ١٩١١ . وكان وقعه فى نفسى كبيرا ، أكبر مما كان فى نفوس قرائه الأوربيين . وذلك لأنه كان يجدد فى مجتمع كنت أعده أنا جديداً بالمقارنة إلى مجتمعنا المصرى الجامد ؛ إذ كنت أدمن التفكير فى حال المرأة المصرية والمرأة الأوربية ، وكنت كثير الإعجاب بحريتها فى باريس ولندن وأنها تملك جزءا كبيرا من مصيرها وتقرره . ولكن درامة إبسن « بيت اللعبة » أو « بيت عروس » كشفت لى حقائق ، وبسطت لى آفاقاً جديدة ؛ لأن ما كنت أتوهمه عن حرية المرأة أو استقلالها فى أوربا إنما هو فى نظر إبسن لم يكن سوى طلاء نراه يخفى حقيقة الاستعباد القائمة ؛ لأن المرأة لا تجد من المجتمع سوى التدليل لأنها لعبة الرجل أو هى كالعروس من الخشب يلعب بها الأطفال ، أطفال الرجال الذين لا يطيقون المساواة الحقيقية بينهم وبين النساء . ومغزى الدرامة أن المرأة يجب أن ترتفع من الأنثوية إلى الإنسانية ؛ ويجب أن ترفض التدليل وأن تربى نفسها وتكسب الاختبارات فى هذه الدنيا ؛ لأنها إنسان قبل أن تكون زوجة أو أمًّا .

وعندئذ انجابت عن ذهنى غشاوة ؛ واتضح لى أن المرأة الأوربية كالمرأة الشرقية سواء ، وأن ما بينهما من فرق إنما هو طلاء الحضارة فقط ، أو هو فرق الدرجة فى الاستعباد . وهو استعباد بعيد أحيانا عن أية رحمة أو رأفة ؛ لأن المرأة

التى تعمل كالرجل لا تحصل على أجره ، وفى أقطار أوربية كثيرة كانت لا تحصل على ميراثه . وكانت الجامعات ترفض قبولها طالبة ، كما كانت ترفض الدولة قبولها ناخبة أو مرشحة لعضوية المجالس البرلمانية .

وليس لهذه الدرامة قيمة فى أوربا الآن ؛ لأن الحال تغيرت فى ١٩٤٦ عما كانت عليه فى ١٩١٠ ، بل تغيرت كثيراً جداً . وكثير من هذا التغيير يعزى إلى هذه الدرامة التى أهابت بالمرأة أن تكون إنسانا له شخصيته ومكانته فى هذه الدنيا قبل أن تكون أنثى أو زوجة لها مكانتها فى البيت .

وكنت فى تلك السنوات لا أعرف عن المسرح إلا ما كان يخرجه لنا سلامة حجازى من التمثيل الميلودرامى والأغانى الغرامية . فكانت الدرامة عندى لهواً فنيًّا لا أكثر . ولكن إبسن جعل الدرامة اجتماعية بل أحيانا فلسفية . وقرأته فى انتباه وقلق وتفكير كثير . وأصبحت أصد ، فى اشمئزاز ذهنى ، عن المرأة المؤنثة المغناج ، وأحترم المرأة العاملة الكاسبة التى تصر على أن تحيا وأن تعرف وتختبر . وعندى أن إبسن كان محوريًّا فى ثقافتى ؛ لأن دراماته بعثتنى على دراسات أخرى متصلة بالموضوعات التى عالجها هو فى أسلوبه الدرامى .

وإذا كانت أوربا قد أهملت إبسن الآن فذلك لأنها تعلمته وعملت بجميع مبادئه . ويعد برنارد شو إحدى ثمرات إبسن ، فإن جميع دراماته اجتماعية وفلسفية . ولكنه يختلف عن معلمه من حيث عجزه عن الكمال الفنى الذى استطاع إبسن أن يرتفع إليه .

وقد تأثرت كثيرا ببرنارد شو . وعند ما أسائل : لماذا لم أؤلف كتابا عنه إلى الآن ؟ أعود بذاكرتى إلى محاولات فى هذا التأليف كان يصدنى عن المضى فيها أنى أعرف الكثير عن برنارد شو . فصعوبتى هى صعوبة خراش ، بل هى أكثر . وهى أنى زيادة على أنى سأضطر إلى الاختيار مع الإسهاب والتفصيل فإنى أيضا سوف أواجه من المبادئ والأفكار والفلسفات ما أحتاج إلى تفصيله مما لا يطيقه قارئ رجعى أو جامد لم تتفتح مسام ذهنه للتفكير العصرى بل المستقبلى . فإن برنارد شو يفكر للمستقبل . وهو على الذهن يفكر على آفاق فلسفية بلغة أدبية . وقد أمضيت من حياتى نحو أربعين سنة وأنا أتعلم على يدى هذا الحكيم الذى أعد حياته فى عصرنا نوراً وناراً لجميع الذين يعرفونه . ولا أظن أنه فاتنى شىء مما كتب .

والكاتب ينفعنا إما بما يبسط لنا من معارف ، وإما بما يرسم لنا من خطط واتجاهات . وبرنارد شو من النوع الثانى ؛ لأنه يسدد العقول الزائغة نحو أهداف بشرية جديدة ، ويبعثنا على الاستطلاع العلمى للدنيا والإنسان والمستقبل . والنزعة العلمية فى برنارد شو قوية جداً ، ولكنها ممزوجة بنزعة فنية أيضا . ولذلك نشعر كأنه يحس بعقله ويفكر بقلبه . وهو أحيانا يسب ويهاتر ويهدد بالمعانى العلمية . ومشاجرته مع داروين بشأن « تنازع البقاء » هى مشاجرة فلسفية سيتوقف على الإجابة عليها ، وخاصة بعد اختراع القنبلة الذرية ، مصير الإنسان . إذ ماذا يكون مصير ٩٩ فى المئة من البشر إذا ثبت أن الحق للقوة ، مهما يكن نوع هذه القوة ؟ أو إذا كان معنى تنازع البقاء هو بقاء الأصلح كما نراه فى عصرنا ؟

لقد ردَّ برنارد شو على دراوين بأن ذكَّره بأن المسيح لم يكن صالحا للبقاء . . . فى النظام البيولوچى الذى وضعه داروين للتطور .

وبرنارد شو مجاهد . وأدبه هو الأدب الجهادى ، أو كما يسميه هو الأدب الصحفى ؛ لأنه يبحث الهموم والاهتمامات العصرية بالذهن العلمى فى ضوء المستقبل. وقد أحدث لى مركبات أو عقداً أدبية وفنية ذهنية كثيرة فى حياتى الثقافية لا تزال إلى الآن مثار التفكير والتأمل .

وأحيانا حين أتأمل الكاتب العظيم أجد أنه عظيم من حيث إنه قادر على أن يترك لنا عقدة ذهنية ، فى المعنى الحسن ، تترتب عليها أفكار واهتمامات متصلة متشابكة نامية . فقد ترك إبسن فى ذهنى عقدة ذهنيــة هى « الشخصية الاستقلالية » التى هى الواجب الأول على كل إنسان . وترك برنارد شو عندى طائفة من العُقَد ربما كان أهمها هو النظر البيولوچى للإنسان ، وأن التطور المستقبلى للبشر يجب أن يكون له المقام الأول عند أية حكومة متمدنة . بل هو يقترح أن تكون لكل دولة وزارة خاصة بالتطور غايتها بحث الوسائل كى تتطور الأمة .

ولا عبرة بأن تكون له أخطاء وأوهام . إذ ماذا نبالى ، كما يقول نيتشه ، أن يكون فى رأس المفكر بعض الديدان ؟

ولم أر رؤيا واحدة فى برنارد شو ، بل رأيت ثلاثا أو أربعا . والرؤيا الأولى هى الاشتراكية الإنسانية . وهى بالطبع لا تختلف عن اشتراكية ماركس

العلمية . ولكن برنارد شو ، لأنه أديب وفيلسوف وفنان ، جعل المذهب الاشتراكى مذهباً إنسانيًا ، ودمغ بالخزى كل من يجهل الاشتراكية أو لايسعى لها . وهو الذى استطاع أن ينشر هذا المذهب بين الأثرياء ؛ لأنه أثبت لهم أن أموالهم لا تساوى همومهم وما يتعرضون له من قلق ، وأن الاشتراكية إنما جاءت لتغنى وتزيد لا لتفقر وتنقص .

والرؤيا الثانية هى ديانة برنارد شو ؛ فإن مشاجرته مع داروين ينتهى مغزاها إلى أنها مشاجرة دينية . إذ كيف يمكن أن نسكن إلى كون يكون محوره ومغزاه تنازع البقاء وبقاء الأصلح ؟ وقد قلت إن من الموانع التى حالت دون تأليفى عن برنارد شو أنى أخشى الأذهان الجامدة التى لم تتسع مسامّها الذهنية للآراء الجديدة . وهنا أيضاً أقول إنى عاجز عن بعض الإسهاب أو التفصيل لديانة برنارد شو . وقصاراى أن أقول إنها ديانتى وإن عمودها الفقرى هو التطور الذى يعد فيها أسلوبا وهدفا .

أما الرؤيا الثالثة فهى الإيمان بالعلم بل السلوك العلمى ولكن مع الدين ، وعلم بلا دين هو القنبلة الذرية وبقاء الأصلح كما يفهم هذا الأصلح أو يتخيله تجار منشستر ونيويورك . ولكن العلم مع الدين هو السعادة البشرية والتطور إلى السبرمان .

وبرنارد شو مثل جيته قد جعل من حياته كتابا آخر ، بل ربما كان هذا الكتاب أحسن مؤلفاته . فإن الناس يقرءون حياته ويستوحون منها القدوة والصلاح . فهو الآن فى التسعين ، وقد عاش منها ستين سنة وهو نباتى . وهو يسير كل يوم ساعياً على قدمية نحو سبعة كيلومترات ، ويقرأ ويكتب كما لو كان فى الثلاثين أو العشرين . وهو يخفف من ألم الحقائق بالفكاهة ، تلك الفكاهة الجدية النارية التى تخرج منه كأنها تشنجات الحكمة أو وخزات الفلسفة .

ومن عجب أن هذا الرجل ، الذى تسترشد بآرائه وتستنير برؤاه أحسن الطبقات المثقفة فى العالم ، هذا الرجل لم يتعلم قط فى مدرسة أو جامعة . وقصارى ما حصل عليه تعليم أبتر فى السنتين الأولى والثانية من المدرسة الابتدائية . ولكن إذا عُدَّ هذا تقصيرا أو قصورا فى النظام التعليمى وبرامجه ، فإنه يجب علينا أن نعدَّ ارتقاء برنارد شو إلى القمة فى الثقافة العصرية برهانا على أن الثقافة السامية قد أصبحت مشاعة بين الجمهور ، بحيث إذا توافر الذكاء

والعناية استطاع أى فرد منه أن يصل ، من الكتب المطبوعة ، إلى أرقى ما يستطيع المتعلم فى الجامعة بل أكثر . وهذا ما لا يمكن أن يقال فى قطر مثل مصر . وإنما يقال مع التأكيد عن فرنسا أو بريطانيا أو الولايات المتحدة ؛ لأن الثقافة شائعة تفشو فى كل مكان بكل طراز الابتدائى والمتوسط والعالى . ولذلك سرعان ما يتعلم الأمى أو من هو فى مقامه ويتسلق إلى القمم .

وهناك شخصية فذة أخرى كانت محورية توجيهية فى حياتى هى شخصية ه . ج . ولز . وظنى أنه الآن فى مرض الموت . وكل من شو وولز يبحثان العالم وكأنهما يشرفان عليه كما يشرف العمدة فى ألفة ومعرفة على قريته . ولكن بينهما مع ذلك فرق ؛ فإن شو يتجاوز الأعماق والآفاق إلى ما وراءها . وولز يتعمق ولكنه لا ينظر إلى ماوراء الآفاق . يعيش على الأرض فى حين يعيش شو فى السماء ، حتى لنحس ونحن نقرأ ولز أننا نختنق بهواء المدينة ولو أننا نتحدث إلى رجل يعرف كل ما فيها ، ولكننا نحس حين نقرأ شو أننا نتنسم أوزون البحر المعقم . وكلاهما طائر ، ولكن ولز يدرج وقلما يحلق . أما شو فدأبه الطيران والتحليق .

والمغزى فى شو أن الإنسان سيتغير ، جسما ونفساً ؛ لأن التطور يقضى بذلك . ورسالته هى أن يبعث وجدان التطور فى قرائه .

ولكن المغزى فى ولز أن المجتمع سيتغير ، فى نظمه وأخلاقه ؛ لأن الآلات قد أحدثت قوات اقتصادية جديدة سوف تضطر أمم العالم إلى أن تكون أمة واحدة . ورسالته هى أن يبعث فى قرائه وجدانا هو أن هذا العالم قريتنا الكبرى .

وولز هو بلا شك الأب الروحى للعالم الجديد ؛ فإنه يدعو إلى لغة واحدة وثقافة واحدة . بل لقد ألف فى شرح الطرق التى يجب أن تتخذ لإيجاد موسوعة عالمية يتحد فيها أبناء هذا الكوكب فى آراء واتجاهات نحو الخير والحضارة . وله ثلاثة مؤلفات تدل على اتجاهه العالمى . أولها «خلاصة التاريخ» . وقد ألفه عقب الحرب الكبرى الأولى حين كانت عبارة «الحرب لأنها الحرب» تجرى على الألسنة وتوحى الخيالات الزاهية بشأن اتحاد العالم . وهذا الكتاب هو محاولة نيرة خيرة غايتها أن نفهم أن الحضارة القائمة هى مجهود البشر جميعهم . وأن هذه الأمم الكثيرة المختلفة إنما هى أمة واحدة ، أو يجب أن تكون كذلك . وكتابه الثانى : « علم الحياة » هو دعوة إلى النظر العلمى لهذه الدنيا وسكانها من

الأحياء . وهى دعوة دينية علمية . وكتابه الثالث : « أعمال البشر وثروتهم وسعادتهم » هو بحث فى حاضر البشر وطاقتهم لحضارة قادمة .

وقد كان أثر ولز عندى نفسيًّا أكثر مما كان ذهنيا . أى إنه كسبنى مزاجا عالميا يكاد يكون مساوياً للحاسة الوطنية ، فإن اهتمامى بالحركة الوطنية مثلا فى الهند يحرك عاطفتى ويثير انفعالى كالحركة الوطنية فى مصر . وكنوز أفريقيا من الحيوان تشغل ذهنى وتثير غضبى عند ما أقرأ عن عبث الصيادين فى الغابات ، كما تشغل ذهنى وتثير غضبى سياسة الإنجليز فى زراعة السودان أو ضبط مياه النيل . بل كسبت من ولز مزاج التساؤل والاستطلاع والتوسع الثقافى فى العلم والأدب والفن .

وقد كان اهتدائى إلى شو وولز عن طريق الجمعية الفابية حوالى سنة ١٩٠٧ . ولكنى واليت اتصالى بهذين الكاتبين إلى وقتنا هذا . وهما يدرسان السياسة العالمية على آفاقها العالية . ومفتاح دراستهما هو الاشتراكية والتطور .

وفى الفترة بين ١٩٠٧ و ١٩١١ كان إبسن وشو وولز عالقين بقلبى يرسمون لى معالم دراساتى فى المستقبل . ولكن كان هناك مؤلف آخر تسلط فترة قصيرة على ذهنى ، وكان تسلطه ناريا ثم عاد تحريريا ، أعنى به نيتشه . فقد التهمت مؤلفاته فى حماسة ولذة فعصفت بى . وكان ظنى وقتئذ أنه فتح لى أبوابا كانت مغلقة من قبل . ولكن الحقيقة أنى كنت مأخوذاً بسحره فى الأسلوب وجرأته فى التفكير ، وهما سحر وجرأة يستهويان الشباب . وهو يؤلف النثر وكأنه يقرض الشعر ، ويفكر وكأنه يقتحم . وانتفعت كثيراً بتحليله للأخلاق . ولكن هذا التحليل بالطبع فقد قيمته بعد أن عرفت التحليل الماركسى ، وإن كان كلاهما ينتهى إلى أن الأخلاق السائدة هى أخلاق السائدين . ولكن ماركس وصل إلى هذه النتيجة بالتحليل الاقتصادى للمجتمع على حين وصل إليها نيتشه بالتحليل التاريخى اللغوى . أما أخلاق الأقوياء التى دعا إليها نيتشه وجعل منها ديانة جديدة يجب أن يبشر بها الفيلسوف الجديد فقد استهوتنى سنوات ، بل انخدعت إليها وآمنت بها بتأييد من نظرية التطور حين استسلمت لتنازع البقاء وبقاء الأصلح . ولكن رويداً رويداً تقهقر نيتشه من وجدانى وتغير عندى مغزى التطور ، بل تطورت عندى نظرية التطور ؛ فلم يعد نابليون هو السبرمان ، ولم يكن للإمبراطوريات مغزى التفوق البيولوجى الذى كاد نيتشه يوهمنى أنه كذلك .

وعرفت من ذلك ماركس وجيته وفرويد . عرفتهم عن سبيل تلك المركبات أو العُقَد الذهنية التى أحدثها لى شو وولز وإبسن وداروين .

وفى تلك السنوات أيضاً كان فى لندن مجلات أسبوعية أدبية كثيرة تختص بدراسة الأدب الإنجليزى والأوربى . وكانت «ذى أثينيوم» ثم «ذى أكاديمى» أقوى هذه المجلات . وكانت الأولى راقية حاوية موضوعية . أما الثانية فكانت شخصية جدلية ، وكان يحررها اللورد ألفريد دوجلاس صديق أوسكار وايلد . وكان شاعراً أنيقاً ، ولكن تاريخه الماضى وعلاقته بأوسكار وايلد جعلا الجمهور الإنجليزى المحافظ يصد عنه ، وكانت مجلته تنزوى فى استحياء فى المكتبات يسأل عنها طالبها .

والعجب أنه ليس عند الإنجليز الآن مجلة أسبوعية واحدة للأدب إذا استثنينا الملحق الأدبى للتيمس ومجلة جون أو لندن وهى تكتب للعامة . وقد يعد القارئ هذه الحال تأخراً للحركة الأدبية ، ولكنى أعدّه تقدما . ذلك أن الأدب انتقل من برجه العاجى ، أدب للأدباء ، إلى الميدان الاجتماعى بل السياسى والاقتصادى ، ولذلك فإن المجلات السياسية الإنجليزية تعالج الأدب فى عناية وخبرة تدلان على أنها تعرف قدره فى التفكير والتوجيه . أو قل إن التطور السياسى فى أوربا قد أصبح حافلا بالانقلابات والانفجارات ، وإنه جذب إليه جميع الأدباء ، ولذلك صار الأدب مذهبيا يتحزب ويتشيع لآراء معينة فى السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد .

وهذا هو ما يجب أن يكون ؛ لأن الأدب للأدب هو الأدب فى الخواء . وقد يقال حَسْبُ الأدب أن يكون إنسانيا . ولكن كيف يكون كذلك إذا لم يشتبك فى المشكلات الإنسانية الحاضرة : السياسة والاقتصاد والاجتماع ؟

ووجدت من هذه الحركات الأدبية فى تلك السنوات توجيهاً لى وتربية . وكثير من مؤلفاتى ، إن لم يكن جميعها ، اتجهت فيها هذه الوجهة الاجتماعية ، حتى صرت أوصف بأنى « كاتب اجتماعى » . وكأن هؤلاء الواصفين أرادوا أن يميزوا بينى وبين الأدباء الذين ما زالوا يفصلون بين الأدب وبين الاجتماع . ولكنى ، مع ذلك ، أجد فرقا أساسيا آخر بينى وبين بعض الأدباء فى مصر ، هو أنى أمارس طرازا من البلاغة يمارسون هم غيره . ذلك أن طرازى أوربى وطرازهم عربى . وقد حملنى هذا الفرق أن أؤلف كتابى « اللغة العربية والبلاغة

العصرية » ؛ لأن بلاغتنا التقليدية لا تلابس حضارتنا العصرية ، وقد وجدت فيها عجزاً عن التعبير لشئون عصرنا ، فاخترت أسلوبا آخر للتعبير الذى يجمع بين الفن والاقتصاد ، كما يكون على وجدان بقيمة التفكير ثم التعبير العلمى . فإن معاجمنا العربية التى ورثناها عن الأدب العربى تقول مثلا إن الطب هو السحر . ولكننا فى القرن العشرين نقول إن السحر هو الخرافة . وإن الطب قد صار علما تجريبيا اجتماعيا بيولوجيا . ويجب ، لهذا السبب ، أن تلابس البلاغة العصرية عند الكاتب العصرى ، هذا الطب الجديد فتكون هى أيضا علما تجريبيا اجتماعيا بيولوجيا . وبكلمة أخرى أقول : إن البلاغة ، كاللغة ، اجتماعية . أى إنها تخدم المجتمع وتلابسه . فإذا تغير المجتمع وجب أن تتغير البلاغة . ومجتمع القرن العشرين يحتاج إلى بلاغة القرن العشرين ، بلاغة العلم والاجتماع الجديدين لا بلاغة العباسيين ولا بلاغة الأمويين .

سلامه موسى

عودة الربيع

يا زوجتى فى وَحْشة القبرِ … عاد الربيعُ وأنتِ لم تدرى

عاد الربيـع فحيثما التفتَتْ … عيـنٌ رأته ضاحكَ الثغر

هذى معاهدنا مزيَّنـةٌ … منه بمثـل بيارق النصر

والبيتُ عادت دَوْحه عجَباً … تزهو بأوراقٍ لها نَضْر (١)

وعلى ذوائب دَوْحه اضطرمت … حُمْراً عناقيدٌ من الزهر (٢)

وتجاه مجلسنا بشُرْفتـه … نيلٌ — ولا كالنيل — من تِبر

شمسُ الربيع كَسَتْهُ حُلّتَها … وَهْجاً يضاحك صفحة النهر

وكأنما مَسْرَى نسائمه … نَسَمُ الحياة بأرضنا يسرى

عاد الربيـع وذى مواكبُهُ … سكرانةٌ باللون والعطر

عاد الربيعُ وذى مواكبـه … يحدو لها شَدْوٌ من الطير

ما هزَّنى للبِشْر موكبُـه … بل هزَّنى للحزن والذكر

هيهـات تدعونى مفاتنُه … ماتت دواعيهنّ فى صدرى

يا زوجتى مَرَّ الربيعُ هنا … مَرَّ الربيعِ عليكِ فى القبر

عبد الرحمن صدقى

---

(١) نضر مصدر ويستعمل نعتاً يقال شىء نضر كقولهم شهود عدل (لسان العرب) .

(٢) الاشارة إلى شجر بوانسيانا ريجيا *Poinciana regia* وبه يزدان أكثر من شارع فى ضواحى القاهر .

بين الحرب والجغرافيا

الخطط الكبرى فى الحرب العالمية الأخيرة

يميز العسكريون فى دراسة الحرب بين الخطط التكتيكية والخطط الاستراتيجية . وهم يقصدون بالأولى خطط الحرب التى تتصل بحركات الجند المحلية فى الميدان ، وتوجيهها حسبما تقضى به فنون الحرب ، وظروف الطبيعة ، وحاجات القتال من يوم ليوم ، أو من ساعة إلى أخرى ؛ ويتولى وضع هذه الخطط والقيام على تنفيذها قواد الميدان وضباطه المحاربون . أما الخطط الاستراتيجية فيقصدون بها رسم سياسة الحرب الأساسية ، وإدارة دفتها فيما يتصل بمناطق الارتكاز الكبرى ، والمواقع ذات القيمة العسكريه الحيوية ؛ ومن حيث خطوطها واتجاهاتها الأساسية فى توجيه الحركات الكبرى فى الهجوم أو الدفاع . ومثل هذه الخطط الاستراتيجية كثيراً ما يشارك فى وضعها رجال الدولة من غير العسكريين ؛ فرسمها يحتاج إلى أفق أوسع من الأفق العسكرى الخالص ؛ كما أنها تتصل بتنسيق أداة الحرب كلها تنسيقاً يشمل مختلف مرافق الحياة الإنتاجية ، ويوجه عمليات الحرب فى ميادين متباعدة أشد التباعد ، تشرف عليها — فى حالة الحروب العالمية الحديثة — أكثر من دولة واحدة ، ويتوقف النجاح فيها على عوامل كثيرة ، بعضها سياسى يتصل بالمعاهدات والمحالفات والاتفاقات السرية والعلنية ، وبعضها اقتصادى يتصل بالإنتاج والتموين والنقل وتبادل المعاونة ، وبعضها الآخر معنوى يتصل بالمبادئ والمُثُل العليا فى السياسة ونظام الحكم وفى الدين والاجتماع عند مختلف الأمم والشعوب .

ومهما تكن تلك العوامل التى تتصل برسم خطط الحرب الأساسية ، فإن العهد الحديث قد امتاز بأن العلم أصبح فيه يوجه حياة الإنسان ونشاطه بما فى ذلك الحرب ذاتها ، وهى لا تعدو أن تكون مظهراً عنيفاً من مظاهر النضال والكفاح من أجل بقاء الأصلح . ولذلك فقد اتصلت أداة الحرب

وإدارتها بألوان مختلفة من العلم والتنظيم العلمى ؛ وأصبح لزاماً لكى تنجح الحرب أن يسبقها ويصحبها تنظيم فنى دقيق يستند إلى أسس علمية وعملية فى الوقت ذاته . فالحرب الحديثة تعتمد على السلاح الذى لا ينتجه غير العلم والتطبيق الفنى للمعرفة العامية ، كما تعتمد على دقة التنظيم وحسن التوجيه فى استخدام ذلك السلاح الذى لا يفيد مضاؤه إلا إذا استعمل فى اتجاهه الصحيح ، وفى حدود خطته المرسومة . وفوق ذلك كله فقد زاد من اعتماد الحرب والتسلح على العلم والمعرفة والمهارة الفنية وحسن التنظيم والتنسيق أن الحرب قد أصبحت فى العصر الحديث « شاملة » للحياة المدنية فى جميع مرافقها ، وأصبح المحاربون فيها لا يقتصرون على أولئك الذين يقفون فى الصف الأول وفى جبهة القتال ، وإنما يشملون أيضا أولئك الذين يعملون فى الإنتاج والنقل وتنظيم الأداة والإدارة فى المدن والمصانع وفى الحقول والمناجم ، بل وعلى طرق البر والبحر والهواء . ولذلك كله فإن تنظيم الحرب أصبح معناه تجنيد الحياة القومية كلها . وفى هذا العهد الذى أصبحت فيه السلم استعداداً وانتقالا إلى الحرب صار لزاماً أن يشمل التخطيط والتنظيم والتوجيه حياة الأمم فى السلم والحرب على السواء .

على أن ما يعنينا فى هذا المقال إنما هو أن نحاول تتبع الحرب العالمية الأخيرة فى خططها الكبرى من ناحية التنفيذ وإجراء الحرب ذاتها ، وتوجيه حركات الهجوم والدفاع من الجانبين توجيها يتمشى مع ظروف الطبيعة والمواقع الجغرافية ، ويعين على كسب الحرب فى النهاية . ومن المتفق عليه بين العسكريين أن الحرب العالمية الأخيرة جاءت فى جولتين ، فصلت بينهما فترة استجمام واستعداد بين الهدنة فى عام ١٩١٨ واستئناف القتال فى عام ١٩٣٩ . بل إن من المتفق عليه أيضاً أن هذه الحرب بجولتيها إنما ترجع فى الأصل إلى دوافع تتصل بنهضة ألمانيا الحديثة وسعيها إلى أن تستكمل أسباب قوتها وسلطانها بين جاراتها الأوربية من جهة ، وإلى أن تتوسع فيما وراء البحار وتنتزع السيطرة العالمية من بريطانيا سيدة البحار من جهة أخرى . ولذلك فإن خطط الحرب فى الجولتين وما سبقهما وتوسطهما من فترات استعداد إنما هى خطط ترمى إلى غاية مرسومة ومحددة ، هى السلطان فى أوربا والسيطرة فيما وراء البحار ! ولذلك فإنه على الرغم من اختلاف ظروف الحرب فى الجولة الأولى عنها فى الجولة

الثانية ، فإن هناك عناصر مشتركة بين الجولتين لا يمكن إلا أنه يلمسها الباحث الذى يعنى بالأساس والجوهر قبل أن يعنى بالعرض والمظهر .

وقد بدأت ألمانيا استعدادها للحرب والنضال ضد بريطانيا فى مطلع القرن الحالى ، فدعمت مركزها فى القارة ، لا سيما قلبها وجنوبها الشرقى ، ووثقت صلاتها بإمبراطورية النمسا والمجر القديمة وكذلك بإيطاليا ، وكونت كتلة قوية من دول الاتحاد الثلاثى وأنصارها . ثم سعت فى الوقت نفسه إلى تقوية أسطولها وإعداده للنضال المقبل من أجل سيادة البحار . ولكنها من هذه الناحية كانت أعجز من أن تعد أسطولا يعادل أسطول بريطانيا ، التى كان لها من التقاليد البحرية والخبرة بالملاحة وحرب البحار ما تجمع خلال أجيال طويلة ، كما كان لها من أساطيل التجارة والحرب ما لا يمكن أن يبنى مثله ولا أن يعد رجاله إلا فى فترة طويلة من الزمن . ومع ذلك فقد أحست بريطانيا بمصدر الخطر والمنافسة الجديدة ، فضاعفت جهودها فى الاستعداد البحرى ، كما أخذت سبيلها إلى إنشاء محالفات أوربية تناظر ما سعت إليه ألمانيا فى قلب القارة . وكان أن حالفت بريطانيا فرنسا فى الغرب ، كما حالفت الروسيا فى الشرق ؛ وسعت الدبلوماسية البريطانية إلى أن تقطع السبيل على ألمانيا فى زحفها السياسى والاقتصادى نحو جنوب القارة الشرقى وأرض الإمبراطورية العثمانية .

تلاحقت الحوادث واقترب الخصمان الأصليان من أن يقفا وجها لوجه ؛ وتطاير الشرر وكاد يشتعل لهيب الحرب أكثر من مرة . وكان أبرز إنذار جدى بالحرب حادث أجادير فى عام ١٩١١ ، عند ما شخصت قطع من أساطيل الطرفين إلى ذلك المرفأ الصغير على ساحل إفريقية الشمالية الغربية ، وظهر التحدى الذى لا يمكن أن يكون وراءه غير الشر ، ولا يمكن أن ينتهى إلى غير الصدام ! . . . وهكذا لم يعد إشهار الحرب الفعلية إلا مسألة زمن وانتهاز للفرص .

وجاءت الفرصة فى وقت أحست فيه ألمانيا وأنصارها ، أو خيل إليهم ، أنهم قد استكملوا الاستعداد ، وأن من الخير أن يبدءوا النضال قبل أن يتجمع لحلفاء الغرب أكثر مما تجمع لديهم من قوة ، بل قبل أن يتخذ هؤلاء الحلفاء عدتهم كاملة وحذرهم شاملا ، بعد أن تكررت عليهم النذر ، وتوالت قرائن الشر من المعسكر الجرمانى النمساوى . وهكذا شهرت الحرب ؛ وكان طبيعيا

أن تشتعل أول الأمر فى أرض البلقان ، تلك المنطقة التى تختلط فيها القوميات وتتنافر المصالح ، وتجرى تيارات السياسة الدولية فى كل اتجاه . كما كان طبيعيا أن الحرب متى بدأت واشتركت فى إثارتها دولة كبرى كإمبراطورية النمسا ، فلن يكون إلى حصرها من سبيل . ولا بد من أن تنتشر لتشمل أوربا كلها ؛ فالحدود السياسية بين الدول فى هذه القارة يصح أن يكون كثير منها مثار نزاع ؛ لأنها لا تتمشى مع الحدود الطبيعية ، ولا مع توزيع السلالات والقوميات ، ولا مع ما لكل دولة من مجال اقتصادى حيوى . وبذلك فقد كان الجو مهيأ لأن يشارك المتذمرون — وما أكثرهم ! — فى حرب أقل ما يقال فيها إنها تشبع رغبة نفسانية ، وتعلل الشعوب بآمال لم تحققها السلم ولا وسائلها السلمية ، فعسى أن تحققها الحرب وما تنتهى إليه من نصر يطمع فيه الجميع !

وتطورت الحرب سريعاً ، واتضحت خططها ، فصار لها ميدانان : أحدهما غربى والآخر شرقى . وفى الغرب اتجهت ألمانيا صوب أراضى بلجيكا فى السهل الجنوبى من الأراضى الواطئة ، رغم أن المعاهدات الدولية كانت تضمن استقلال تلك البلاد . ذلك أن طريق الأردن والفلاندر كان طريق الغزو التاريخى لمن يريد أن يأخذ فرنسا من أيسر سبيل ، ولمن يريد أن يقف فى مواجهة بريطانيا ، ويتخذ لنفسه قواعد بحرية لحرب الغواصات وحصار الجزر البريطانية وقطع طرق البحر التى هى كحبال الوريد بالنسبة لبريطانيا . ومع ذلك كله يظهر أن ألمانيا لم تكن مستعدة الاستعداد كله عند ما أقدمت على هجومها هذا ؛ فهى من ناحية البر لم تستطع أن تبلغ هدفها وهو باريس ، وإنما وقفت دونها من الشمال الشرقى ، حتى جاء چوفر وهزم طلائع جيوشها هزيمة منكرة فى موقعة المارن فى مطلع الحرب ، على بعد عشرات قليلة من الكيلو مترات من العاصمة الفرنسية ، ورد فريقا من الألمان على أعقابهم ، كما أجبر قواتهم الأساسية على أن تحفر خنادقها لتقيم فيها اتقاء للارتداد . وبالتدريج تحولت حرب الميدان الغربى من حرب متحركة على سطح الأرض إلى حرب خنادق ، ترابط فيها الجيوش تحت الأرض ، ولا تتحرك الجبهة إلا زحزحة من أحد الجانبين أو الآخر لمسافات قصيرة لا تذكر . فكأن الحرب فى هذا الميدان قد شلت حركتها ، وتقرر مصيرها أن تصبح حرب مناوشات طويلة الأمد ، تستنفد الجهد ولا تؤدى

إلى نتيجة سريعة . وقد بقيت كذلك بل بقى هذا الميدان الغربى أتوناً يلقى فيه الجانبان برجالهم الفرقة تلو الفرقة ، فيحصدها الموت دون أن يستطيع أحد الجانبين أن يحقق نصراً يذكر . ولم ينقذ الموقف آخر الأمر إلا انحلال الروح المعنوية ، ثم قيام الثورة الداخلية فى ألمانيا عام ١٩١٨ ، مما استتبع انسحاب جيوش الألمان عن مواقعها فى الغرب ، وتقدم الحلفاء فى نصر غير صريح من الناحية العسكرية الخالصة ، ولا مسلم به من جانب الجيش الألمانى وقادته على الأقل . وهكذا انتهى الأمر « بهدنة » ربما كان مرجعها ضيق النفوس بالحرب ، وسأمها من عدم الوصول إلى نتيجة فاصلة ، أكثر مما كان مردها إلى نصر حاسم من جانب الحلفاء . وقد ارتدت جيوش ألمانيا البرية إذ ذاك إلى ديارها فى نظام عجيب .

فأما من ناحية البحر فيظهر أن استعداد ألمانيا أيضا لم يكن كاملا . فقد حرصت بريطانيا فى الفترة السابقة للحرب على أن يكون أسطولها معادلا لمجموع أسطولى أية دولتين أوربيتين معا . ولذلك بقى الفرق كبيرا فى القوة بين أسطول بريطانيا وأسطول ألمانيا . ولم تستطع قوات ألمانيا البحرية أن تبلغ نتيجة فعلية أو فاصلة فى شل حركة الملاحة من حول بريطانيا ، وإجاعة أهلها أو إرغامهم على التسليم . ومع أن ألمانيا قد اتجهت منذ البداءة نحو إنشاء أسطول قوى من الغواصات وبثه حول بريطانيا ، فإن هجوم تلك الغواصات لم يبلغ ذروته من القوة إلا فى عام ١٩١٧ . ومهما قيل عن أن بريطانيا قد شارفت على الهلاك والتسليم فى ذلك العام ، فإن الشىء المهم أنها قاومت ، وأن عدم استطاعة ألمانيا أن تبلغ شأو هجومها البحرى على قوافل السفن وطرق الملاحة قبل ذلك أعطى بريطانيا الفرصة لإتمام الأهبة ومواجهة الهجوم بما انتهى إلى إحباطه . . . ولقد كان عامل الزمن على الدوام فى جانب البريطانيين !

كل هذا حدث فى الغرب ، وقد كان الميدان الأصلى والأهم فى حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ . فأما فى الشرق فقد تقدم الروس سريعاً فى أرض بروسيا الشرقية ؛ ولكن الألمان مالبثوا أن هزموهم شر هزيمة على يد قائدهم هندنبرج ؛ كذلك تقدمت جيوش الروس ثم ارتدت فى أراضى غاليسيا وعلى حدود إمبراطورية النمسا والمجر ، ثم أصيبت تلك الجيوش بخسائر فادحة فى عامى ١٩١٦ ، ١٩١٧ ؛ وساعد ذلك على قيام ثورة البلاشفة . ومع أن ذلك كان مما يجوز أن

يطمع الألمان والنمساويين ، وأن يغريهم بجارتهم العتيدة ، فإنهم لم يفعلوا ذلك إلا بقدر ؛ فهم كانوا فيما يبدو مشغولين بالحرب فى الغرب والجنوب . وعلى كل حال فان الحرب فى الميدان الشرقى ما لبثت أن دخلت فى مرحلة ركود ، انتهت بانكماش الروسيا وانطوائها على نفسها ، بعد أن وجد البلاشفة أن من الخير أن يعكفوا على إصلاح الحال فى بلادهم ، وأن يدعوا الرأسماليين والاستعماريين يدق بعضهم أعناق بعض فى ميادين الغرب والجنوب .

وفى جنوب أوربا كان هناك الميدانان الإيطالى والتركى . ففى أرض إيطاليا كانت تلك الدولة ، إلى حد ظاهر ، عالة على حلفائها ، أكثر مما كانت عوناً لهم . فقد وقفت إيطاليا متذبذة فى أول الأمر ؛ رفضت أن تحارب فى جانب حلفائها الأسبقين ، وهم الألمان والنمسويون ، بحجة أنهم بدءوا الحرب بالهجوم ، ولم يكن حلف الاتحاد الثلاثى المعقود فى عام ١٨٨٢ ليقيدها بمد يد المعونة إلا فى حرب الدفاع . ومع ذلك فهى لم تقف فى جانب حلفاء الغرب صراحة إلا بعد مداولات ومداورات وشروط تضمنتها معاهدة لندن السرية فى عام ١٩١٥ . وأخيراً دخلت إيطاليا الحرب فإذا بجيوشها تتذبذب بين النصر والهزيمة ؛ ثم إذا بها تحتاج إلى العون لدرء الهزيمة ، ولمنع النمسويين من الالتفاف وأخذ الميدان الفرنسى من الجنوب . وقد أدرك حلفاء الغرب ارتباط الميدان الإيطالى بالميدان الغربى من الناحية الاستراتيجية ، فأمدوا إيطاليا بالعون ، وساعدوها على حماية جناحهم ضد النمسويين حتى حانت ساعة النصر .

أما فى الميدان التركى فقد تعقدت الأمور ، واستمر النضال سجالا فى البر والبحر . وكان الألمان قد أدركوا قيمة الشرق الأوسط فأتوه من بابه فى القسطنطينية ، وسندوا قوات تركيا المتداعية . ولكن الحلفاء كانت لهم قواعد هامة فى ذلك الشرق ، لا سيما فى مصر التى ما لبث البريطانيون أن توسعوا منها إلى البلاد العربية ، حيث استغلوا ثورة العرب ضد الأتراك . وانتهى الأمر بانقشاع نفوذ العثمانيين وزوال سلطانهم ، وحلول نفوذ الحلفاء ، لا سيما بريطانيا محل الدولة العثمانية فى كثير من أرجاء العالم العربى . والمدهش أن الحرب الأصلية انتهت فى أوربا ، ومع ذلك فقد استمر الحلفاء الإنجليز والفرنسيون لعامين أو ثلاثة يحاربون لتوسيع نفوذهم وتثبيت أقدامهم فى أراضى العرب بعد أن أبرزت الحرب قيمة تلك البلاد ومواقعها فى ربط طرفى العالم .

وكان هناك ميدان آخر منعزل فى تلك الحرب هو ميدان المحيط الهادى . فقد ارتبطت اليابان ببريطانيا بمحالفة عسكرية منذ عام ١٩٠٢ ؛ وتعلم اليابانيون كثيراً من شؤون التجارة والاتصال بالعالم الخارجى من حلفائهم ومعلميهم البريطانيين ؛ وتعلموا منهم كذلك فنون الحرب البحرية وقيمة الأساطيل الحديثة بالنسبة لإمبراطورية من الجزر ، تريد أن تنشر نفوذها وأن تكون لها السيطرة على ما حولها من بحار . وقد بادرت اليابان بإعلان الحرب على ألمانيا ، ثم انطلقت بأساطيلها وقواتها البحرية فطردت الألمان من كثير من جزر المحيط ، وحلت محلهم فى مناطق النفوذ العسكرى والنقط الاستراتيجية الهامة فى تلك الجزر ؛ ثم احتفظت لنفسها بالانتداب عليها بعد الحرب ، واتخذت منها قواعد توثبت منها فى حربها الأخيرة ومحاولتها التوسع على حساب حلفائها السابقين .

من هذا العرض السريع نستطيع أن نتبين أن خطط القتال فى الجولة الأولى من الحرب العالمية كانت تدور ، إلى حد كبير ، حول التنافس الأصيل بين بريطانيا وألمانيا من أجل السيطرة على اتصالات أوربا بالعالم الخارجى . ولم تخسر ألمانيا تلك الجولة لأنها انهزمت فى البر ؛ فجيوشها بقيت إلى النهاية منتصرة فى الميدان الشرقى ، انتصاراً سجلته معاهدة برست لتوفسك مع الروس فى عام ١٩١٨ ؛ وجيوشها لم تنهزم فى الغرب انهزاماً ماحقاً ، بل إن معارك الحرب البرية لم تدر فوق أراضى ألمانيا ذاتها ، وإنما كانت فى خارجها ، وبقيت كذلك حتى تراجعت جيوش الرايخ إلى أرض الوطن ، غير مطاردة ولا مختلة النظام . وقد خسرت ألمانيا الجولة لأنها لم تتخذ من قوة البحر وقواعده ما تستطيع به أن تخنق بريطانيا عدوها الأصلى . . . بل عدوها الذى استطاع أن يؤلب من حوله الأنصار والحلفاء فى الغرب والشرق ، وفى العالمين القديم والجديد ، فاشتمل معسكر بريطانيا وحلفائها على حكومات تمثل ١٤٣٠ مليون من سكان العالم ، على حين لم يبق فى معسكر ألمانيا غير حكومات تمثل ١٦٠ مليون فقط . وهكذا لم يكن النصر غير مسألة زمن ؛ حتى إذا انهارت جبهة ألمانيا القومية فى الداخل جاء النصر كالثمرة هزتها الريح فسقطت ، وكان سقوطها فى الميدان الغربى .

وانقضت الفترة ما بين الهدنة فى عام ١٩١٨ وإعلان الحرب فى الجولة الثانية عام ١٩٣٩ . ولما كانت الحرب فى جولتها الأولى لم تصل إلى نتيجة فاصلة ، فإن

الدوافع الأولى والعوامل الأساسية التى أدت إلى الحرب فى عام ١٩١٤ ما زالت باقية. فأوربا قارة صغيرة، تتزاحم فيها الأمم، وتختلط الحدود، وتتداخل القوميات، وتتشابك المصالح والمواصلات؛ فلا يمكن أن تستقر العلاقات بين الدول على حال واحدة إلى أجل طويل. وأوربا لها مصالح فيما وراء البحار، تطمع ألمانيا، وهى الدولة الكبرى التى تتوسط القارة، فى أن تنتزع السيطرة عليها من بريطانيا التى تقف على باب القارة، وتحتكر السيطرة على طرق البحار، وموارد كثير من مناطق النفوذ والمستعمرات. وقد استغرقت ألمانيا بضع سنوات قبل أن تفيق من صدمة ١٩١٨؛ ولكن نهوضها كان أسرع كثيراً مما تصور أكثر الناس فى ذلك الوقت. وسرعان ما أدرك الحلفاء أن ألمانيا قوة لايمكن كبتها، كما لايمكن تنظيم أوربا تنظيما مجدياً بدونها؛ فكانت اتفاقات لوكارنو فى عام ١٩٢٥، ودخول ألمانيا فى عصبة الأمم. ومع ذلك فلم يكن من المعقول ولا الطبيعى أن ترضى ألمانيا بوضعها هذا، وأن تقنع بما تركت لها معاهدة ڤرساى من مجال حيوى مبتور الأطراف مقصوص الجوانب، وهى الأمة التى تستشعر، من مواردها فى الثروة والرجال، ومن موقعها الجغرافى ومكانتها فى النهضة الأوربية الحديثة، مايؤهلها لأن تتزعم القارة. ولذلك كله ما لبثت خطط ألمانيا أن برزت من جديد؛ وأراد قادتها هذه المرة أن يكون وضع خططهم على أساس من الدراسة والتقدير أكثر عمقاً وأبعد مدى مما حدث فى العهد القيصرى؛ فرأينا النازية الحديثة تضع نصب أعينها عدة أمور: أولها حسن التنظيم والتربية فى الداخل حتى لا تتكرر مأساة الثورة الداخلية التى جلبت فى نظرهم هزيمة ١٩١٨، ثم توطيد نفوذ ألمانيا فى القارة ذاتها حتى لاتشغل الدولة نفسها بحروب محلية عند ما يحين وقت الكفاح العالمى؛ ولذلك سعى الرايخ حثيثاً فاستعاد أراضيه فى السار، ووحّد مابين ألمانيا والنمسا، وضم جانباً من تشكوسلوفاكيا، وعمل جاهداً لاستعادة دانزج وأجزاء معينة من بولندة، ولو أنه لم يوفق لكل ما يريد. كذلك رسم قادة النازى خطتهم على ألا يحاربوا فى جهتين أو أكثر فى أوربا أو خارجها إلا مضطرين تحت قهر الظروف. ذلك أنهم قدروا أن قوة ألمانيا فى تماسكها كتلة واحدة تضرب فى اتجاه موحد. ومع ذلك فقد قدروا للظروف احتمالاتها، فكسوا ألمانيا بشبكة من الطرق الجيدة، وأعدوا عدتهم بل اتخذوا عتادهم من النوع الميكانيكى

السريع الحركة والذى يسهل نقله من ميدان إلى ميدان ، ووضعوا خطط ما أسموه بالحرب الخاطفة ، تلك التى تمكنهم من الضرب يميناً أو شمالا بأسرع ما يكون ، والتى يتحول معها القتال من حرب مواقع إلى حرب حركة . وهم فى ذلك كانوا قادة ومنظمين عسكريين من طراز جديد ممتاز . ولكنهم للأسف — أو لحسن الحظ — لم يقدروا عوامل أخرى ؛ منها أن هذا النوع من القتال السريع يقتضى الوصول إلى نتائج فاصلة وحاسمة فى أقصر وقت ممكن ؛ وأن الخطة الخاطفة إن أخفقت فى الوصول إلى غايتها كاملة كانت عرضة للانهيار ؛ لأن عامل الزمن يكون على الدوام فى الجانب الآخر وضد صاحب الحرب الخاطفة . وقد أدرك أعداء الألمان من البريطانيين والروس هذه النقطة إدراكاً عميقاً ، وإن قصر عن إدراكها الفرنسيون . فما إن لمح البريطانيون منفذاً إلى إطالة الحرب فى أية صورة حتى نفذوا منه ؛ وما إن رأى الروس وسيلة إلى تشتيت جهد الغزاة من الألمان والمصابرة لهم لإطالة النضال يوماً واحداً حتى عمدوا إليها . وهكذا كان الألمان مقامرين فى حربهم وفى خططهم ؛ قد ركزوا كل قواتهم فى اندفاعات خاطفة كان من الجائز أن تصل بهم إلى نتيجة فاصلة ، ولكنهم لم يقدروا أن أى تعطيل أو انحراف عن الوصول إلى الغاية المحددة فى الوقت المحدد معناه أن السهام تطيش . . . وويل لمن تطيش سهامه فى حرب حديثة يتكلف فيها إعداد السهم من القوى والموارد ما لا سبيل إلى تعويضه !

كذلك أخطأ الألمان وأنصارهم فى تقدير بعض العوامل الجغرافية الكبرى ، التى كان لها أعمق الأثر فى تحديد مجرى الحرب ، والتى كان ينبغى أن يحسبوا لها حسابها وأن يجعلوا لها من القيمة أكثر مما فعلوا . وأول هذه العوامل أن ما يقارب ثلاثة أرباع سطح الكرة يغطيه الماء ، وأن من يريد أن يتسلط على شؤون هذا الكوكب واتصالات سكانه بعضهم ببعض ينبغى أن تكون له سيادة البحر ، وأن يسيطر فوق ذلك على مواقع وقواعد بحرية حصينة على طول طرق المواصلات ؛ فإذا لم تتيسر له هاتان الميزتان وجب أن يرسم خطته على أن يحصل منهما على أكبر قدر مستطاع . وقد يظهر أن الألمان النازيين أدركوا هذه الحقيقة إدراكا ما ؛ ولكنهم على كل حال قصروا دون إدراكها على وجهها الكامل الصحيح ، وأرادوا أن يستعيضوا عن قصورهم من هذه الناحية

بقوة الجو ، التى أضافت عنصراً جديداً فى الحرب الأخيرة ، ولكنها لم تغير الحقائق الجغرافية الثابتة . وقد رأينا النازيين فى مطلع الحرب فى الجبهة الغربية ، أى فى صيف عام ١٩٤٠ ، يحتلون شواطئ أوربا الغربية على نطاق أوسع كثيراً مما فعلوا فى الحرب السابقة ؛ فهم قد احتلوا النرويج والدانمرك وسواحل هولندة وبلجيكا وسواحل فرنسا الغربية كلها حتى حدود أسبانيا الموالية . وكان قصدهم من وراء ذلك أن يقفوا فى مواجهة بريطانيا على طول الساحل ، فتتخذ غواصاتهم وطائراتهم قواعدها فى كل مكان ، تشن الغارة وتبعث الرعب فى البحار المحيطة ببريطانيا ، كما تضاعف الصعوبات أمام الأسطول البريطانى فى محاولته ضرب الحصار البحرى على القارة الأوربية . ولكن الألمان لم يدركوا أن هذه الخطة لا يمكن أن تنجح وأن تؤتى نتيجتها إلا إذا صحبتها — بل سبقتها — خطة أخرى ترمى إلى إنشاء أسطول بحرى يناظر الأسطول البريطانى المرابط حول الجزر البريطانية ويكون كفؤاً لمنازلته فى عرض البحر . فقد ثبت أن الأسطول الألمانى بتكوينه الذى كان عليه عند قيام الحرب كان مضطرا إلى الالتجاء معظم الوقت فى موانيه وقواعده أو قرب السواحل التى تحميها الطائرات ؛ وهو ، فيما دون الغواصات ، لم يساهم كثيراً فى ضرب الحصار وتضييق الخناق على بريطانيا ، التى تابعت قوافلها البحرية سيرها . وجاهد الألمان وكابروا طوال سنوات ثلاث كان عامل الزمن فيها حليف بريطانيا ، حتى انتصرت هذه الأخيرة فى موقعة الإطلنطى ، وهى الموقعة الكبرى التى امتدت بطيئة خلال عامين بل ثلاثة على سطح المحيط ، وتقرر فيها لمن تكون سيادة البحار وما يتبعها ويترتب عليها من سيطرة عالمية .

وقد يختلف العسكريون فى تقدير النتيجة لو أن هتلر تقدم وغزا بريطانيا عقب نصره الخاطف فى صيف عام ١٩٤٠ ، ولكن الحقيقة التى ينبغى أن نعترف بها هى أن هتلر لم يكن له من أساطيل البحر وعدته ما يسمح له بغزو بريطانيا إذ ذاك ، وإلا لم يتراجع عن ذلك . ويظهر أنه جرب قوة الجو ، فكانت موقعة بريطانيا الجوية فى أواخر الصيف وأوائل الخريف من عام ١٩٤٠ ، فجاءت نتيجتها مثبطة للهمة مقعدة للعزم ، واضطر هذا الفاتح الذى كانت الطبيعة أوسع من أن يشملها حسابه ، وأفسح من أن يحيط بها تقديره ، اضطر إلى أن يتواضع تواضعاً لم يكن بد من أن يجر وراءه الهزيمة يوماً ما . فبريطانيا رأس

الحرب المدبر ، ومصنع الحرب الدائب على الإنتاج ، وقاعدة الحرب التى لا بد أن يتجمع فيها من القوة والسلطان ما يؤذن بغزو القارة من جديد . وسرعان ما انقلب الوضع فى الميـدان الغربى من هجوم من ناحية ألمانيا ، إلى قعود ثم دفاع . وكان على ألمانيا إذ ذاك أن تحصن ذلك الشاطىء الطويل ، الذى امتد آلاف الكيلومترات ، والذى انقلبت مزية الطول فيه ، فصارت الآن على الألمان بعد أن قدر النازيون أن تكون لهم .

وفى غزو الميـدان الغربى وإعادة فتح الجبهة الغربية تعـلّم البريطانيون من درسهم السابق فى الحرب الماضية ؛ فهم لم يعمدوا هـذه المرة إلى غزو القارة إلا بعد أن تأكدوا من أن قوتهم وقوة حلفائهم تبلغ أضعاف قوة العدو . ذلك أنهم لم يريدوا أن تفتح الجبهة قبـل أن يكمل الاستعداد ، فتنقلب الحرب فيها إلى حرب خنادق يصح أن تطول إلى سـنوات ، كما حدث فى حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ عندما كان الحلفاء يُعِـدّون فرقهم ثم يبعثون بها إلى الميدان واحدة إثر أخرى فيحصدها الموت أولا فأولا ، وتلتهمها النيران قبل أن تصيب نجحا يذكر . ولقد تجلت شخصية تشرشل وواسع خبرته كرائد حرب وواضع خطة فى أنه مارس فى هذه المرة ضـبط النفس وقاوم إلحاح أعدائه بل حلفائه ، لا سيما الروس منهم ، فلم يفتح الجبهة الثانية فى عام ١٩٤٢ ، ولا فى عام ١٩٤٣ ، وإنما انتظر حتى تم استعداده ، واستعداد الأمريكيين بنوع خاص ، فى عام ١٩٤٤ وتمسك قبل ذلك بأن يكتفى حلفاء الغرب بحملة إفريقية الشمالية ، ثم بمناوشات الميـدان الجنوبى ، حيث كانت إيطاليا أضعف نقطة فى استحكامات المحور وقلعة أوربا المحورية .

فأما الحقيقة الجغرافية الثانية التى لم يقدرها النازيون حق قدرها (كما لم يقدروا قيمة الاستعداد البحرى الشامل) فهى أن مسافات اليابس ينبغى أن يحسب حسابها على وجه دقيق ، وأنه كلما طالت المسافات صعب الاتصال واستنفدت الطاقة البشرية . وأوربا كما نعلم قارة تضيق فى الغرب ولكنها تتسع كلما اتجهنا نحو الشرق ؛ ولذلك فإن الألمان كانوا كلما توسعوا نحو الشرق فى الميدان الروسى اتسعت أمامهم المساحة وازداد طول الميدان ، حتى جاء وقت امتدت فيه جبهتهم من فنلندة فى الشمال إلى البحر الأسود والقوقاز فى الجنوب . واتساع الجبهة هذا معناه صعوبة التركيز فى الهجوم ، الذى بدأ قويًّا مركزاً ثم

وق فى قوته وتهادى فى سرعته وتراخى فى اندفاعه، حتى أصبحت الجبهة « خطا » رقيقاً، لا يصلح لمتابعة الهجوم، بل لا يقوى على الثبات والدفاع. والواقع أن الطبيعة الجغرافية للميدان الروسى لم تكن لتعين على نجاح غزو يأتى من الغرب؛ لأن جهود النازى تتشتت وتبعثر كلما توغل نحو الشرق؛ وذلك بالطبع فى مصلحة المدافعين. أما إذا جاء الهجوم من الشرق، فإن قوى الغزاة وأجنحة جيوشهم تتجمع وتتركز ويقابل بعضها بعضاً ويسند بعضها بعضاً كلما توغلت نحو الغرب. ولعل هذا هو السر الأكبر فى أن هجوم الروس المضاد بدأ فى شعب متفرقة، لاقى بعضها بعضاً حتى بلغت غايتها متساندة متكاتفة، على حين تفرقت ريح الألمان وطاشت سهامهم فى هجومهم المبعثر نحو الشرق.

والحق الذى تدل عليه كل القرائن أن هتلر وأعوانه عندما قرروا غزو الروسيا فى صيف ١٩٤١ لم يحسبوا للمسافات حسابها الدقيق، ولم يحتاطوا لظروف المناخ والطبيعة الجغرافية إذا لم يتم النصر فى خلال أشهر أو أسابيع معدودات، كما كانوا يقدرون — فيما يقال —. وقد دفع قادة الحرب الهتلرية والمسئولون عن خططها ثمن ذلك التقدير الخاطىء أرواحاً كثيرة بلغت عدة ملايين من الجانب الألمانى وحده، وجعلت من ذلك الميدان الشرقى طاحونة الحرب الضروس التى كلفت الإنسانية من الأرواح أضعاف ما كلفها الميدان الغربى، الذى قصد به فى أول الأمر أن يكون ميدان الحرب الأساسى.

وأما الحقيقة الجغرافية الثالثة التى غفل عنها المحوريون، فهى أن الحرب العالمية مهما اختلفت أساليبها واتسعت ميادينها وتعددت جبهاتها، لابد أن ترتبط فيها الخطط، وأن يُنسّق الإشراف على تنفيذها فى مختلف الميادين والجبهات. ومع ذلك فقد ركز الألمان جهودهم أول الأمر فى ميدان واحد أو ميدانين اوربيين، وغفلوا أو تغافلوا عما وراء ذلك من ميادين. فقد سيطرت عليهم فكرة الحرب فى ميدان واحد، وتجنب الحرب فى ميدانين فى آن واحد، إلى درجة ملكت عليهم تفكيرهم فى غير ذلك من فنون الحرب ومقتضياتها وأحكامها. ولذلك قد غفلوا عن ميدان إفريقية الشمالية أشهراً متلاحقة بعد دخول إيطاليا الحرب إلى جانبهم حتى دفعوا ثمن إهمالهم غاليا فى النهاية. ذلك أنهم تركوا الإيطاليين يحاربون حربهم فى إفريقية الشمالية والشرقية حتى ضعفت قواعدهم وتضعضعت مراكزهم فى الحبشة بصفة خاصة،

وحتى تمكن البريطانيون من أن يثبتوا أنفسهم فى مراكز قيادتهم وقواعدهم الهامة فى مصر وشرق إفريقية بل وفى الشرق الأدنى أو الأوسط عامة . وبعد أن تم كل هذا تنبه الألمان والتفتوا إلى حليفتهم ، وبعثوا بروميل ومدده إلى شمال إفريقية . ولكن موقف البريطانيين كان قد أصبح من الثبات ، وجناحيهم الجنوبى (الحبشى) والشرقى ، كانا قد أصبحا من الأمان بحيث استطاعت قواتهم وقوات حلفائهم الثبات أول الأمر ثم الاندفاع آخره ، حتى اكتسحت مواقع المحور فى شمال إفريقية ، وبلغ الحلفاء إيطاليا ، على نحو ما هو معروف .

وقد يحسن هنا أن نشير إلى ارتباط الحرب فى كل من شمال إفريقية وجنوب الروسيا . فقد التفت الألمان فيما يبدو إلى الشرق الأوسط ولو متأخرين ، ولكنهم بدلا من أن يسعوا إليه مباشرة عن طريق اليونان والدوديكانيز ثم لبنان وسوريا والعراق ، أرادوا أن يبلغوه دائرين فى حركة التفاف مزدوجة ؛ فمدوا ذراعاً إلى الروسيا الجنوبية والقوقاز ومدوا الأخرى إلى إيطاليا وشمال إفريقية وصحراء مصر . ولكن الذراعين كانتا من التباعد واختلاف الظروف بحيث لم يكن مستطاعاً رسم خطة مشتركة توحد بين حركات الجيوش المهاجمة فى كل منهما ، وتنسق تلك الحركات بحيث تستطيع إحدى الذراعيين أن تعين الأخرى فيما قد تتعرض له من شدة أو محنة ، شأن كل ذراعين تعملان معاً ومن أجل غاية واحدة . ولعلها لم تكن مجرد مصادفة أن تنكسر إحدى الذراعين فى ستالنجراد عندما انكسرت الذراع الأخرى فى العلمين . ولقد كانت هاتان الموقعتان على أبواب الشرق الوسيط ، نقطة تحول قاطع فى مجرى هذه الحرب العالمية .

وفوق ذلك فإن عدم ارتباط الخطط المحورية فيما بينها قد تمثل فى ناحية أخرى لا تقل خطورة عما سبق . . . ذلك أن اليابان حاربت إلى جانب المحور من أجل غاية مشتركة هى تحطيم الديمقراطية وسيطرتها العالمية ، ولكنها — فوق دخولها الحرب متأخرة شيئاً ما — حصرت نفسها فى ميدانها وعملت من أجل مصالحها الخاصة . وقد كانت مقتضيات الحرب الحقيقية تحتم أن تسعى اليابان لتتصل بالمحور فى الغرب عن أى طريق ؛ فتهاجم الروسيا فى الشرق مثلا ، وبذلك تخفف الضغط عن الألمان فى ميدانهم الشرقى ، وتسعى لأن يلتقى جناحا المحور أو يتقاربا على الأقل فى أرض الروس . أو توجه هجومها البحرى فى ناحية الهند وشرق إفريقية وجزيرة مدغشقر وبحر العرب ، على أمل أن تقترب شيئاً ما

من قوات المحور الممتدة نحو البحر المتوسط والبحر الأحمر ، أو أن تقطع مواصلات الحلفاء البحرية فى غرب المحيط الهندى وبين جنوب إفريقية والهند والبحر الأحمر على الأقل . ولكن الذى حدث هو أن اليابان فضلت أن تعمل منفردة ولحسابها الخاص فى ميدان المحيط الهادى ؛ وأن تركز قواتها فى احتلال جزر الهند الشرقية وجزر المحيط الهادى ، ثم تتجه نحو استراليا بدلا من أن تتجه نحو المحيط الهندى . وقد شتتت اليابان بذلك قواتها فى اتجاه لا يقربها من قوات المحور ومواقعها فيما وراء البحار . والواقع أن الحلفاء قد أفادوا من هذا الخطأ إلى أبعد حد ، حتى إنهم استطاعوا أن يرسموا خطتهم فى مرحلتين : أولاهما تقضى بالفراغ من الميدان الأوربى بتركيز الهجوم على إيطاليا وألمانيا ، مبتدئين بالأولى لأنها أضعف حلقات المحور ، حتى إذا ماانتهوا من الفاشيين والنازيين فرغوا — وفرغت معهم الروسيا ذاتها آخر الأمر — لليابان لخطموها على انفراد .

نخرج من هذا الحديث بأن قصة الحرب العالمية ، كما عرضناها فى هذه السنوات الثلاثين أو الأربعين الأخيرة ، قصة تستحق الدراسة والتفكير وإنعام النظر . وكلما تعمقنا فى دراستها برزت لنا نواحيها المختلفة ، واتضح لنا ارتباط نتائج النضال فيها بحسن تدبير الإنسان ومحاولة الاستفادة من الظروف الجغرافية العامة . والحق أن الحرب لم تعد مجرد قتال بين أقوياء تجمع لهم من القوة فوق ما يستطيعون التحكم فيه ، وإنما هى قد غدت علماً وفناً على السواء ، بحيث يستحيل على جاهل بعد اليوم أن يحارب بنجاح ، وبحيث لا يكتب الفوز بعد اليوم إلا لأولئك الذين يفكرون ويرسمون ويفيدون من عبر الماضى ، ويستجيبون لما تقتضيه ظروف البيئة التى يحاربون فيها . وويل لأولئك الذين يندفعون بعد اليوم فى حرب لا يدركون الغاية منها إدراكا صحيحاً ، ولا يحسنون ترسم الطريق الذى ينبغى أن تسير فيه .

وقد يفيدنا وينير سبيل المستقبل أمامنا أن نحاول الخروج من هذه الحرب المنتهية بدرس أخير . ذلك أن هذه الحرب بجولتيها إنما قامت فى الأصل على أساس النزاع بين الجرمان والبريطانيين من أجل السيطرة العالمية . وقد أخفق الأولون لأنهم لم يرسموا خططهم كما ينبغى أن ترسم ، أو هم قد رسموها متأثرين

بعامل التحدى والاستفزاز بدلا من أن يتأثروا بعامل الفكر الرصين والترسم الهادئ لظروف الميدان . وقد نجح البريطانيون لأن خبرتهم فى الاحتكاك الدولى وسياسة القتال العالمى كانت أطول ، ولأن استجابتهم لظروف الطبيعة ومقتضياتها كانت أقوى ، ولأن عامل الزمن كان على الدوام فى جانبهم . . .

ولكن الشىء المهم الذى انتهت إليه هذه الحرب هو أن البريطانيين قد نجحوا هذه المرة فى إزالة عدوهم أو إبعاد خطره المباشر إلى أجل طويل . وقد يكون ذلك خيراً بالنسبة لبريطانيا ومستقبلها ... ولكنه قد لا يكون كذلك ؛ فقد كانت ألمانيا على الدوام عامل توازن فى قلب القارة الأوربية ، كما كانت مصدر خطر تألّب لمكافحته أهل القارة فى الشرق والغرب . ففى حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ مثلا اتفقت روسيا القيصرية ، رغم كراهيتها للحرية والديمقراطية ، مع بريطانيا التى كانت مهد الحياة النيابية ومبعث الديمقراطية التى تستند إلى الحرية . وفى حرب ١٩٣٩ — ١٩٤٥ اتفقت روسيا البلشفية مع بريطانيا الرأسمالية ، فكان الخطر الجرمانى باعث الوحدة بين متناقضات القارة الأوربية . . . بل كان نطاق الأمان الذى يعزل بين متناقضات لا يمكن إلا أن تصطدم أشد اصطدام إن هى تلاقت وجهاً لوجه ! والآن وقد زال هذا الخطر الجرمانى المشترك ، أو كمن إلى أجل طويل ، فهل ينتهى بزواله دافع الوحدة بين طرفى القارة ؟ وهل يختفى ذلك العدو المشترك فلا يجد الروس الصقالبة ، أو لا يجد الإنجليز السكسونيون أمامهم عدوًّا آخر غير حليفهم القديم ؟ وهل يجئ القدر لأوربا أن تنقسم الآن إلى معسكرين اثنين فى الشرق والغرب ، بعد أن كانت منقسمة إلى معسكرات ثلاثة فى الشرق والوسط والغرب ؟ وهل يكون التصادم بين طرفين أشد عنفاً ، وأكثر تخريباً ، وأدنى إلى الفناء والإفناء مما كانت عليه الحال بين أطراف ثلاثة ، يسهل أن يتفق اثنان منها على الثالث ، فيجئ النصر قبل أن يستحيل القتال إلى حرب فناء ؟ وهل يجىء فى أعقاب ذلك كله أن يختل توازن القارة وتترنح مدنية أوربا ، أو تدك معالمها ، فيداول الله الأيام بين القارات كما يداولها بين الناس ؟ أسئلة كثيرة قد لا يستطيع أن يجيب عنها إجابة صحيحة سليمة غير الزمن ! ولعل أبلغ حكم الله سبحانه وتعالى فى الخليقة أن الزمن يسير !

سليمان حزيّن

الشخص الثالث

لم يكن قد مضى على إقامتى فى مدينة ليدز أكثر من شهرين قضيتهما بين الجامعة والمنزل، ما حاولت أن أختلف فيهما إلى مراقص تلك المدينة الجميلة ومشاربهـا وملاهيها لألهو بعض الوقت، حتى عطلة آخر الأسبوع كنت أقضيها فى غرفتى بين الـكتب. ولم يكن يعترينى من كل هذا ملل أو سأم؛ فقد درجت على مثل هذا النوع من الحياة منذ الصغر ومنذ أدخلت المدرسة فى مصر، وتعودت حياة الجد، ولم أكن لأغيرها بعد أن رأيت أن النجاح كان حليفى فى كل مراحل حياة الدراسة. وكان أبى ـ رحمه الله ـ يفخر بى ويشجعنى على هذا ويصرفنى ـ بشتى المغريات وصنوف الحيل ـ عن الألعاب الرياضية وغيرها من الجمعيات الثقافية. وقد أدركت الآن أنه وإن يكن النجاح قد حالفنى، فقد خرجت من معركة المدرسة بنظر قصير وجسم هزيل وخبرة قليلة بشؤون الحياة.

وفى يوم الأحد التالى لانقضاء هذين الشهرين كنت جالساً فى الغرفة أطالع كعادتى، وإذا بصاحبة المنزل تدق البـــاب وتستأذن فى الدخول، وقمت لاستقبالها؛ فدخلت وقالت لى وفى صوتها رنة العطف ـ وفى الحق أن هذه المرأة كانت لى فى هذه الغربة أمًّا مؤنسة:

— إنك يا مستر ريدى غريب الأطوار. إن أهالى ليدز فى مثل هذا اليوم يغادرون المدينة فتياناً وفتيات، أزواجاً وزوجات ومعهم أطفالهم، إلى الريف الجميل يستمعتون بمناظره الخلابة. وإنى لأعجب أن يقبع شاب فى مثل سنك فى غرفته يوم الأحد كما تفعل العجائز والمرضى، وما كان أحوجك وأنت تدرس طوال الأسبوع إلى الخروج فى مثل هذا اليوم لتجدد نشاطك. وقد تألمت لك وفكرت طويلا فيما قد يؤول إليه حالك إذا أنت انصرفت إلى الدرس وحده.

وها أنت ذا ترى منظارك السميك وجسمك الهزيل ، فماذا أنت صانع بعد هذا ؟ يجب يا عزيزى أن تقرن الجد بشىء من اللهو البرىء . وكم يسعدنى أن يكون إلى جانبك فتاة طيبة الخلق ترتاد وإياها الحدائق أيام الآحاد والأعياد . وإنى موقنة بعد ذلك أنك لن تأسف على هذه الساعات السعيدة ... فبعد سنوات قد تتزوج وتكون لك أسرة وتثقل كاهلك هموم الحياة ، وحينئذ تفتش بين طيات الماضى عن هذه الساعات السعيدة ، وسوف تذكرها ، وستظل تذكرها دائماً ؛ لأنك لا تستطيع إلا أن تذكرها . وإنه ليسعدنى أن أخرج بك من هذه العزلة وأدعو إلى منزلى يوم الأحد القادم بعض الفتيات والفتيان – ومن بينهم فتاة من أسرة فى الريف كنت أسكن إلى جوارهم قبل نزوحى إلى المدينة – وقد اخترت لك هذه الفتاة لأنها جميلة ، وعلى شىء من الثقافة ، كما أنها على خلق كريم . فإن رغبت فى هذا فسأكتب لأبيها أطلب إليه أن يسمح لى بأن أضيفها عندى ليلة الأحد . وإنى إنما أفعل ذلك لأدفع عنك الضجر ، ولأدخل عليك شيئاً من السرور . فهل أنت راض عن هذا ؟ وهل لى أن أكتب لأدعو هذه الضيفة الكريمة ؟

ثم أمسكتْ . وفكرتُ من جانبى فيما قالت ، وتذكرت أبى وشدة حرصه على أن أكون ذلك الطالب الذى يصل ليله بنهاره بين الكتب ، وذكرت كذلك أن النجاح كان حليفى فى هذه الحياة المضنية الشاقة ، ولاح لى فى هذه الآونة خيالى فى المرآة ، فرأيت منظارى السميك وجسمى الهزيل ، وفى حركة عصبية قلت لصاحبة المنزل وقد انتصبت واقفة أمامى يشع من عينيها بريق فيه رحمة وفيه عطف كثير :

– إنى راض يا سيدتى عن كل ما تقترحين ، وإنى لك لشاكر .

وكان يوم الأحد ، وحضرت الفتاة فيمن حضر ، ونعمتُ مع الجماعة بأطيب وقت ، وانقضى اليوم على خير ما تنقضى به الأيام ، وخرجت أصحب الفتاة ، وركبت وإياها قطار الضواحى ، وتحادثنا كثيراً فى رحلتنا القصيرة ، فسألتنى عن مصر وعن آثارها وتاريخها . ومر القطار ينهب بنا الأرض ، حتى إذا ما أشرفنا على قريتها طلبت إلىَّ فى أدب جم وفى شىء من الاعتذار ألا أصحبها إلى منزلها ؛ لأنها لا تود أن تظهر مع غريب فى طرق القرية الصغيرة ، وهى تخشى أن يؤدى ذلك إلى فسخ خطبة شقيقتها ، فقد يتقول الناس عليها وتلوكها ألسنة السوء . فنزلت على إرادتها ورجعت أدراجى بعد أن ودعتها فى المحطة .

نمت ليلتي نوماً هادئاً بعد أن فكرت طويلا فى تلك الفتاة الفاتنة . فلما أصبحت قابلت ربة البيت ، فابتسمت وسألتنى :

— كيف حالك الآن يا مستر ريد ؟

ثم أردفت :

— هل لك في أن أدعو صاحبتك مرة أخرى لتمضى عطلة آخر الأسبوع عندنا؟

فأجبتها على الفور أجزل لها الشكر وأقول لها افعلى بربك وادعيها كل أحد، وانحنيت وخرجت وهى تشيعنى بنظرات الأم العطوف، ولكن فى شىء من الخبث .

وحضرت نورا وكنت أخرج معها للنزهة فى الرياض ، واشتركت معها فى أندية رياضية عدة . ولكن ذلك كله لم يشغلنى عن الدرس والتحصيل ، وحمدت الله على ما آلت إليه حالى ، فقد زال عنى الهزال والضجر .

تعددت زيارات نورا لمنزلنا ، وتوثقت بينى وبينها صلات الود . وعندعودتى ذات يوم من الجامعة رأيت صاحبة البيت تستقبلنى بالباب لتقول لى إن والد نورا فى غرفة الاستقبال وقد حضر يريد مقابلتى ، فدخلت غرفتى وأنا أفكر فيما فجأتنى به ، وأفكر فيما دعا هذا الرجل إلى الحضور وأنا لم أعرفه من قبل ولم تقدمه إلىّ ابنته ، وقد حظرت علىّ ألا أصحبها إلى منزلها ، فما الذى حدث وأنا لم أفعل شيئاً ألام عليه ؟ جال كل ذلك بخاطرى وشاعت الهواجس فى نفسى وأنا رجل شرقى أحسب حسابا لكل خطوة فى مثل هذه الأمور، وأعرف عواقب هذه المقابلات، وأنا ما زلت كذلك عضو بعثة وأخشى على مستقبلى ، فماذا عسى أن تكون نتيجة هذه الزيارة المفاجئة ؟ ثم طفقت أفكر وأخذت رأسى بين يدى وجعلت ألعن صاحبة المنزل وأنحى باللوم على نفسى أن قبلت اقتراحها ، وتوهمت أن لعنة الله قد نزلت بى لأنى حدت عن الطريق التى رسمها لى أبى . وبعد هنيهة دقت صاحبة المنزل باب غرفتى، ولعلها استبطأتنى، وقالت :

— أسرع يا مستر ريدى ، فإن والد نورا فى انتظارك . . .

أفقت من أحلامى ، وبدلت ملابسى ثم استجمعت شجاعتى وسرت فى خطى ثابتة إلى غرفة الاستقبال ، فرأيت رجلا فارع الطول ، يناهز الخمسين ، يخف لمقابلتى ويشد على يدى فى شىء من القوة ، ثم جلس وجلست ، وبعد فترة غير قصيرة قال لى فى هدوء :

— لقد أخبرتنى نورا كل شىء . . .

ولم يكد يتم كلمته حتى تصببت عرقا ، ولـكنه عاد يقول :

— إنك كنت كريما يا سيدى مع ابنتى ، وقد أخبرتنى عن عنايتك بها، وكيف أنك كنت تهب لها بعض وقتك وتسعدها ، وقد حضرت لأشكر لك صنيعك . وفى الحق يا بنى أنى لا أستطيع أن أفيك حقك من الشكر ، فأنا أعيش وأسرتى فى جو يسوده الهدوء فى منزلنا الريفى ، ولم يكن ليختلط بنا إلا نفر قليل من أهالى القرية ، ولم يكن شئ من المرح يعرف طريقه إلى دارنا إلا بعد أن تمت خطبة ابنتى الصغرى ، وقد قدر لهذه الخطبة أن تفسخ . وبرمت أسرتى بهذا الهدوء المطلق وبخاصة زوجتى ، فلم أجد بدًّا من أن أدعو أحد معارفى ليقيم معنا ونتقاضى منه أجرا، فلا يستشعر خجلا فى ضيافتى التى قد تطول . وهذه عادة بلادنا نعمد إليها لنغير من جو الضجر ونقلل من هذا السكون الممل . وها قد عاد إلى بيتنا شئ من السرور ، وقد شكرت هذا الرفيق من قبل؛ لأنه سرَّى عن زوجى وابنتى الصغيرة ، كما شكرت لك الآن مثل هذا الصنيع الذى قمت به نحو نورا . . .

ووقف الرجل وسلَّم وانصرف وأنا لا أصدق أنه ما حضر حقا إلا ليشكر ، وأخيرا انقشعت وساوسى وحمدت الله على هذه النتيجة .

سافرت من ليدز إلى باريس لأتم بعض البحوث الخاصة برسالة الدكتوراه التى اعتزمت أن أتقدم بها إلى الجامعة بعد سنة . وانقطعت أخبار نورا عنى ولم نتراسل طوال هـذه المدة ، ثم عدت إلى ليدز وقابلت الفتاة مصادفة ، فقالت لى إنها تسكن الآن مع أمها وأختها ووالدها الجديد فى المدينة وتركتنى مسرعة لأنها كانت على موعد مع أمها . ووقفت هنيهة أتبعها نظرى وأنا لا أفهم مما قالت شيئا ، ثم رجعت إلى غرفتى ، ودعوت صاحبة المنزل وأعدت على سمعها هذه الجملة التى قالتها نورا ، ورجوتها أن تفسر لى هذا اللغز وهل يستطيع الإنسان فى هذه البلاد أن يكون له والد قديم ووالد جديد ؟ فضحكت وقالت لى :

— ليس فى هذا غرابة ، وسأحدثك عن ذلك كله . لقد أخبرك والد نورا أنه ضم إلى أسرته ضيفا ، وقد حدث ذات يوم أن تقدم الزوج إلى زوجته ، وقد نمت إليه بعض إشاعات أو لعله لحظ شيئا من التغير فى سلوك زوجته ، فأخبرها أنهم لم تعد بهم حاجة إلى هذا الضيف بعد ، والخير أن يطلبوا إليه

-- بعد أن ينتحلوا له المعاذير -- أن يخلى غرفته . ولعله لم يشأ أن يبوح لها بشيء من الشك فى أمرها ، فتعلل بأن ابنتيه قد يتقدم من يطلب يد واحدة منهما ، واستحلفها بحبه أن تجيبه إلى طلبه . أما الزوجة فقد أجابت على الفور أنه إن فعل ذلك ، فلا بد لها من أن تهجر البيت وتلحق بهذا الضيف . ودهش الزوج لجرأة زوجته وصراحتها ، وقال لها : « أنا إنما أتكلم عن رجل استأجر غرفة فى منزلنا ، لا عن عشيق يقيم تحت سقف بيتى بين زوجى وابنتى . وهل أستطيع أن أفهم من قولك هذا أن بينكما علاقة حب أو غرام ؟ وهل لك أن تصارحينى بكل ما حدث بينكما ؟ فظلت الزوجة هادئة فترة ، ثم ما لبثت أن قالت لزوجها إنها تحب هذا الرجل ، وإنها لا تستطيع أن تفارقه أو تعيش بدونه لحظة واحدة . فاعتلجت فى صدر الرجل عوامل عدة من خير وشر أخذت تتناوبه ، وأخيراً انتصر عنصر الخير فى صدر الرجل الذى كان يحب زوجته ويعبدها ، فاعتدل فى مكانه وقال لها : « أواثقة ياعزيزتى أنه يبادلك هـذا الحب ؟ » فأمنت على ذلك . فرجاها زوجها أن تدعو الضيف إلى مقابلته على انفراد ، فحضر وأراد أن يعتذر عن كل ماحدث ، ويقول إنه لم يقصد إلى ذلك ، ولكن الزوج قاطعه فى حدة وصرامة ، وقال له : « لقد عرفت كل شيء ولست ألومك أو ألومها على عاطفة جامحة كثيراً ما تأخذ بلب الإنسان وتغلبه على أمره ، وليس لى إلا أن ألوم نفسى ، فأنا الذى مهدت لكل ما حدث ، وقربت بين قلبين كانا بعيدين . ولست أفكر ياسيدى فى الانتقام من أحد بعد أن أربت سنى على الخمسين ، ولا أذكر أن فؤادى انطوى يوماً ما على حقد أو ضغينة ، فما كان ليعرف موجدة أو يكنّ حفيظة . ولندع الكلام فى هذا جانباً ، وما أحسب أنك تهتم له الآن ، وقل لى بربك هل تحبها حقاً ؟ وإذا أنا أخليت سبيلها ، فهل تقبلها زوجاً ؟ وهل تعاهدنى على ذلك كرجل شريف ؟ فإنى أحبها كذلك ، ولا أرضى لها أن تعيش خليلة .

وذهل الضيف لما رأى من هدوء الزوج ، وزم شفتيه وظهرت على أساريره أمارات حزن عميق . وخيم فى جو الغرفة سكون لم يلبث أن بدده صوت الزوج يقول لصاحبه : « الكلمة الآن لك يا سيدى . » ولكن الضيف لم يتكلم وظل صامتاً ، ولعله حاول الكلام فلم يقو عليه ، وأخيراً ركع أمام الزوج وفى عينيه دموع وأجهش يبكى وطلب إليـه أن يغفر له زلته . فتهره الزوج وقال له فى

خشونة : « ما لهذا طلبت الانفراد بك ، وإنى أطالبك الآن بأن تجيب على أسئلتى » . فوقف الضيف ومضى يتعثر واستند إلى أحد المقاعد وقال للزوج : «أجل ! إنى أحبها وسأتزوجها ، على شريطة أن تبارك لنا هذا الزواج .» فتمتم الزوج ببعض كلمات غير مفهومة كأنما كان يصلى بينه وبين نفسه ليشد أزرها ، فقد كان يخشى على هذه النفس المطمئنة أن تنال منها تلك الصدمة فتوهنها ، أو لعل الزوج فى صلاته القصيرة كان يبارك هذا الزواج المقبل الذى رسمه لزوجته ولهذا الرجل الماثل أمامه ، أو لعله فى صلاته القصيرة كان يصب جام غضبه ويستنزل لعنة ربه على هذين المخلوقين اللذين حطما منه قلباً كان عامراً بالعطف والحب لأسرته الوادعة .

وخرج الرجلان وافترقا دون أن يتبادلا كلمة أو تحية . واعتزم الزوج أمراً أصره فى نفسه ، وغادر منزله وعاد بعد أسبوع فقابل زوجه وقدم لها وثيقة وقال لها : « ستجدين فى هذه الوثيقة يا عزيزتى ما تقدمينه إلى المحكمة برهاناً على خيانتى العهود الزوجية . فقد صاحبت إحدى بنات الهوى وعاشرتها بضعة أيام فى أحد الفنادق ، وقد أثبت كل هذا فى الوثيقة — فما عليك إلا أن تتقدمى بها للمحكمة مطالبة بالطلاق ، وستنزل علىَّ لعنة القاضى ، ولكنى سأتحمل هذه الصدمة ، وسأترك لك منزلى عن طيب خاطر حتى تنتهى المدة التى يحق لك أن تتزوجى بعد انقضائها .» ثم قبل زوجته وابنتيه ، وجمد الدمع فى عينيه وبرح المنزل بعد أن قدم لها هذه التضحية التى لم تكن لتظفر بزواجها الجديد بدونها.

وها أنت ذا ترى أن كل شئ قد تم — كما أراد الزوج وأرادت الزوجة — وها هى ذى نورا صديقتك قد انتقلت مع أمها وأبيها الجديد إلى المدينة ، وعاد الزوج القديم إلى منزله الريفى يعيش فيه كالراهب وحيداً إلا من رحمة الله .

وسكتت صاحبة المنزل . أما أنا فما زلت أذكر هذا الرجل الوقور الذى خف إلى ليشكرنى ، وما زالت ترن فى أذنى كلمات الشكر التى كان يتقدم بها للشخص الثالث الذى أدخل السرور على زوجه وابنتيه ، والذى غير الجو الهادئ الممل ، والذى سلبه أخيراً قلب زوجه التى أحبها وما زال يحبها .

حسين فرج زين الدين

أحزان المساء

[مهداة إلى الروح الحبيب
من الروح الغريب .]

اشهدى يا نفس أطيافَ الغروبِ
وهى تفنى مثل أحلام القلوب
واندبى النور ، وضجِّى بالنحيب
واهبطى فى هوَّة الليل الرهيب

غابت الشمس ، وكانت منذ حينِ
تسكب الأفراح فى قلبى الحزين
فيُغَنِّى القلب فيَّاضَ الحنين
أغنيات الشوق ، والحب الدفين

غابت الشمس ، ووارها المساء
فتولىَّ الصفوُ عنى والرجاء
وطوانى الليل ، والليل فناء
وحياة القلب فجر وضياء

هكذا تذبل فى النفس الأمانى !
هكذا تنأى عن القلب الأغانى !
وأرى الأيام يطويها زمانى
فيهز اليأس روحى وكيانى

هكذا يمضى عن الدنيـا الربيعُ !
فيجفُّ النبع ، والزهر البـديع !
والروابى الخضر يطويهـا الخشوع
وغناء الطير شَـجْوٌ ودموع !

هكذا يمضى عن القلب الشبابُ !
فإذا العـمر يغشِّيه الضباب !
وإذا الآمـال وهمٌ وسراب !
وإذا الجنَّات قفـرٌ ويباب !

أيها الليـل لقـد هجت انتحابى
فشربتُ الدمعَ ، والدمعُ شرابى
أفمـا يكفيك يأسى واكتئابى ؟
إن أكن أشكو بدمعى ، فلما بى

إننى يأيها الليـل وحيـدُ
ساهر ، والنوم عن قلبى بعيد
إن مضى همٌّ ، أتى همٌّ جـديد
آه لو عشت كما كنت أريد

آه لو عاش فؤادى كيف شاء
لملأتُ الكون شدواً وغنـاء
ويح قـلبى ! إنه ذاب بكاء
فهْو ينسـاب دموعا ودماء

إننى حى ، ولـكنى دفـــينُ !
إننى حـــر ، ولـكنى سجين !
أيها الليـل : حياتى ما تـكون ؟
أهى صمت ؟ أم غناء ؟ أم أنين ؟

من تراه طاف بالحزن علَيَّا ؟
فسقانيه ، وقد كنت صبيا !
ثم ألقى فى دمى همسا خفيـــا :
سوف تبقى هكذا ما دمتَ حيا !

من تراه يدرك السر المريعـــا ؟
من تراه يرأب الشمل الصـديعا ؟
من تراه يبصر الروح الصريعـا ؟
ويرى القلب ، وقد حال دموعا !

إننى أشتاق أن أحيا سعيدا
أترك السـجن ، وأجتاز القيودا
وأرى عمرى ، وقد صار نشيدا
هائما فى الـكون ، يرتاد الوجودا

آه لـكنى أرى عمـــرىَ يفنى
وأرى قلبىَ فى الأسر مُعَنَّى
لست أدرى يا فؤادى لم جئنا ؟
كان أجدى لو بقينا حيث كنا

أين منى مجلسى بين الروابى ؟
فى مكان ضمَّ أهلى وصحابى
وبه الروح الذى يُروى شبابى
بالرحيق الحلو ، والشُّهد المذاب

ذلك الروح الذى يرجو إيابى
ويريق الدمع حزناً لاغترابى
كلما وافيته بعد الغياب
بالحنان السمح ينسينى عذابى

اين منى مجلسى عند الغدير ؟
وضياء الفجر كالماء النمير
والرُّبى نشوى بأنفاس العبير
وأنا أصغى إلى شدو الطيور

أين أيامك ياعهد الطفولَه ؟
ومغانيك النديات الجميله
وأنا أهفو إلى كل خميله
أقطف الزهر ، وما للزهر حيله

ذكريات الأمس ما أجملَها !
وهى تُلقِ فى حياتى ظلَّها
إن أحلام شبابى كلَّها
هى منها ، وإليها ، ولها

أين ؟ لاشئ سوى الحزن المُواتى !
وطيوفِ اليأس حَوْلى حائمات !
وأمانى القلب حيرى باكيات !
يا زمانى . . . هذه كل حياتى !

غربتى طالت عن المَغْنَى الرطيبِ
غربتى طالت عن الروح الحبيب
وشباب العمر يفنى فى المشيب
آه لو وافيته قبل المغيب

فتحدثتُ إليه بشجونى
وتشكَّيْتُ من الدهر الخؤون
ورأى السهد الذى حول جفونى
فسقانى الحب فى ظل السكون

غير أنى قد طوت عمرى القيودُ
والهوى فى مهجتى غضٌّ جديد
أترى الماضى الذى راح يعود ؟
فيغنِّى الحب ، والقلب يُعيد

قيدتنى ها هنا بؤسى الحياةِ
وهى تدرى أنها تقتل ذاتى
إننى طير حزين الأغنيات
يشتهى أفقا رحيب الجنبات

قيدتنى وهى تدرى أن عمـــرى
لم يُرد قيـــدا ، ولم يرضَ بأسر
وهى تدرى أن نفسى نفس حر
كضياء البدر يسرى حيث يسرى

أشتهى النور ، وأهفو للظـلال
وأحب العيش فى دنيا الخيـــالَ
وأرى الدنيا كما طافت ببـالى
وأنا نشوان من خمر الجمال

ليس هذا العيش ما تهواه نفسى
ليس هذا الكون ما طاف بحسى
هات كأسى ، إننى أنسيتُ كأسى !
علّهـــا تُغرق آلامى ويأسى

هات كأسى ، ثم دعنى أتمنَّى
فالمنى كم داعبتْ قـلبى فغنَّى
وإذا ارتاح إليهـــا واطمـــأنا
فانشر النوم علينا ... ثم دعنـــا

ابراهيم محمد نجا

محادثة

بين الأسد البريطانى والدب الروسى

الأسد : — ألا يحزنك أيها الدب أن ترى ما آل إليه أمرنا فى الغابة من خلاف بعد وفاق، وتباعد بعد تقارب، ومعسرة بعد ميسرة، وشك وحذر وتربص، بعد إيمان وثقة وتفاهم ساد بيننا فى أثناء عراكنا المشترك مع الوحش حتى أمكننا التغلب عليه فى النهاية؟ وجزى الله الشدائد كل خير؛ فقد علمتنا أن نكون معاً فى الحرب، ولعلها أن تعلمنا كيف نتفق فى السلم.

هيا أيها الدب! تعال إلى كلمة سواء بينى وبينك ألا نؤمن إلا بالحق والحرية والتعاون على نشر السلام فى ربوع الغابة جميعا.

الدب : — إننى أيها الأسد لست من فصيلتك، وليس بينى وبينك من المشاركة فى الصفات أو الصلات أو الطباع ما يساعد على إنشاء هذا التآلف الذى تنشده. وقد علّمنا آباؤنا وأجدادنا طوال القرنين الماضيين أن نكرهك ونمقتك ونكون على حذر دائم منك. وإذا كانت ظروف الحياة أو الموت قد أكرهتنا أن نشترك معاً فى الحرب الأخيرة زهاء أربع سنوات أو أكثر قليلا، فلا تنس أنك شننت علينا فى منتصف القرن الماضى حرباً شعواء يذكرها التاريخ باسم حرب القرم، نسبة إلى شبه الجزيرة التى دارت فيها رحى معاركها، وهى المكان نفسه الذى اعتصم فيه الوحش فى الحرب الأخيرة. وقد ألّبتم علينا فى تلك الحرب دول أوربا، فأرسلت قواتها تؤازر سلطان تركيا ضدنا وضد الصليب الذى طالما تشدقتم بدعوى نصرته. وكنا بمفردنا أمام عصابتكم تلك، فانهزمنا وقاسينا من أهوال الحرب ألواناً لا يشبهها إلا بعض ما قاسيناه أخيراً. وفى النهاية لم يسعنا سوى طلب الصلح، فأمليتم علينا شروطاً مذلة مالبثنا أن

تحررنا منها وأنتم راغمون . على أن هذا لم يكن آخر عهدكم بمناوأتنا ؛ فقد دابتم على الكيد لنا ومعارضة مصالحنا بكل ما أوتيتم من قوة .

أنسيت أيها الأسد أنكم أنتم الذين رفعوا سعر التنين اليابانى فى السوق الدولية بتحالفكم مع اليابان سنة ١٩٠٢ ، وأن هذه المحالفة كانت مقدمة للحرب الروسية اليابانية التى قضت على سمعتنا الحربية والبحرية وأذلتنا فى نظر الدول جميعاً . وأقسم أنه لولا هذه الهزيمة وظهور قوة ألمانيا البحرية منافسة لكم فى أوائل هذا القرن ، مارضيتم أن تكفوا عن مناوأتنا أو تأخذونا إلى جانبكم فى الحرب الماضية .

وهل يمكن أن ننسى ما قاسيناه على أيديكم أثر ثورتنا الكبرى وبعد الحرب العالمية الأولى من طرد وحرمان وإذلال وعدوان لا تزال آثاره ملموسة باقية إلى وقتنا هذا ؟ تلك حقائق قد وعاها العقل الروسى واختزنها فى أعماق أغواره فلا سبيل إلى نسيانها ألبتة .

لا أيها الأسد ! لاتحاول أن تخدعنا . إن التاريخ والسياسة قد تآمرا على إخفاق حركة التفاهم بيننا .

الأسد : — لاتنس أيها الدب أن الزمان قلّب ، وأن السياسة لاتسير على وتيرة واحدة ، وأن الحكيم من لاءم بين سياسته وحاجات زمانه ، واحتاط فى يومه لمستقبله . وإذا كانت الظروف فى الماضى قد أكرهتنا على محاربتكم ذات مرة فقد علمتنا الحرب الأخيرة فائدة التعاون بيننا وبينكم . ولا إخالك تنكر مدى المساعدة التى قدّمناها لك أنا وابن عمى الأمريكى ضد الوحش الذى أنشب أظفاره فى عنقك ، وكاد يمزق جسمك أشلاء .

الدب : — تلك أكذوبة لم نسمع بها ولم نقرأ عنها . إنما قرأنا وتحدثت الركبان أن الوحش قد طاردكم حتى طردكم من أوربا ، وأنزل بكم فى دنكرك هزيمة منكرة لو أنه تابعها إلى عرينكم لبادت فصيلتكم ولدمرت جزيرتكم تدميرا .

الأسد : — ليس من ذنبنا أن تستهزئ بكم حكومتكم وصحافتكم ، فتخفى عنكم الحقائق الواقعة ، ولا تطلعكم من حقائق الموقف الدولى إلا على ما يوافق

أغراض زعمائكم . أما قولك إن الوحش قد هدد فصيلتنا بالانقراض فمردود عليك ؛ فقد كان موقفه معنا مجرد تهديد أجوف . أما موقفه معكم فكان حقيقة واقعة ؛ فقد داس أراضيكم وتحكم فى مواردكم وأخضع لسلطانه جزءاً من بلادكم . ولو قد استعمل الوحش ضدكم مخلبيه الأماميين والخلفيين جميعاً لفتك بكم فتكا ذريعاً ؛ ولكننا شغلناه عنكم فلم ينلكم منه إلا مخاب أو مخلبان فنجوتم .

الدب :— إذا كنت تقصد بقولك تلك الأجزاء من الأرض المقفرة التى غزاها فقد كان ذلك حقًا ، ولكن كان باختيارنا وطوع إرادتنا حين ارتددنا عنها وتركناها يمسحها جيئة وذهاباً أكثر من مرة . ولكنه لم يستطع أن يغزو قلب الروسى قط . فليس فى العالم كله مثل الروسى فى صدق العزيمة وقوة التصميم والاعتماد على النفس فى أوقات الشدة . وأظن أن العالم سيتحدث جيلا بعد جيل عن بطولتنا فى موقفنا إزاء الوحش ؛ فقد قمنا بأعظم مجهود عرفه التاريخ فى سبيل التحرر ، وكسر شوكة ذلك الوحش الجبار الذى فرض كلمته على الغابة كلها قرابة خمسة أعوام .

الأسد :— اذكر أنك لم تكن وحدك ضد الوحش .

الدب :— أتريد أن تقول إنه لولا مساعدتكم لوهن موقف روسيا أمامه . ألا فلتعلم أن الماديات وحدها لا تكسب الحرب ، وإنما المعول على القوة الروحية وعلى الأعصاب الفولاذية التى يتحصن بها الشعب جميعه فى كفاحه وتصميمه . وإنى لجد نخور بما أظهرته حكومتى من حسن تدبير وبعد نظر ؛ فقد نفذنا منذ سنة ١٩٢٩ مشروع السنوات الخمس مرتين ، واستطعنا بتضحياتنا أن نحول روسيا الزراعية إلى بلاد صناعية هائلة ، فأسسنا المصانع الكبرى للإنتاج الحربى والاقتصادى ، وضللنا خبراءكم وخبراءهم وأعوانكم وأعوانهم ، وأخفينا مصانعنا فى بطون جبال الأورال بمنأى عن الأنظار وبمأمن من العدو . ولولا إنتاج هذه المصانع السرية ماأجدت علينامساعداتكم شيئاً ولا أغنتنا فتيلا . ولقد توقعنا أنكم سترتبكون فى سياستكم وستخلطون وتتخبطون ، وأن أنفسكم الأمارة بالسوء ستوحى إليكم أن تغدروا بنا فتصرفوا أنظار الوحش عنكم إلينا وتوجهوه

ضدنا ، ينفرد بنا ، وإذ ذاك يحلو لكم أن تروا أعداءكم يتطاحنون وأنتم بمنجاة . ولا بد أن تكونوا قد قدرتم أن ينتصر الوحش علينا لفرط غفلتكم وظنكم به القوة ، وحينئذ ينجو العالم مما تسمونه شر الشيوعية ، ويخرج الوحش النازى منهوك القوى فلا يجسر على مهاجمتكم . ألم تهللوا فى سنة ١٩٣٨ لاتفاق ميونيخ ؟ ألم تدق أجراس الكنائس فى بلادكم شكراً لله على خلاصكم من الوحش ؟ فهلا فكرتم حينذاك فى مصيرنا ! وهلا دعوتمونا إلى مشاركتكم ! ألم نكن خليقين بمقعد خامس معكم إلى جانب فرنسا وإيطاليا ؟

إن الأمر لواضح وضوح الشمس . لقد قررتم إنقاذ جلودكم ؛ لتدعونا طعما شهيا للوحش .

الأسد :— الغلطة الكبرى التى ترتكبونها الآن هى التى ارتكبها الوحش من قبلكم . إنكم تظنون حبنا للسلام ضعفا ، وتحسبون رغبتنا فى المسالمة جبناً . إننا قوم طبعنا على تعشق الحرية الفردية ، وإنا لنمقت الحرب أشد المقت ، ونكره التسلط فى كل مظاهره . فنحن لا ندين كغيرنا بالخدمة العسكرية الإجبارية ولا نبرر قيام الجيوش والقواد العسكريين إلا فى الظروف القصوى . لذلك تروننا نتعثر ونرتبك ؛ وقد تصيبنا الهزيمة فى أول الأمر كلما اشتركنا فى حرب مفاجئة ؛ حتى إذا تأملنا فى جو الحرب ومرنت عليه نفوسنا وعقولنا وصممت عليه عزيمتنا وإرادتنا ، بذلنا أقواتنا وضحينا بأرزاقنا وأعمالنا وسخّرنا للحرب بحوثنا وإنتاجنا ومعاملنا ومصانعنا ، وكل ما نملك من قوى مادية ومعنوية ؛ فإذا نحن أمة قد خلقت خلقاً جديداً . وما هى إلا فترة تطول أو تقصر حتى يتحول اليأس بأساً ، وتستحيل الهزيمة نصراً مبيناً .

لذلك أؤكد لك أيها الصديق أننا كنا صادقين فى ميونيخ ، مخلصين فى حب السلام إخلاصاً دفعنا إلى أن نبذل فى سبيله من عزتنا وكبريائنا بل من شرفنا فى نظر أصدقائنا .

الدب :— ولماذا كل هذه التعمية وهذا التضليل ؟ قل بالصراحة إنكم لم تكونوا مستعدين للحرب ، وإنكم آثرتم شراء السلم فى سنة ١٩٣٨ بأى ثمن حتى تأخذوا أهبتكم للحرب ، وتحاولوا اللحاق بالوحش الذى سبقكم وتفوّق عليكم

درجات فى استعداداته . قل بالصراحة إن نفوسكم كانت خائرة ، وإن قلوبكم قد ملئت رعباً من الوحش . لقد كنا نعلم عنكم هذا وأكثر منه ؛ ولذلك لم نلق بالاً إلى بعثتكم السياسية حين بعثتموها إلينا فى أحرج الساعات تطلبون بها معونتنا .

الأسد :— لا . بل نطلب بها محالفتكم محالفة حرة ؛ لندرأ بالجهد المشترك خطر الوحش .

الدب :— حقـًا إنكم لدهاة فى السياسة ، ولديكم معين لاينضب من المصطلحات التى تكسون بها أغراضكم ؛ فتارة تسمونها محالفة ومعاهدة ، وطوراً تسمونها انتدابا أو وصاية ، وحينا تسمونها مجالس أمن أو دفاع مشترك — وكلها فى الحقيقة أغطية شفافة تحاولون بها أن تستروا أجساد أنانيتكم العارية .

لقد أردتم بمحالفتنا أن تتخذونا مخلب القط تلتقطون به من النار ثمر القسطل ، فتعرضوننا لضربة العدو ودفعته الأولى . وماذا كان يهمكم من أمر انتصارنا أو هزيمتنا وأنتم فى الغرب ونحن فى الشرق ؟ !

لذلك قابلناكم بسلاح من نوع سلاحكم ، فماطلناكم وأغويناكم ، وفتحنا باب المفاوضات مع العدو ، ووضعنا على رأس خارجيتنا وزيراً جديداً هو مولوتوف الذى عرفتموه اليوم جيداً ، ليدير دفة السياسة الجديدة . وكانت طَلِبَةُ الوحش منا أن نلزم الحيدة إذا مانشبت الحرب ، وهى طلبة فى الغاية من السهولة إذا قيست بما عرضتموه علينا ، فقبلنا محالفته ورددنا كيدكم إلى نحوركم . وانتفعنا بمحالفة الوحش وهو منتش بخمرة النصر ، فضممنا دول البلطيق التى كانت جزءا لا يتجزأ من أرض الوطن قبل الحرب العالمية الأولى ، واسترددنا بسارابيا من رومانيا ، وعدنا إلى حدودنا القديمة فى بولندة ، وحاربنا فنلندة التى كانت تهدد لنينجراد . ولما آنسنا من الوحش الغدر والشروع فى الانقضاض علينا ، دبرنا أمورنا سرًا فجهزنا معاملنا ، وعقدنا مع التنين اليابانى معاهدة الحيدة إذا هوجمنا ، فكانت ضربة سياسية بارعة أفسدت على الوحش مارسمه من خطط لاغتيالنا .

أرأيت أيها الأسد أن الدب لايقل عنك فى براعته السياسية ، وإنما الفرق بينى وبينك أنك خبيث وأنى صريح .

الأسد : — علم الله أنى لست خبيثا ، ولا أضمر الشر لأحد فى العالم . والخبث من شيم الضعفاء الذين تنقصهم الخبرة وحسن سياسة الأمور . وما كان نجاحى وما بلغته من مكانة فى الغابة نتيجة لمكر أو خبث وُصِمتُ به ظلما ، ولكن الظروف واتتنى ، وخدمتنى المصادفات السعيدة فى مختلف أرجاء الغابة . وإنى لأكره أن أتكلم عن نفسى ، ولكن مادمت تدفعنى إلى ذلك فإنى أقول لك : إن الحظ + الشجاعة + الأخلاق = النجاح . فاحفظ هذه المعادلة .

وإذا كنت قد اخطأت كسائر البشر فى تقدير موقفكم قبيل الحرب الأخيرة فاعلم أنى وسكان الغابة جميعا كنا نعتقد جازمين أن ثورتكم قد هدّت من كيانكم وضعضعت نظامكم ، وقللت من حماسة رجالكم ، وأنكم إذا جد الجد لا تقوون على الوقوف أمام الوحش طويلا ، فلا يلبث أن يكتسحكم كما اكتسح غيركم من قبل .

ومن ذا الذى كان يظن أن نظاما أو تجربة كالبلشفية تستطيع أن تنتج مثل هذه المعجزة ؟

الدب : — يلوح لى أنك تنتقص فضل البلشفية وتسخر منها وتظن بها الظنون . وليس هذا بمستغرب منك ؛ فدولتكم تقوم على سيادة أصحاب رءوس الأموال وإن كنتم تسمونها ديمقراطية .

الأسد : — ودولتك تقوم على الدكتاتورية أو الفاشية ، وإن كنتم تسمونها حكومة الشعب .

الدب : — أتقول الفاشية ؟ هذه سبة ، ولست أسمح لك مطلقا أن تنتقص من قدر حكومتى ، وسأعلمك كيف تحترم . . .

وهنا حاول الدب أن يمد مخلبه ، فقام الأسد غاضبا وقال :

الأسد : — كنت أظن أن محادثتنا ستنتهى كما بدأت فى اتزان وروية وحسن قصد متبادل . فأمّا وقد تقمصتك طباع الوحش الذى هزمناه ، فإنى ذاهب لعرض أمرى وأمرك على مجلس الغابة .

الدب :— إنى آسف . . .

الأسد :— حبذا هذه اللهجة ! ولست أدرى لماذا لا نصطنعها فى أثناء مناقشاتنا فى المؤتمرات واللجان التى نعقدها .

الدب :— دع العواء والزئير للمؤتمرات ، ولنكن الآن فى هدنة علمية وإلى اللقاء .

محمد رفعت

عود إلى مكياڤللى وأميره

فى كل وجهة ، وفى كل طريق من الحياة العامة فى أوربا — وفى غيرها من بلاد العالم — نجد اسم مكياڤللى مذكوراً ، فى الغالب ، فى معرض السوء . فإذا رأينا سياسة الجشع والأثرة تسير عليها الدول ، وصفنا هذه السياسة بأنها مكياڤللية . وإذا رأينا الدس والوقيعة قلنا إن هذه سياسة مكياڤللى . وهكذا صار اسم هذا السياسى والأديب علماً على كل ما هو قبيح وعلى كل سيئات الحكم ومثالب النظم . وهكذا اكتسب هذا الرجل الذى عاش فى القرن السادس عشر ، وفى عصر النهضة فى إيطاليا ، شهرة غريبة على مر الأيام . ويغلب على الظن أنها شهرة باقية ما بقيت فى العالم أمم وما بقى للدول حكام ، وستظل هذه الشهرة قائمة وباقية بقاء النظم السياسية نفسها فى العالم .

لكن هل هذا الرجل جدير فى الواقع بكل هذه المثالب ؟ وهل هو رجل سوء حقًّا ؟ إن من يدرس حياة مكياڤللى وخدماته العامة للمدينة التى نشأ وعاش فيها ، مدينة فيرنزى — فلورنسا — لا بد أن يعلم حق العلم بأنه لم يكن رجل سوء ؛ فخدماته لتلك الدويلة الإيطالية الصغيرة ، وكانت إيطاليا عندئذ منقسمة إلى دويلات متحالفة ومتنافسة ، جديرة بكل تقدير ؛ وكان رجلا ذا ذهن متفوق ممتاز ، ومع ذلك ذاعت له هذه الشهرة السيئة لكتاب واحد من كتبه وضعه فى عزلته بعد أن ترك منصبه ، ورأى السلامة فى أن يقيم بضيعة صغيرة له ببلدة سان كاشيانو فى ضواحى فلورنسا . وقد اضطر مكياڤللى إلى هجر العاصمة بعد أن عاد الأمر فيها إلى أسرة مديتشى ، وتشتت أعضاء الحكومة التى كان يخدمها . ووضع هذا الكتاب بعد أن خدم دولته زهاء ثلاثين سنة خدمة جليلة ، وشاهد أحداث تلك الأيام الحافلة بالحوادث ، وعاشر الكثيرين من أبرز رجال عصره الحافل بالعظماء .

والواقع أن العصر الذى عاش فيه مكياڤللى كان عصراً عجيباً ، والمدينة التى

نشأ فيها كانت مدينة عجيبة[1] ؛ فقد كانت الدويلة التى عاصمتها فلورنسا من أهم الدويلات الإيطالية وأغناها ، وأكثرها تأثراً بالنهضة الأوربية التى عمت بلاد إيطاليا ثم بلاد أوربا فى ذلك العصر ، على أثر استيلاء الأتراك على القسطنطينية ، وهروب العلماء البيزنطيين بما يحملونه من كتب ورثوها عن اليونان إلى البلاد الإيطالية . هذا ما يقوله المؤرخون عادة وإن كانت عوامل النهضة الأوربية ، وبخاصة فى إيطاليا ، أبعد مدى من هذا التاريخ ، وهى فى فلورنسا أبعد مدى من غيرها من البلاد . ألم يعش فى تلك المدينة العجيبة ، ويتجول فى أرجائها الشاعر دانتى قبل ذلك بقرنين ؟

ولد مكيافللى فى مدينة فلورنسا فى عصر من أزهر عصورها ، هو عصر لورنزو دى مديتشى[2] ، الذى كان أميرها وحاكمها فعلا ، وبالاسم فقط يعتبر المواطن الأول فى خدمة تلك الجمهورية ، وهو الذى بثرائه ومساهمته جمع العلماء والأدباء والمصورين والنحاتين وجعل مدينته فخر المدن الإيطالية ومركز الترف والرخاء ، وجعل منها مثال الحضارة بخيرها وشرها . ولكن ما لبثت هذه المدينة بعد موته أن اتجهت وجهة أخرى .

فقد عاش فى زمن لورنزو برز فى الحياة راهب اسمه سافونارولا[3] ، رأى تلك الحياة العابثة التى يحياها الأثرياء فى فلورنسا ، ورأى البذخ والمجون وتقليد العامة لهم ، فبدأ صوته يرتفع فى الكنائس داعياً الناس إلى نبذ الدنيا والعمل للآخرة ، مذكراً بالثواب منذراً بالعقاب ، وكان الناس يستمعون إلى عظاته فيبكون . فلقد عرف هذا الراهب القصير القامة الحليق الوجه ، كيف يجذب قلوبهم ويستولى على عقولهم . ولم يلبث الناس أن رأوا بعد قليل من الزمن هذا الراهب الصغير يستولى على امور المدينة ويحركها بين يديه ويقودها إلى طريق الخير ، خير الآخرة لاخير الدنيا ، فإذا مدينة الترف تنبذ الترف ، وإذا مدينة الحضارة تعود إلى التقشف ، وإذا المدينة تطرد أثرياءها وعيون أسرها ، وتنقاد المواعظ سافونارولا وسحر حديثه ، وإذا المبشر يصير حاكما بأمره فى أمور الدنيا بالذات ، تلك التى يندد بها ، وتسير الأمور فإذا به يصطدم مع البابا اسكندر السادس

---

(١) ولد نقولا مكيافللى فى ٣ مايو سنة ١٤٦٩ .
(٢) لورنزو دى مديتشى ١٤٤٨ — ١٤٩٢ .
(٣) ولد سافونارولا سنة ١٤٥٢ وأحرق سنة ١٤٩٨ .

صاحب السلطان الدينى الأكبر ويزداد بينهما الجفاء ، فيوقع عليه البابا وعلى مدينته عقوبة الحرمان الرهيبة ، فيقوى خصوم ساڤونارولا ومناهضوه ، وينفضّ الشعب من حوله ، ويسير هو حثيثا إلى نهاية عنيفة ، شأن مئات غيره من زعماء تلك البلاد المتقلبة ، أرادوا الخير وعملوا له ، فانتهت الحياة بهم إلى نهاية محزنة .

لم يعد آل مديتشى بعد نهاية ساڤونارولا ، بل أنشئت حكومة مجلس العشرة وهى التى شغل فيها الشاب مكياڤللى منصب سكرتير هذا المجلس .

خدم مكياڤللى هذه الجمهورية منذ تأليفها خير خدمة ، وعرف فضله فى المهمات التى تحتاج إلى لباقة وكياسة ونظر بعيد ، وكان يرسل إلى البلاد المختلفة ، فسافر إلى روما مرات عدة لتسوية خلافات كانت قائمة بين الجمهورية وبين الحكومة الدينية للمدينة الخالدة . وظل مكياڤللى فى خدمة مجلس العشرة إلى أن عاد آل مديتشى فتغلبوا مرة أخرى وطاردوا الجمهورية ورجالها . وحينئذ انقلب رجل النشاط والحركة والدهاء والسياسة ، رجل فكر ورجل قلم ، فأخذ يكتب ملاحظاته ويدون خواطره فى كتاب « الأمير » أولاً ، وهو كتاب يصف فيه مايجب أن يكون عليه الأمير ، وما يجب أن يتصف به من صفات حتى يكون ناجحاً محققاً لمراميه وأغراضه . وقبل أن ينفض يديه من هذا الكتاب ابتدأ كتاب « تعليقات على الحوليات العشر الأولى لتيتو ليڤيو [1] » وفيه يصف الجمهورية ومزاياها .

أما كتاب الأمير فقد اشتهر فى جميع أنحاء العالم ، وصار الأساس لعلم السياسة . وهو كتاب عجيب فى آرائه وأغراضه وتأثيره ؛ إذ لو استعرضنا أعمال الحكام من عصر مكياڤللى حتى الآن — ولا نقصد الأمراء بالذات ، بل نقصد الهيئة الحاكمة المسئولة ، فالأمراء فى العصور الحديثة لايحكمون — لوجدنا أن الدول لم تخرج فى توطيد سلطانها ومعاملاتها بوجه عام عما جاء فى هذا الكتاب ؛ فهى لاتزال تسير على مبادئه ، تلك المبادىء السياسية التى فصل فصلا تاما بينها وبين الأخلاق ، فجلبت لصاحبها السمعة الشنيعة .

لنستعرض قليلا ما جاء فيه : إنه يبتدىء بالكلام عن نشأة الإمارات

---

(١) تيتو ليڤيو المؤرخ الرومانى الشهير (٥٩ — ١٩ ق . م .)

من وراثية ومحدثة مكتسبة ، ثم يصف كلا من النوعين ، ويأخذ فى بيان طريقة اكتساب الإمارات سواء أكان اكتسابها بالسلاح أم بالمصادفة الحسنة ، ويتكلم عن الذين اكتسبوا الإمارة بطرق الشر ، وكيف تقاس قوة الإمارات ، وما هى الإمارات الدينية ، وأنواع الجيوش والمرتزقة منهم .

ثم يأخذ فى الكلام عن الأمراء وفن الحرب ، وما يحمد الأمراء من أجله وما يذمون عليه ، وعن جود الأمير وشحه ، وعن قسوته وحلمه ، وهل الخير له أن يُحَبَّ أم أن يُخشى ، وكيف يجب أن يحافظ الأمراء على كلمتهم ويتجنبوا الكراهية والاحتقار ، وقيمة الحصون للأمير ، وكيفية الحصول على الشهرة . ثم يتكلم عن كاتمى أسرار الأمير وعن تجنب المرائين ، ولماذا خسر أمراء إيطاليا بلادهم ، وضرورة تخليص إيطاليا من المتوحشين .

وقد يرى مكياڤللى فى أسوأ حالاته ، على الأقل فى هذا العصر ، عندما يسائل مثلا : هل الأفضل أن يُحب الأمير أم أن يُخشى ؟ ثم يجيب : لعل من المرغوب فيه أن يجمع الإنسان بينهما . ولما كان من العسير جمعهما لدى شخص واحد ، فمن الأسلم للأمير أن يخشى بدلا من أن يحب ما دام مضطرا إلى النزول عن أحد الأمرين . فالناس بوجه عام منكرون للجميل متقلبون خونة جبناء طماعون ، وهم معك ما دمت ناجحاً ، ويبذلون لك دمهم وأموالهم وحياتهم ما لم تكن لك حاجة إليهم ، فإذا احتجت إليهم انقلبوا عليك .

وفى رأيه أن كل إنسان يؤمن بأن من فضائل الأمير أن يكون وفيا وأن يعيش مستقيما بعيداً عن الخداع ، ومع ذلك تثبت تجاربنا أن الأمراء الذين أتوا أعمالا كبيرة لم يأبهوا كثيراً لإراقة الدماء ، وعرفوا كيف يحتالون على خداع الرجال ، وفى آخر الأمر انقلبوا على أولئك الذين وثقوا بهم . ويجب أن تعلم أن هنالك طريقين للنضال : أحدهما القانون ، والآخر القوة . والأول خاص بالناس والآخر بالحيوان . ولكن لما كانت الطريقة الأولى غير كافية فى أكثر الأحيان وجب الالتجاء إلى الأخرى . لذلك كان من الضرورى أن يعرف الأمير كيف يجمع بين الإنسان والحيوان . . . والأمير إذ يضطر لمسلك الوحوش يجب أن يسلك مسلك الأسود والثعالب . فالأسد لا يستطيع أن يحمى نفسه من الشراك ، والثعلب لا يستطيع أن يحمى نفسه من الذئاب . . . ولكن من الضرورى

أن يعرف جيداً كيف يخفى هذه الصفة ، وكيف يكون خداعاً ومرائياً . ففى الناس بساطة كبيرة ، وفيهم شهوة للوصول إلى رغباتهم ، فمن يحاول أن يخدع فلا بد أنه واجد مخدوعاً . . . ليس من الواجب أن يكون الأمير حائزاً لجميع المزايا ، ولكن من الضرورى جدا أن يظهر بمظهر الحائز لها .

فى هذه الأقوال وفى أمثالها وجد الناس فى مكياڤللى سياسة شيطانية ، وأخذوا يلومونه ويرون أن ما جاء به مخالف للفضائل ولواقع الأمور . ولو سار الأمراء على مذهبه لضلوا ؛ ولكن مكياڤللى وجد الكثيرين من المدافعين عنه وعن آرائه .

أما الدفاع عن آرائه فيقوم على أقوال من الكتاب نفسه ، فهو ينطوى على آراء حكيمة وأحياناً نبيلة لا غنى عنها للأمير أو الحاكم ، مثل قوله : « لا أريد أن أترك جانباً هاماً من هذا الموضوع ، فهو خطر لا يمكن حماية الأمراء منه إلا فى صعوبة إذا كانوا شديدى الحذر نافذى البصيرة هو خطر المرائين الذين يمتلئ بهم بلاط الملوك ؛ لأن الناس يتساهلون فى أمورهم ويخدعون بطريقة ما ، فلا تسهل وقايتهم من هذا الوباء ، وإذا حاولوا ذلك تعرضوا لخطر الوقوع فى الاحتقار . ولا سبيل لحماية أنفسهم من المداهنين إلا بتفهيم الناس أن إخبارهم بالصدق لا يضايقهم ، ولكن إذا ما أخبر كل واحد الأمير بالصدق ففى ذلك ما يقضى على الاحترام .

« لذلك كان على الأمير أن يجد سبيلا ثالثاً ، هو أن يصطفى العقلاء فى دولته ويسمح لهم وحدهم بحرية قول الصدق له ، وذلك فيما يسأل عنه وحده لا فى أمور أخرى . »

وفى صفحات عدة من كتاب الأمير ، وفى صفحات أكثر من كتابه المسمى « تعليقات على الحوليات العشر الأولى من تيتو ليڤو » تجد فى مكياڤللى النظرة الحكيمة المجردة ، ولكنها تدل أكثر من ذلك على روح الوطنية ، والأمل فى أن يجتمع شمل الدويلات الإيطالية فتؤلف وحدة كبيرة إيطالية ، تكون فى مركزها وخطرها مثل الدولة الرومانية فى أوج مجدها . هذا هو الحلم الذى كان يحلم به ، ولا يزال يحلم به دائما أبناء إيطاليا المفكرون ، وهذا هو السبب الذى أدّى برجلٍ مثل مكياڤللى فى سلامة تفكيره أن يتخذ من طاغية

مثل شيزارى بورجيا ابن البابا اسكندر السادس[1] مثالا للأمير الذى يعمل لنجاح فى أغراضه . ذلك أن شيزارى بورجيا مع كل ما سجله له التاريخ من فظائع ، كان طامحاً إلى أن يجمع إيطاليافى ظل سلطان واحد، ويعيد إليها وحدتها ويمنع عنها سلطة الفرنسيين والألمان الذين يسميهم الإيطاليون الوطنيون بالبرابرة ، وذلك بعد أن اقتطع له أبوه من أملاك الكنيسة ملكا .

عرف مكياڤللى شيزارى بورجيا وخالطه حين أرسله مجلس العشرة فى بعثة سياسية ، وعرف مطامحه وآماله ، فرأى فيه قبل كل شيء الأمير الذى يحقق آمال نفسه وآمال كل مثقف فى إيطاليا . ثم سارت الحوادث سيرها ومات البابا اسكندر السادس على قوته فى وقت لم تكن تنتظر فيه وفاته ، وصادف أن أقعد المرض شيزارى فلم يستطع أن يتحكم فى انتخاب البابا الجديد ، فانتخب البابا پيوس الثالث الرقيق الحاشية ، ولكنه لم يعمر غير أشهر ثم مات ، وعلى أثر وفاته انتخب البابا يوليوس الثانى العظيم العنيف محب الفنون المكافح المقاتل ، عدو آل بورجيا ، فكانت النهاية التى أدت بشيزارى إلى الفرار ثم إلى الاعتقال فى إسبانيا ثم الهروب ثم الموت مقاتلا فى بلاد بعيدة .

كل هذه الأمور يستخلص منها سكرتير مجلس العشرة العبر وهو بمنفاه فى داره الصغيرة حيث ينفذ إلى مبادىء الأمور وأصولها فى السياسة بعد أن مارس السياسة لاممارسة المضطر بل ممارسة الرجل الذى خلق لهذا العمل . وهو إذ انقطعت الأسباب بينه وبين السياسة إلى غير رجعة وإلى غير أمل ، بل ربما لم تنقطع عنه أسباب الأمل الذى يرى تحقيقه بعيداً ، يكتب فى عبارته الهادئة المنحوتة فى جلاء كنحت التماثيل اليونانية فى صفائها وإبانتها وتحديدها ، فيستخلص خلاصة الأشياء التى إن طبقتها فى كل زمن تجد الأمراء أو قل ذوى الأمر يسيرون عليها أرادوا ذلك أو لم يريدوا .

لك أن تصخب وتقول إن طبيعة البشرية خير من ذلك ، ولكن تمعن قليلا فى أمور هذا العالم الحديث الذى لا يعرف الأمراء وإنما يعرف الدول وقس مسلك هذه الدول بمعيار من المعايير التى وضعها مكياڤللى : إن هنالك طريقين للنضال ، أحدهما القانون والآخر القوة ، والأول خاص بالإنسان والآخر

(١) البابا اسكندر السادس ولد سنة ١٤٣١ باسبانيا وتولى عرش البابوية من ١٤٩٢ — ١٥٠٣ .

بالحيوان ، ولـكن لما كانت الطريقة الأولى غير كافية فى أكثر الأحيان وجب الالتجاء إلى الأخرى ؛ لذلك يجب أن يعرف الأمير كيف يجمع بين الإنسان والحيوان — عبارة مثيرة ، ولـكن أليس يسير عليها أصحاب السلطان حتى اليوم ؟

قد يكون فى كأس الـكاتب شىء كبير من المرارة ، والواقع أنه لم يخلد إلى هدوء الضيعة فى سهولة . وتستطيع أن تقرأ وصفه البديع لحياته فى رسالة كتبها فى الزمن الذى كان يحرر فيه كتابه « الأمير » لتعلم من أمره كثيرا ؛ فقد كان يستيقظ مع الفجر فى كل يوم ، فيرتدى ثياب الفلاحين ويذهب إلى عمله فى ضيعته وحساباته إلى المساء . فإذا كان الغروب قصد إلى المقهى حيث يجلس بين الفـلاحين ليلعب الورق ويضحك ويصخب ويشاحن ، فإذا قضى هزيعا من الليل قصد إلى داره وخلع ثيابه الخشنة وارتدى ثيابا أنيقة هى التى كان يرتديها حين يقوم بعمله ويقابل الأمراء والحـكام ، وفى هذه الثياب يجلس إلى كتبه وأوراقه ومحبرته ليعاشر قوما مهذبين، كما يقول .

كان سكرتير مجلس العشرة فى السنوات الأخيرة من حياته يأمل العودة إلى أعماله الإدارية والسياسية . وقد لاح له هذا الأمل قريبا ؛ إذ طرد آل مديتشى مرة أخرى . وفى هذه اللحظة عاجلته المنية وترك تراثه تلك الـكتب — وفى مقدمتها كتابه الخالد عن الأمير — التى هى جديرة بالدرس فى كل وقت ، والتى تحتوى على حقائق تعتبر وستعتبر دائما أسس السياسة الحديثة .

حسن محمود

طريق الهجرتين والعقد الالهى

هجرة إلى الله وهجرة إلى الرسول . فقد قال تعالى فى كتابه العزيز : « ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله . »

ألّف الإمام ابن القيم الجوزية المتوفى عام ٧٥١ هـ فى هذا المعنى كتابا جعل عنوانه « طريق الهجرتين وباب السعادتين » بيّن فيه أن للعبد فى كل وقت هجرتين ، هجرة إلى الله بالطلب والمحبة والعبودية والتوكل والإنابة والتسليم والتفويض والخوف والرجاء والإقبال عليه ، والافتقار فى كل نفس إليه . وهجرة إلى رسوله فى حركاته وسكناته الظاهرة والباطنة بحيث تكون موافقة لشرعه .

ولابن القيم كتب أخرى كثيرة ، غير أن هذا أفضلها ؛ لأنه يصور رأيه فيما يجب أن يكون عليه سلوك الإنسان فى هذه الدنيا ، وفى صلة المخلوق بالخالق ، من الفقر إليه والغنى به ، وفى الخير والشر وكيف يكون الخير من الله والشر من أنفسنا ، وفى القضاء والقدر ، وفى نفاة التعليل والحكمة والأسباب ، وفى الإرادة الإنسانية والمحبة .

وهذه كلها مسائل دقيقة خطيرة شغلت بال المسلمين منذ فجر الإسلام ، وهى شاغلة لأفكار المؤمنين بوجود الله من أصحاب الأديان ، بل هى شاغلة لأذهان الكفار والمشركين مادام المجتمع الإنسانى فيه الخير والشر والعدل والظلم .

ولقد حاول الفلاسفة والمتكلمون والصوفية حل هذه المشكلات كل فرقة حسب منهجها ومذهبها ، فاختلفوا فى ذلك اختلافا كبيراً . وخُيّل إلى أصحاب هذه المذاهب أنهم ملكوا عنان البيان ، واختصوا بالمنطق والبرهان ، فسموا أنفسهم الخاصة وسائر أفراد المسلمين دهماء وعوامّ ، وأطلقوا على الجمهور أهل السنة ، والإسلام الصحيح لايعرف خاصة وعامة ، أو أرستقراطية فكرية واجتماعية .

وتصدّى من أهل السنة فى كل عصر رجال يجادلون الفلاسفة والمتكلمين

والصوفية ، ولكن أبرزهم شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم الجوزية ، ومثلهما فى تاريخ الإسلام مثل سقراط وتلميذه أفلاطون فى تاريخ الفلسفة ، كلاهما لاينفصل عن صاحبه .

أول مسألة يحسن تقريرها فى هذا الصدد علة احتياج العالم إلى الله . وقد بادر ابن القيم بعد خطبة الكتاب بنفى مقالة الفلاسفة والمتكلمين وإثبات دليل آخر غير دليليهما ، فقال : ولهذا كان الصواب فى مسألة علة احتياج العالم إلى الرب سبحانه غير القولين اللذين تذكرهما الفلاسفة والمتكلمون ؛ فإن الفلاسفة قالوا : علة الحاجة الإمكان ، والمتكلمون قالوا : علة الحاجة الحدوث . والصواب أن الإمكان والحدوث متلازمان ، وكلاهما دليل الحاجة والافتقار . وفقر العالم إلى الله تعالى أمر ذاتى لا يعلل ، فهو فقير بذاته إلى ربه الغنى بذاته .

ثم مضى بعد ذلك فلم يتعرض للفلاسفة والمتكلمين الذين عُنِى بالرد عليهم فى بعض كتبه الأخرى . ولكنه اهتم بالصوفية ؛ إذ أن مذهبهم يرمى إلى الوصول بل الاتصال بالله ، وهو أليق المذاهب بالهجرة إليه ، واصطلاحاتهم فى ذلك تنم عليهم ، فهم يصفون المتصوف بالسالك والمسافر والسائر ، إلى آخر هذه النعوت المميزة لأرباب السلوك وأصحاب الطرق .

والصوفية أصناف ، منهم المعتدلون ومنهم المتطرفون ، ولهم رموز واصطلاحات لايفهمها إلا المريدون . ولقد رثى ابن القيم للصوفى الذى يحمله التصوف إلى ولوج باب الحلول، فيقول : «سبحانى أو ما فى الجبة إلا الله . ونحو هذا من الشطحات التى نهايتها أن يغفر له ، ويعذر لسكره ، وعدم تمييزه فى تلك الحال . » والحلاج هو المقصود من هذا القول : ما فى الجبة إلا الله .

يطعن ابن القيم التصوف فى الصميم، ويبطل غاياتهم، كالقول بالحلول والاتحاد والفناء ، ويسفه طريقهم ، ويناقش أئمتهم البارزين . أورد رأيهم فى الفقر وهو باب السعادة وبداية الطريق . قال أبو المظفر الفريسى : الفقير هو الذى لايكون له إلى الله حاجة . وعقب القشيرى على هذا القول بأن صاحبه يشير إلى سقوط المطالبات ، وانتفاء الاختيارات ، والرضا بما يجريه الحق سبحانه . واعترض ابن القيم عليهما فقال : « إنه كلام مستدرك خطأ ؛ فإن حاجات العبد إلى الله بعدد الأنفاس . . . وأما أن يقال لا حاجة له إلى الله فشطح قبيح . »

الواقع أن مرد الخلاف بين أهل السنة والصوفية فى طريقة التفكير. المتصوفة يحكمون الذوق، ويدركون الأشياء بعين القلب لا بنور العقل. وأهل السنة يجعلون الشرع قبلتهم، ويتبعون الكتاب والسنة، وينفذون إلى الحقائق «بالعقل الصريح والفطرة الكاملة». ولابن تيمية كتاب اسمه «موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح» رد فيه على مزاعم الطاعنين فى أهل السنة. وقال ابن القيم: إن تحكيم الصوفية مجرد الذوق، وجعل حكم ذلك الذوق كليًّا عاما، فهذا ونحوه من مثارات الغلط.

ونحن نوافق أهل السنّة فى هذا الرأى الذى يجمع بين النقل والعقل ويوفق بينهما، ويجعل المعول على العقل فى تفسير النصوص والنظر إلى الأمور. والرجوع إلى العقل الصريح هو أول لبنة فى بناء مذهب ديكارت من الفلاسفة المحدثين، وهو القائل: «العقل الصريح le bon sens هو أكثر الأشياء قسمة بين الناس بالتساوى.»

أما الذوق وهو طريق الصوفية فهو منهج لا يتفق مع طبيعة الحياة، ولا يفسر كل شىء، ولا يتفق عليه جميع الناس، ولا تقبله جميع العقول.

ولقد حكى أبو حامد الغزالى عن نفسه أنه طاف بجميع المذاهب فلم يجد بغيته أو شفت غُلّته، فانتهى إلى التصوف الذى عدّه أفضل المذاهب وأليقها بالاتباع. واستطارت شهرة الغزالى، ولقب بحجة الإسلام، واتبعه كثير من الناس، فكان الاقتداء به علة فى تأخر المسلمين، كما سبق أن ذكرنا من قبل فى مقالنا عن «قضية العلم بين الغزالى وابن رشد». واعترض علينا الأستاذ العقاد فى مجلة «الكتاب» مدافعاً عن الغزالى، ولكننا حين ذكرنا أنه إحدى علل تأخر المسلمين لم نكن نقصد إلى رأيه فى العلم فقط، بل لأنه اتخذ التصوف مذهباً، فجعل الجمهور يُقبل على التصوف، ويتخذ الذوق لا العقل عماده، وينصرف عن الدنيا ويزهد فيها.

قال ابن القيم يعترض على الصوفية: ليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهى فى قلبك، وإنما الزهد أن تتركها من قلبك وهى فى يدك. وهذا كحال الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز الذى يضرب بزهده المثل.

وقال الصوفية بالتوكل ورفضوا الأسباب، فأجابهم ابن القيم: فهذا كما أنه ممتنع عقلا وحسًّا فهو محرم شرعاً ودينا؛ فإن رفض الأسباب بالكلية انسلاخ

من العقل والدين ، وإن أريد به رفض الوقوف معها ، والوثوق بها ، فهذا حق ، ولكن النقص لايكون فى السبب ولا فى القيام به ، وإنما يكون فى الإعراض عن المسبب تعالى . فمنع الأسباب أن تكون أسباباً قدح فى العقل والشرع . وإثباتها والوقوف معها وقطع النظر عن مسببها قدح فى التوحيد والتوكل . والقيام بها وتنزيلها منازلها ، والنظر إلى مسببها ، وتعلق القيام به جمع بين الأمر والتوحيد ، وبين الشرع والقدر ، وهو الكمال . والله أعلم .

إذا كان الله هو الخالق المبدع ، وهو العليم القدير ، وهو الفعال لما يريد ، فلماذا يعاقب الناس على أفعالهم ؟ وإن قلنا الإنسان حر فاين إرادة الله ؟

هذه هى المشكلة الكبرى : القضاء والقدر ، وحرية الإرادة . وكيف يمكن التوفيق بين القضاء والقدر ، وبين الأمر والوعد والوعيد ؟

تحيزت بعض الفرق للقدر وحاربت الشرع ، وتحيز بعضها الآخر إلى الشرع وكذب القدر . والطائفتان فى نظر ابن القيم ضالتان .

وآمنت فرقة ثالثة بالقضاء والقدر وأقرت بالأمر والنهى ، ولكنهم جعلوا مشيئة الله وقضاءه دليلا على رضاه به ومحبته له ؛ إذ لو كرهه وأبغضه لحال بينهم وبينه . وقال بعضهم إن الله يحب الكفر والفسوق والعصيان ويرضى بها .

وهذه كلها أقوال مشهورة ؛ فالمعتزلة ينسبون الحرية للإنسان وبهذا يصح عندهم الوعد والوعيد . والجبرية يثبتون القضاء والقدر ويعطلون حرية الفرد . وجاء الأشاعرة فقالوا بنظرية الكسب الأشعرى التى أصبح يضرب بها المثل فى الدقة والخفاء ، حتى ليقال أخفى من كسب الأشعرى . وخلاصتها أن أفعال العباد مخلوقة لله مكسوبة لهم ، فجمعوا بين الإرادتين .

أهل السنة يختلفون عن هؤلاء جميعاً ، وهم غير الأشاعرة . فإن قلتَ إن ابن تيمية وتلميذه ابن القيم من الحنابلة ، فلا تنافى بين الحنابلة وأهل السنة . أليس الإمام أحمد بن حنبل هو الذى ضرب حتى خُلعت كتفه فى محنة خلق القرآن ، ورفض الجواب وقال : القرآن كلام الله لا أقول مخلوقاً أو غير مخلوق .

ورأى ابن القيم فى القضاء والقدر يتلخص فى شيئين : أن هناك حكمة إلهية فى كل ما خلقه الله وأمر به ، وأن الخير من الله والشر من العباد .

الحكمة من صفات الله والحكيم من أسمائه الحسنى . ومن حكمته أنه خلق

هذا العالم مركباً من أضداد ، كالليل والنهار ، والبرد والحر ، والداء والدواء. وخلق الإنسان منه الطيب ومنه الخبيث .

فإن قيل : لم خلق الله الأضداد، وهلا جعلها كلها سبباً واحداً ؟

قال ابن القيم : وهل تمام الحكمة وكمال القدرة إلا بخلق المتضادات والمختلفات وترتيب آثارها عليها ، وإيصال مايليق بكل منها .

وسأل ابن القيم أستاذه ابن تيمية : فقد كان من الممكن خلق هذه الأمور مجردة من المفاسد مشتملة على المصلحة الخالصة . قال ابن تيمية : خلق هذه الطبيعة بدون لوازمها ممتنع ، ولو خلقت على غير هذا الوجه لكانت غير هذه ، ولكان عالماً آخر غير هذا .

أما حقيقة نفس الإنسان فإنها جاهلة ظالمة فقيرة محتاجة ، فما حصل لها من كمال وخير فمن الله ، وما حصل لها من عجز وفقر وجهل يوجب الظلم والشر فهو منها ومن حقيقتها . فإن قيل لم لاتكون النفس خيّرة ، كان هذا بمنزلة أن يقال : هلا تجرد الغيث عما يحصل به من تغريق وتخريب وأذى ، وهلا تجردت الشمس عما يحصل منها من حر وسموم ؟

كمال القدرة بخلق الأضداد ، وكمال الحكمة تنزيلها منازلها ، والعالم هو الذى يربط القدرة بالحكمة، ويعلم شمولها لجميع ما خلقه الله ويخلقه .

الجديد فى مذهب ابن القيم مذهب المحبة ، بها يفسر جميع المشكلات السابقة . فقد خلق الله العالم، وأحب من خلقه عبادته فقال، : «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» . قال ابن القيم : فأخبر سبحانه أن الغاية المطلوبة من خلقه هى عبادته التى أصلها كمال محبته . وهو سبحانه ، كما أنه يحب أن يعبد، يحب أن يحمد ، ويثنى عليه ، ويذكر بأوصافه العلى وأسمائه الحسنى .

فالله سبحانه يحب نفسه أعظم محبة ، ويحب من يحبه ، وخلق خلقه لذلك ، وشرع شرائعه وأنزل كتبه لأجل ذلك .

ويذهب ابن القيم إلى أبعد من هذا : فهناك عقد إلهى بين الله وعباده ثمنه الجنة . وفى ذلك يقول : فالله سبحانه خلق عباده له ، ولهذا اشترى منهم أنفسهم ، وهذا عقد لم يعقده مع خلق غيرهم . وهذا الشراء دليل على أنها محبوبة له ، مصطفاة عنده ، مرضية لديه . فالسلعة أنت ، والله المشترى ، والثمن الجنة .

ومحبة الله من أقوى الأسباب فى الصبر عن مخالفته ومعصيته : فإن المحب لمن يحب مطيع . وكلما قوى سلطان المحبة فى القلب كان اقتضاؤه للطاعة وترك المخالفة أقوى . وإنما تصدر المعصية والمخالفة من ضعف المحبة وسلطانها .

وإذا اقترنت المحبة بالإجلال والتعظيم أدت إلى الانقياد .

والمحبة أنواع : طبيعية مشتركة كمحبة الجائع للطعام والظمآن للماء . ومحبة رحمة وإشفاق كمحبة الوالد لولده الطفل . ومحبة أنس وإلف وهى محبة المشتركين فى صناعة أو علم أو مرافقة أو تجارة . وهذه الأنواع كلها لا تستلزم التعظيم ، ولا يتعارض وجودها فى الإنسان مع محبة الله . ولهذا كان رسول الله يحب الحلواء والعسل ، وكان يحب نساءه ، وكانت عائشة أحبهن إليه ، وكان يحب أصحابه ، وأحبهم إليه الصديق .

اما المحبة التى لاتصلح إلا لله فهى محبة العبودية المستلزمة للذل والخضوع والتعظيم . قال تعالى : « والذين آمنوا أشد حباً لله » .

والمحبة تقتضى إيثار المحبوب على غيره . والإيثار نوعان : إيثار معاوضة ومتاجرة ، وإيثار حب وإرادة . والمحبة الصادقة فى الإيثار الصادر عن الإرادة ، لا فى إيثار المعاوضة وطلب الحظوظ .

ولا محبة بغير إرادة ، فهى أساس العبودية الذى لاتقوم إلا عليه ، فلا عبودية لمن لا إرادة له .

أما التجرد عن الإرادة إطاعة لهوى المحبوب ، فهو عند ابن القيم باطل كما قيل :

أريد وصاله ويريد هجرى　　　فأترك ما أريد لما يريد

والتحقيق عنده أن المحبة هى موافقة المحبوب فى إرادته ، بأن يبقى مراده مراد محبوبه . وهذا عند الصوفية نقص فى العبودية ، وهو عند ابن القيم من كمال الإسلام .

وعلى هذا النحو يحل ابن القيم مشكلة التوفيق بين الإرادة الإلهية والإرادة الإنسانية ، لا بطريق الفلاسفة أو المعتزلة أو الاشاعرة أو الصوفية ، بل بطريق المحبة .

أحمد فؤاد الاهوانى

المرأة والخمر عند الأعشى

لو بحثنا فى شعراء الجاهلية جميعهم ، حتى الذين اشتهروا منهم بالعشق والحب ، لم نجد فيهم من وصف المرأة مثلما وصفها الأعشى ، ولا ذكرها وتحدث عنها مثلما ذكرها وتحدث عنها الأعشى . ولو أنا درسنا شعراء الجاهلية لم نجد فيهم من تحايل للوصول إلى المرأة والتقرب إليها كما تحايل الأعشى عن صدق يدفعه بطبعه ، وعن محرك يميل به فى فطرته . فهو يعتمد فى ذلك على زينته مثلا

ولقد أرجِّل جمتى بعشية ... للشرب قبل سنابك المرتاد
والبيض قد عنستْ وطال جراؤها ... ونشأن فى قن وفى أذواد
ولقد أخالسهن ما يمنعننى ... عُصُراً يملن علىَّ بالأجياد

أو يعتمد على رسله :

فبعثت جنيًّا لنا ... يأتى برجع جوابها
فمشى ولم يخش الأنيسَ ، فزارها وخلا بها

وأحياناً أخرى يعتمد على شعره ومجده أو مجد قومه :

فإن شئت أن تُهدىْ لقومى فاسألى ... عن العز والإحسان أين مصيرها
ولا تصرمينى واسألى ما خليقتى ... إذا ردَّ عافِى القدر من يستعيرها

وينتهز الأعشى لذلك الفرص ، ويختلس المناسبات فى الليل والنهار وبين الرجال والحراس ، وحين يغيب الأهل والأقارب:

قد بت رائدها وشاة محاذر ... حذرا يقل بعينه أغفالها
فظللت أرعاها وظل يحوطها ... حتى دنوت إذا الظلام دنا لها

فرميت غفلة عينه عن شاته ... فأصبت حبة قلبها وطحالها
حفظ النهارَ وبات عنها غافلا ... فخلتْ لصاحب لذة وخلا لها

ويتهم الأعشى فى سبيلها كل ناصح ورشيد :

ومستدبر بالذى عنده ... على العاذلات وإرشادها

والأعشى طلب المرأة شابًا ، وتحسر على فقدانها شيخاً .

رأت عُجُزاً فى الحى أسنانَ أمها ... لداتى ، وشبانُ الرجال لِداتُها
فشايعها ما أبصرت تحت درعها ... على صومنا ، واستعجلتها أناتها

وقال يعذر فتاة صدته فى شيخوخته :

ألا قل لتيَّاكَ ما بالُها ... أللبين تُحْدَجُ أجمالُها ؟
أم للدلال فإن الفتا ... ة حق على الشيخ إدلالها
فإن يك هذا الصبا قدذبا ... وتطلاب تَيَّا وتسآلها

ثم يتمناها ويتمنى أن تحور إليه لمته فى آهة باكية :

فأنى تحوّل ذا لمة ... وأنّى لنفسك أمثالُها ؟

بل يريد الأعشى أن يتكلف فى طلبها أبلغ المشاق .

ولَوَ ان دون لقائها ... ذا لِبدة كالزُّجِّ نابُه
لأتيته بالسيف أمـ ... ـشى لا أهد ولا أهابه

ولقد وصف الأعشى المرأة : وصف جمالها ووجهها وجسدها وثيابها ومواكبها ورحيلها ، ولم يترك فيها موضعاً يوصف إلا وصفه ، وصوره ورسمه فى إجادة ودقة :

بيضاء جـاء العظام لها ... فرع أثيث كالحبال رجلْ
إذ هى تصطاد الرجال ولا ... يصطادها إذا رماها الأبل
كأن طعم الزنجبيل وتفا ... حًا على أرْىِ الدبور نزل

ثم يصف نساء يسارقن النظر من وراء الكلل :

السارقات الطرف من ظعن الـ   حى ورقمٌ دونها وكِلَلْ
فيهن مخروف النواصف مسـ   روق البغام شادن أكحل
رخص أحم المقلتين ضعيـ   ف المنكبين للعناق زجل

أو يصف امرأة فيقول :

وإذا غزال أحور الـ   عينين يعجبنى لِعابهْ
حسن مقلد حَلْيه   والنحر طيبة مِلابه
غراء يبهج زولهُ   والكف زينها خِضابه

أو يصف نساء على الحدوج :

واستقلت على الجمال حدوج   كلها فوق بازل موقوفِ
خاضعات يظهرن أكسية الخزِّ (م)   ويبطن دونه بشفوف
وحثثن الجمال يسهكن بالبـا   غز والأرجوان خمل القطيف

إلى مثل ذلك الجو العجيب الذى أحاط الأعشى المرأة به ، ورآها بينه وأرادها أن توجد فيه ؛ وهو جو سحرى جميل كجمال المرأة نفسها ، وهو جو عَبِق بالمسك والكافور والزنجبيل وأنواع الفواكه ، وجو مفعم بالأزهار والورود والأقحوان والزنبق ، وجو فيه رقص وغناء وزمر ، وفيه خمر وقمار ، وفيه عهر ومجون ؛ وهو الجو الذى تحاط به المرأة حين تقودها الدوافع التى تلقى بها فى أيدى مثل هذا الرجل أو أضرابه . فالأعشى إذاً قد بهرته المرأة وهاجت نفسه ، فهو يحسها بجميع حواسه إحساساً صادقاً قويًّا ، وإحساساً شرهاً بهيجاً ، وإحساس المتفتح للحياة وألوانها بكل نافذة من نوافذ نفسه .

ولكنا مع ذلك الوصف وتلك العناية وذلك الاهتمام ، لا نستطيع مطلقاً أن نقول إن الأعشى أحب المرأة يوماً أو احترمها ، ولا أن نقول إنه قد عشق المرأة عشق الود الخالص أو تعلق بها تعلق العاطفة المشبوبة . فإذا قال الأعشى إنه عشق فقد بدأ يكذب . فهو لم يتصل بامرأة ما اتصالا عاطفيًّا ولا اتصالا نفسيًّا ، ولم تكن له وشيجة يمكن أن نطلق عليها آمنين اسما من أسماء الحب العذرى أو

الهوى البرىء. ونستطيع بيسر وبغير كد أن نتصور للأعشى أكثر من علاقة واحدة، وأكثر من موضوع واحد. فما أكثر اللائى تعرَّف إليهن الأعشى ومازجهن واختلط بهن فى وقت واحد!

لهذا لم نر فى شعر الأعشى أحوال العاطفة العاشقة وأطوارها وتجاربها، ولم نعثر فى شعره على اختلاجات القلب الخافق ولا وساوسه ولا آماله ومخاوفه. ولم نلق فى غزله تلك العاطفة المجردة السامية، أو تلك المعانى المثالية أو الأحاسيس العفة المخلصة الطاهرة المحرومة، أو ذلك الهيام الذى ينزع فيه الكائن الحى بكل وجوده إلى المخلوقة التى تكمله نزوع الوجد الملتهب والحنين المستعر.

إنما كان الأعشى عاشق جمال حسى فى المرأة وصائد متعة جسدية مؤقتة.

ولو ان دون لقائها   جبلا مزلقة هضابه
لنظرت أنى مرتقا   ه وخير مسلكه عقابه

لماذا؟ ألأن الوجد البرىء يدفعه أو الشوق النزيه يوحى به، أو الوحشة النفسية تزجيه وتحمله؟ كلا. وإنما لأن المحب فى نظره دَنِسٌ ثيابه:

لأتيتها إن المحب (م) مكاف دَنِسٌ ثيابُه

بل كان همه من المرأة أن يقول:

من كل بيضاء ممكورة   لها بشر ناصع كاللبنْ
عريضة بوص إذا أدبرت   هضيم الحشا شختة المحتضن
يصب لها الساقيان المزا   ج منتصف الليل من ماء شن

والأعشى كان لذلك يطلب فى المرأة ألوانها الزاهية البراقة اللامعة، وهو فى ذلك مستهتر متهتك لا يبالى ولا يخجل، مسرف مبالغ لا يقنع ولا يرتوى، حتى فى أيام شيبه وفى عهد كهولته نراه يتطلع بعين متشهية إلى الماضى الماجن، ويعود بذاكرته إلى أحداثه الدابرة.

والغريب أن رجلا كالأعشى — وهو على إلحاحه هذا وراء المرأة — لا نجد عنده ذلك الضعف والوهن، أو ذلك التخاذل وتلك الذلة التى تصحب فى العادة مثل هذا الصنف من المزاج، أو تلازم أشباه هذا الضرب من الطبع. ولعل

ذلك كان راجعاً إلى نجاحه فيما يبغيه ، أو إلى أنه كان يجد الفريسة والشريكة — إن صح هذا التعبير — من غير مشقة . وبذلك لم تكن به حاجة إلى اصطناع الذلة أو اصطناع الخنوع .

ولقد كنا نود أن نصف بعض صلات الأعشى ، لولا أننا لا نجد المادة الكافية فى تاريخه وسيرته . وإذا نحن أردنا أن نعتمد فى ذلك على شعره لاضطررنا إلى أن نخترع له الحوادث ، وإلى أن نحمل عليه القصص والأخبار ؛ لأن الأعشى لا يزيد فى شعره على الوصف الكثير ، فإن هو ذكر حادثة فإنما يذكرها ذكراً مقتضباً عاما لكى يخلص بذلك إلى الوصف ؛ فقد كان يجد فيه ، على ما يخيل إلينا ، لذة ومتعة لا يعدلها إلا لذته ومتعته بنفس الجمال المادى الذى يصفه ويتوق إليه ، ولأنه مع ذلك كله لم تكن — فى الغالب — للأعشى صلة طويلة بامرأة معينة ، أو أن من طبعه ألا تدوم له علاقة مع خليلة من خليلاته .

ولقد كان من المنتظر والطبيعى لرجل عاشر المرأة وشاهدها فى أوضاعها المختلفة واختلط بها ومازجها — أن يعرف هذا الرجل شيئاً عن طبيعية المرأة وأن يخبر بعض أسرارها وخفاياها . ولكن الأعشى رجل على العكس من ذلك . فأغلب الظن أنه مات ولم يفهم المرأة ، ولم يعرف كنهها ولا طبيعة مزاجها وأنوثتها على الرغم من كل تجاربه وصلاته بها . والسر فى ذلك بسيط ؛ فالأعشى رجل غلبه مزاجه وامتلكته طبيعته حتى لم يدع له الفرصة التى ينظر فيها إلى المرأة حرا من قيودها خالصاً من أسرها ، وكانت لذاته وشهواته تغمره وتغرقه فلا تتركه يخرج منها ليدرس أو يمحص ، ولا ليلاحظ أو يحصى ، وكانت نفسه الساذجة تحول بينه وبين ذلك أيضاً . فالأعشى رجل مقاهٍ وخدن منتديات ومجالس . إنما كان يحسن المظاهر العملية ويتقن الأساليب المستعملة فى بلوغ غرضه . وكل ما عرفه الأعشى عن المرأة أنها تهجر الشيوخ وتطلب الشبان ، أو أنها تعشق المال وتلفظ الرجل الخالى . وهذه قضايا لا قيمة لها إذا قيست إلى ما كان ممكناً أن يستخلصه من القضايا الأخرى ، ومن الأحكام التى غفل عنها أو غابت عنه أو لم يفطن إليها .

وخلاصة القول فى غزل الأعشى أنه كان عاشق جمال ، يصفه ويتبعه ويمدحه ويحيا به ، ولكنه الجمال الحسى المادى . وكان هذا العاشق عاشقاً يخون أحياناً ويغدر أحيانا أخرى ؛ لأنه لا يرجو من وراء ذلك إلا إشباع نزعاته ، ولكنه

كثيرا ما صور هذا الجمال فى صور بارعة فاتنة ، وأظهره فى مظهر مغر جذاب ، وأحاطه بضروب المباهج وبصنوف الأفراح ؛ لأن الجمال الحسى كان فى حياة الأعشى كل شيء ؛ فهو الذى شكل أخلاقه وطبع عاداته ووجه تصرفاته وأعماله ، ولأن الجمال الحسى كان الهدف القريب الذى تهدف إليه النفس الحية الزاخرة ، وينزع إليه الكائن الممتلىء بالحيوية المرهف نواحى الحس .

وأى شىء أحق هنا بالتحدث عنه بعد المرأة إلا الخمر ، والخمر عند الأعشى خاصة . والحق أن المرأة والخمر كالشىء وظله . ومن الذى يصف الخمر غير الأعشى ؟ ذلك الذى شربها فى أباريق الفضة وكئوسها ، بل قال فى أباريق الذهب :

إذا انكب أزهر بين السقاة ... تراموا به غربـاً أو نضارا

قال أبو عبيدة : الأزهر هو الإبريق الأبيض ، والغرب هو الفضة ، والنضار هو الذهب .

وشربها فقيراً كما شربها غنيًّا :

على كل أحوال الفتى قد شربتها ... غنيًّا وصعلوكا وما إن أقاتها

وشرب الأعشى الخمر فى الصباح ، ولم يتركها فى المساء :

وذات نواف كلون الفصو ... ص باكرتهـا فادّمجتُ ابتكاراً
غدوت عليهـا قبيـل الشرو ... ق إما نقـالا وإما اغـتماراً
فلم ينطق الديك حتى مـلأ ... ت كوب الرباب له فاسـترارا

ويشربها الأعشى حتى يهذى ويخلط بين المدركات :

شربت الراح بالقلتين حتى ... حسبت دجاجة مرت حمارا

لأنه مسرف مبالغ :

ولقد شربت ثمانيا وثمانيا ... وثمان عشرة واثنتين وأربعا
من قهوة باتت بفارس صفوة ... تدع الفتى ماكا يميل مصرعا

بل لقد أهلك الأعشى ماله فى هوى الخمر .

إن الأحامرة الثلاثة أهلكت   مالى وكنت بهن قِدْماً مولعا
الخمر واللحم السمين مع الطلى   بالزعفران ولا أزال مروَّعا

والأعشى انتجع فى سبيل الخمر البلدان واخترق الصحارى وزار الأديرة :

وكعبة نجران حتم عليـ   ـك حتى تناخى بأبوابها
نزور يزيد وعبد المسيح   وقيساً هم خير أربابها
لهم مشربات لها بهجة   تروق العيون لإذهابها

والواقع أن مجلس الخمر عند الأعشى كان مجلساً حافلا غنيًّا زاخراً : غنيًّا بالخمر والمال ، غنيًّا بالندماء والفكاهات ؛ فكان يشربها :

فى شباب كمصابيح الدجى   ظاهر النعمة فيهم والفرحْ
لا يشحون على المال وما   عوَّدوا فى الحى تصرارَ اللِّقَحْ

كذلك كان هذا المجلس غنياً بالموسيقا والمأكولات وبالأزهار والرياحين وبالمسك والكافور ، وكان يحتسيها بين مناظر الطبيعة الغناء وبين ربوعها الفيحاء . وكان مجلسه آخر الأمر أو أوله عامراً بأهم شيء أو بالسبب الأول الذى كانت تقام هذه المجالس من أجله ، وهى القيان والراقصات والمغنيات أو المرأة :

وكأس شربت على لذة   وأخرى تداويت منها بها
وشاهدنا الورد والياسميـ   ـن والمسمعات بقصابها
ومزمرنا معمل دائم   فأى الثلاثة أزرى بها ؟

وقال :

يا من رأى عارضا قد بت أرمقه   كأنما البرق فى حافاته الشعلُ
لم يلهنى اللهو عنه حين أرقبه   ولا اللذاذة من كأس ولا كسل
فقلت للشَّرب فى دُرْنَى وقد ثملوا   شيموا . وكيف يشيم الشارب الثمل ؟
برقا يضىء على أجزاع مسقطه   وبالخبية منه عارض هطل

ولكن الأعشى عندما يصف الخمر يصفها وصفاً ظاهريا ، يصف وجودها الخارجى وألوانها وكؤوسها ، ويصف مجالسها والحاضرين فيه ، ويعين أوقات شربها وكمية هذا الشراب دون أن يزيد على ذلك وصف أثرها فى النفس ، ذلك الأثر المعنوى المجرد ، ودون أن يذكر أحوال الخمار ومعانى السكر والغيبوبة أو أحاسيس الذهول والنشوة ، وصلة ذلك كله بالحياة والوجود والموت .

ويحسن بنا أن نذكر وصفاً كاملا لمجلس من مجالس الخمر عند الأعشى ، لنتبين حقيقة ما نقول :

وشمول تحسب العينُ إذا صُفِّقت وُرْدَتها نور الذَّبَحْ
مثل ذَكِى المسك زاكٍ ريحها صبَّها الساقى إذا قيل تَوَحّ
ذات غور ما تبالى يومَها غرف الإبريق منها والقدح
وإذا مكوكها صادمه جانباه كر فيها فسبح
فترامت بزجاج معمل يخلف النازح منها ما نزح
تحسب الزق لديها مسنداً حبشيًّا نام عمداً فانبطح
ولقد أغدو على ندمانها وغدا عندى عليها واصطبح
ومغن كلما قيل له أسمع الشَّرْبَ فغنى فصدح
وثنى الكف على ذى عَتَبٍ يصل الصوت بذى زير أبح
فترى الشرب نشاوى كلهم مثل ما مدت نصاحات الربح
بين مغلوب كريم خده وخذول الرجل من غير كسح
وشغاميمَ جسامٍ بُدَّنٍ ناعمات من هوان لم تُلَح
كالتماثيل عليها حلل ما يوارين بطون المكتشح

وأخيراً لم يكن شرب الخمر فى الجاهلية عيباً فى ذاته ، إنما كان العيب فى الإدمان والإسراف . ولقد أسرف الأعشى حتى فاق سائر الناس . ونحسب نحن أن ما شجعه على ذلك وحفزه إليه إنما هو جريه وراء المرأة ، وطلبه لها فى أى صورة تكون وفى أى مكان توجد ، وحرصه على أن يحيطها بأنواع اللذات وشكول المتع ، مع إسراف الحس ومبالغة الرغبة الكامنة فى طبعه ومزاجه .

على ابراهيم الأنُوطه

تصدع مبدأ سيادة الدولة

يكاد يجمع الفقه الحديث للقانون الدولى العام على أن السبب الجوهرى لإخفاق نظام السلامة المشتركة فى عصبة الأمم هو أن تلك العصبة كانت دولة بين الدول ولم تكن دولة فوق الدول ، وكان ميثاقها يتطلب فى إصدار قرارات المجلس أو الجمعية (مادة ٥ فقرة أولى) إجماع آراء الأعضاء الحاضرين فيما عدا حالات قليلة تتعلق بالإجراءات وغيرها وردت فى الميثاق على سبيل الحصر (المادة ٥ فقرة ٢ والمادة ١٥ فقرة ٤ وفقرة ١٠) .

ولقد لقيت قاعدة الإجماع هذه نقدا شديدا ؛ لأنها فسرت علما وعملا بأنه من حق أية دولة أن تمتنع عن المساهمة فى تنفيذ القرار الذى اتخذ متى ما رأت مصلحتها فى ذلك . وكان النص على هذه القاعدة فى الميثاق أمارة صارخة من أمارات تمسك الدول الأعضاء بمبدأ سيادة الدولة .

لسيادة الدولة وجهتان : وجهة داخلية ، ووجهة خارجية : أما الوجهة الداخلية فلازمة لا غنى عنها ؛ إذ ليس من يمارى فى أن الحياة البشرية لا بد لها من حكومة تشرف عليها وتدبر شئونها ، وهى على كل حال ليست محل بحثنا اليوم .

أما الوجهة الخارجية — وهى التى يدور عليها هذا المقال — فقد ظلت إلى اليوم عقبة كؤودا فى سبيل إقامة سلطة دولية فوق الدول ترسم للعالم السياسة العامة وتحول بذلك دون تصادم المصالح القومية ، على نحو ما رأينا تصادمها منذ إنشاء عصبة الأمم إلى أن اندلع لهيب الحرب العالمية الثانية .

ولهذا رأينا الفقه الدولى يعلن الثورة على الأوضاع القديمة ، وينادى بمبادئ جديدة قوامها الحد من مبدأ سيادة الدولة وإخضاعها خارجيا لمقتضيات المجتمع العالمى . ويعلقون على ثورتهم السلمية تلك ، أمل إنقاذ الإنسانية جمعاء من هذه الحروب المتكررة ، ومن هاته الأزمات الاقتصادية الدورية .

وكان أول ما نادى به فقهاء القانون الدولى العام — من سنوات سابقة على نشوب الحرب الحالية — ضرورة إلغاء قاعدة « الإجماع » من عهد عصبة الأمم وما يتفرع عن ذلك الإلغاء من تقييد الأقلية برأى الأغلبية ، ومن فرض قاعدة إجبارية للتحكيم بدل القاعدة الاختيارية الأولى ، تكفل الالتجاء إليها ، وتنفيذ ما يصدر من قرارات مبنية عليها قوات دولية مندمجة ، إن تعذر إنشاؤها فورا ، فلا أقل من أن تجمع الدول كلمتها عليها حتى يهضم العالم ذلك المثل الأعلى ويسيغه .

وإن هذا الاتجاه الجديد لهو فى واقع الأمر صدى للحوادث التى تعاقبت من يوم أن انسحبت ألمانيا من مؤتمر نزع السلاح سنة ١٩٣٢ إلى يوم أن نشبت حرب سنة ١٩٣٩ / ١٩٤٥. ذلك أن تاريخ العالم فى هذه الفترة ينبئنا بأن الصراع الوحشى الذى شهدناه أخيرا من دول تقول إنها متمدنة ، لم يقم إلا بسبب تمسك الشعوب بمبدأ سيادة الدولة ، ولعدم اكتراث تلك الشعوب بما وقع من انتهاك متكرر للعهود والمواثيق مادامت مصالحها المباشرة لم تكن قد مست بعد .

لقد ظنت أن الأمر لا يعنيها إذا انسحبت ألمانيا من مؤتمر نزع السلاح سنة ١٩٣٢ ، ثم من عصبة الأمم سنة ١٩٣٣ ، ولا يعنيها إذا هاجمت اليابان منشوريا معتدية على زميلتها الصين عضو عصبة الأمم سنة ١٩٣٣ ، ولا يعنيها إذا احتلت إيطاليا الحبشة زميلتها فى العصبة سنة ١٩٣٥، ولا يعنيها إذا احتل هتلر منطقة الرين المجردة ناقضا اتفاقيات لوكارنو سنة ١٩٣٦ ، ولا يعنيها إذا اصطرعت الشيوعية والفاشية على أرض أسبانيا سنة ١٩٣٦ — ١٩٣٨، ولا يعنيها إذا ضمت ألمانيا النمسا سنة ١٩٣٨ ، ثم بوهيميا ومورافيا وميمل سنة ١٩٣٩ ، وإذا احتلت إيطاليا ألبانيا سنة ١٩٣٩ . حتى إذا احتل هتلر دانتزج وغزا بولندة واقترب الخطر بذلك من انجلترا وفرنسا ، وأوشكت المصالح المباشرة أن تمس ، استيقظت الشعوب من سباتها قبل فوات الفرصة فى سبتمبر سنة ١٩٣٩.

فلا عجب أن نرى مبدأ سيادة الدولة يتقوض إزاء ما رأيناه من اشتداد التنافر بينه وبين حقائق الحياة البشرية . ولا عجب أن نرى الفقه الدولى العام يقول إنه لا نجاح لأية مؤسسة جديدة للسلام ، سواء اتخذت صورة مجرد اتحاد أوربى أو عالمى أو قارى ، أو صورة تشكيلات إقليمية تربطها عصبة أمم جديدة ، إلا أن تقتنع الحكومات ومن ورائها الشعوب بأن الدولة خاضعة بطبيعة الأشياء لمجتمع أوسع .

والاتجاه الفقهى الثورى اللافت للنظر هو تعديل مركز الفرد فى القانون الدولى العام. كان الفقه السائد قبل الحرب العالمية الثانية، أن الفرد ليس من أشخاص القانون الدولى العام. ولهذا رأينا القانون المذكور لا يلتفت إلى الأفراد التفاتا مباشرا، ولا يعنى بحقوقهم عناية مباشرة. وكان إذا حل بفرد ضرر من عدم تنفيذ دولة الالتزام الدولى، يلجأ ذلك الفرد إلى دولته لينال عن طريقها الترضية والإنصاف. وكانت النظرية السائدة إذ ذاك أن الحق الذى أهدر ليس حق الفرد ولكنه حق الدولة، حقها فى أن يلقى أفرادها المعاملة الحسنى من الدول الأخرى.

ولم يكن إذن للفرد، فيما عدا حالات نادرة قليلة الأهمية، حق الالتجاء مباشرة إلى المحاكم الدولية، وإنما كان ذلك من حق دولته. وكان عليها أن تتمسك بأن الحق المعروض هو حقها لتمتد إليه ولاية تلك المحاكم، ولطالما تعقدت الإجراءات وتراخى إحقاق العدالة.

ولهذا أشاروا بالتوسع فيما كان للفرد — من قبل — من حق المثول مباشرة أمام المحاكم الدولية: كان له ذلك أيام أنشئت «المحاكم المختلطة التحكيمية» سنة ١٩٢٩ لتنظر فى مطالب الأفراد والهيئات الناشئة عن حوادث الحرب فى سنة ١٩١٤ / ١٩١٨، وكان له أن يمثل أمام «اللجنة الدولية المشتركة» بين الولايات المتحدة وكندا، وأمام غيرها من الهيئات التحكيمية الدولية المحدودة.

ولقد اعترض بعضهم على المبدأ بأنه يخشى منه أن ترهق المحاكم الدولية بنزاعات تافهة أو كيدية. ولكنه اعتراض مردود؛ لأنه يصدق على المحاكم الإقليمية، ومع ذلك فهو لم يمنع من إنشائها.

وحسب من يخسر دعواه تحمله بمصاريفها وبالتعويض إذا اقتضى الأمر؛ ليحسب حساب عمله قبل الإقدام عليه. كما أنه من الممكن أن توكل تصفية النزاعات إلى دولة الفرد المتقاضى أولاً؛ فتقدم منها إلى المحكمة الدولية ما تراه جديرا بالتقديم، على أن يكون هذا الإجراء موقوتا ولفترة انتقال يزول بانتهائها.

ومبدأ سيادة الدولة يقوم على التعصب الوطنى الذى يدفع بالمرء إلى تقديم المصالح المباشرة لدولته على المصالح غير المباشرة — البعيدة والمحققة مع

ذلك — للمجتمع الدولى ، والذى يغرس فى نفسه الإحساس بأن دولته هى الحكم ، والخصم ، فيما يشجر بينها وبين دولة أخرى من خلاف .

ولهذا يشير المتأخرون من فقهاء القانون الدولى العام بإجراء تغيير جوهرى فى عاطفة الولاء ، ويرون ضرورة نقلها من الدولة الوطنية إلى الدولة العالمية . والسبيل عندهم ، إلى ذلك الهدف المثالى ، أن تحذف من كتب طلبة المدارس المواد التى توحى الولاء للوطن وحده ، وأن يلقنوا بدلها مزايا المجتمع الأوسع . ومما يساعد على تجلية هذه الفكرة لأذهانهم وتقريبها إلى قلوبهم أن تلقى عليهم مبادئ عامة فى الاقتصاد السياسى تثبت لهم استحالة نظرية الاكتفاء الذاتى ، بل قصورها عن أن تحقق لشعوب العالم غنيها وفقيرها الرفاهية المنشودة .

ولا تحسبن تلك الثورة الشاملة التى أعلنها الفقه الحديث على مبدأ سيادة الدولة ثورة مخدوعة خداعة ؛ فإنك إذ تتتبع نشوء الدولة وظهور العاطفة الوطنية تلمس أن التصدع الحالى الذى نشهده فى ذلك المبدأ إن هو إلا طور انتقالى محتم يأمل الخير من ورائه أولئك الذين لم يفقدوا بعدُ كل ثقتهم فى الطبيعة الإنسانية .

تكونت الدولة من اندماج — اختيارى أو إجبارى ؛ فذلك لا يهم — للأسر والعشائر ، ونبتت فكرة الحكومة من إحساس عام بضرورة قيام سلطة مركزية تشرف وتنظم وتنتقص من حرية الفرد والقبيلة فى التصرف تصرفا قد يضر بالآخرين .

وتفريعا على هذه الحقيقة التاريخية قالوا إن تعلق الفرد بوطنه هو عاطفة اكتسابية صناعية . فالوطن الذى يحبه المرء بطبعه هو وطنه الصغير ، قرية كانت أو مدينة أو بقعة صغيرة من الأرض ، يعرفها بتفاصيلها وتربطه بها ذكريات شخصية عزيزة ، هناك ولد غالبا ، وهناك يقضى عادة فترة حياته .

أما الوطن الكبير فإقليم متسع — كثيرا ولم يكن دائما — ما تختلف بقاعه وطباع أهله بعضها عن بعض . ولست أعرف وصفا لعاطفة المرء أصدق من وصف فولتير ، قال : « كلما اتسع هذا الوطن تناقص حبك له . إن الحب الموزع يضعف ؛ إذ أنه من المحال أن تحب من قلبك أسرة كبيرة العدد لا تكاد تعرفها . »

وإنك لتزداد يقينا من صواب هذا النظر إذا ما تقصيت النظريات المختلفة

التى اعتنقها مختلف الباحثين فى تعرف عناصر الوطنية وأصل تكوينها ، مما لا يتسع المقام هنا لعرضه[1] .

ويزيدك يقينا على يقين أن تعود بذاكرتك إلى ما كان يفعله الجنود المرتزقة من محاربة دولهم وقتل إخوتهم « فى الوطن » ، وإلى ما كان يقع من دخول الموظفين المدنيين خدمة الحكام الأجانب ، وما كانوا يبذلونه لهم من الولاء والأمانة مما لا يتصور بذله إلا لما تعارف الناس — أخيرا وعلى الخصوص من بعد الثورة الفرنسية — على تسميته بالوطن .

ولم تقف ثورة الفقه عند المسميات بل تعدتها إلى الأسماء . فلم نعد نقرأ عن قانون ما بين الدول ، بل أصبحنا نقرأ عن قانون ما فوق الدول .

وإن هذا النقد المرير لمبدأ سيادة الدولة إن هو فى واقع الأمر إلا صدى لبحوث متشعبة مترامية الأطراف . فلقد أثبت رجال الاقتصاد فساد النظرية القائلة بالاستقلال الوطنى فى المسائل الصناعية والتجارية والمالية . وأوضح رجال الاجتماع أن رفاهية شعب من الشعوب تتأثر بفقر شعب آخر ، وأن حبل السلام يضطرب بسبب ذلك ، وأن ظروف العمال وحالتهم الصحية والمعنوية تتأثر بعوامل دولية لا تعترف بالحدود السياسية . ونبذ رجال التشريع اليوم نظرية القانون الدولى العام المبنية على سيادة الدولة إلى نظرية إخضاع التشريع القومى والأنظمة القانونية الوطنية لقانون الأمم .

ولقد كان المأمول أن تسير السياسة الدولية وفق ذلك الفقه الدولى الحديث ، مدفوعة على الأقل بعبرة الماضى ، وما ذاقته الدول من نتائج التعصب الدولى .

فإذا بميثاق الأمم المتحدة لا يعدل عن « قاعدة الإجماع » القديمة إلا عدولا وهميا ، دفع ببعضهم إلى الاعتقاد بأنه يمتاز فى هذا عن ميثاق عصبة الأمم .

والواقع ، مع شىء من إمعان النظر ، غير ذلك . فلقد نصت حقا المادة ٢٥ من ميثاق الأمم المتحدة على أنه « يتعهد أعضاء الأمم المتحدة بقبول قرارات مجلس الأمن وتنفيذها وفق هذا الميثاق » . وهى بذلك النص تمتاز — حقا — عن ميثاق

(١) راجع فى تفصيل ذلك ص ٨٧ — ص ٩٢ من كتاب :
World Order in Historical Perspective, by Hans Kohn, Harvard University Press, 1944.

العصبة حيث كان لكل عضو أن يقرر أن يشترك أو لا يشترك فى تطبيق الجزاءات التى تقررها عصبة الأمم فى حالة معينة على دولة قامت بعمل من أعمال العدوان .

ولكنها كما قلنا مزية وهمية ؛ لأن المادة ٢ فقرة ٣ من ميثاق الأمم المتحدة حتمت توافر أغلبية سبعة أصوات من أعضاء مجلس الأمن الأحد عشر فيما لا يتصل بالمسائل الإجرائية، وحتمت إجماع الأعضاء الدائمين وهم روسيا والصين وفرنسا وبريطانيا وأمريكا ، أى الخمسة الكبار ، على ما يقولون عن أنفسهم أو يقوله عنهم الناس ، لا ندرى .

وبذلك عدنا إلى قاعدة الإجماع القديمة ؛ لأن كل السلطات الفعالة تركزت فى مجلس الأمن ، دون بقية فروع هيئة الأمم المتحدة ، ولأنه أصبح فى وسع الخمسة الكبار أن يفرضوا إجماعهم على العالم ، وفى وسع واحد منهم أن يشل قرارا اتفق عليه الأربعة الباقون .

ويحق لنا بعد هذا أن نسائل : فيم إذن كل تلك الدماء الغزيرة التى نزفها شباب العالم وزهرة سكانه ؟ أو لم يكفل ميثاق الاطلنطى - أغسطس سنة ١٩٤١ - لدول العالم أجمع حقوقا متكافئة فى الحصول على المواد الخام ، وفى التحرر من العوز ؟ أو لم يكن مفهوما من نصوصه وروحه أنه قضاء على مبدأ سيادة الدولة ، حيث لم نتصور دولة تتمسك بحريتها المطلقة فى العمل غير مكترثة بما قد ينال دولة أخرى من ضرر ، وتطالب مع ذلك تلك الدولة الثانية بأن تفتح لها أسواقها ومواردها وطرق المواصلات فيها ؟

إن ربط رفاهية العالم وسلامة شعوبه بتخلى الدول عن سيادتها الخارجية هو من قبيل ربط الغُنم بالغُرم ، وهو بذلك لا يمكن أن يلقى اعتراضا من منصف. وإذا كانت الوطنية — لُباب مبدأ سيادة الدولة — شعوراً جميلا حقًّا ، وكان لخير العالم أن يبدأ بالدولة ، فمن الخطورة أن يقف عند حدودها ، فيذكى الأثرة ويولد التنافس الحقود بين الشعوب .

ولو عمل مؤتمر الصلح المقبل على تدارك ذلك العيب الجسيم فى ميثاق الأمم المتحدة ، لأسدى إلى قضية السلام يداً لن ينساها له الآباء والأمهات .

فى الصيف

استقبلت الصباح نشيطة غاية فى النشاط ، مبتهجة أشد الابتهاج ، تنتقل بين أرجاء المنزل فى حركة خفيفة سريعـة ، يرتفع صوتها من حين إلى حين بألحان عذبة مرحة .

نظرت إلى المرآة وأطالت النظر ، فابتسمت . وترفقت يداها الدقيقتان تجعُّد من شعرها الأسود ، ترفعه تارة إلى أعلى ، وطوراً إلى أسفل ، ثم تنظر إلى طيفها وتطيل النظر ، وتدفع برأسها الصغير إلى الوراء ، فتتهدل خصـلات من شعرها على جبينها ، فترتفع يدها تداعبه يمنة ويسرة . ترفعه إلى أعلى وتخفضه إلى أسفل . وأخيراً تركته للهواء يداعبه كيف يشـاء . ثم عمدت إلى أجمل أثوابها فارتدته . ودارت على عقبيها أمام المرآة ، فانفرجت شفتاها عن ابتسامة عذبة فيها رضا واطمئنان ، وفيها رقة وجاذبية .

« سيرانى الآن على أحسن حال وأوفاه . . . ما أعمق نظراته . . . » اضطرب جسمها اضطراباً يسيراً عنـد ما ألم بها هذا الخاطر . . . إنها تتعجبُ لشعورها نحو هذا الشاب الذى أتى منذ أيام قليـلة ، يستأجر الطابق العلوى من منزلهم ، فا تقبلته على أحسن ما يستقبل به القوم الذين يفدون إلى الإسكندرية فى هذه الفترة من الصيف ، لـكنها لم تكد تراه حتى اضطربت لنظراته النفـاذة أعمق الاضطراب ، نظر إليها فأطال النظر ، وصافحها ، فضغط على يدها فى رفق ورقة زادتها اضطرابا .

طوّفت به حجرات المنزل . وهو لا ينطق إلا بالإعجاب ، ولا يبـدى إلاّ الثناء . وسرعان ما وصل إلى اتفاق مع أمها . . . فقد أفهمها الدليل الذى صحب الشاب إلى المنزل ، أن الأسرة القادمة من القاهرة ، كريمة أصيلة ، ذات مركز مرموق . ولم ينس أن يضيف أن هذا الشاب غير متزوج و . . . وسرت كلماته فى نفسها مسرى السحر ، فأتمت عقد الإيجار فى لحظات يسيرة . . .

وقفت آمال فى شرفة المنزل ترقب فى قلق ، تلك السيارات التى تمر مسرعة لاتلوى على شئ ، فينبض قلبها ، ويشتد ، ثم يشتد حتى يعلو أصواتها أو يكاد ، فتتبعها بنظرات تملؤها الحسرة حيناً ، والأمل أحياناً ، والأسف غالب الأحيان .

انتظرت فأطالت الانتظار ، فهمت بالانصراف . ولم تكد تخطو خطوات يسيرة ، حتى وقفت بغتة ؛ فقد وصلت الأسرة . . . قفز بصرها إلى باب السيارة يسترق النظر إليه ، ولكنها لم تقو على الانتظار فأسرعت لتكون فى شرف الاستقبال . ألقت نظرة قلقة حائرة ، بين ابراهيم بك وزوجته الفاضلة وبين ابنه وابنته . . . على . . . أين على . . . ؟ ولكنها أخفت اضطرابها واستقبلتهم بما يليق أن يستقبل به ضيوف كرام ، متمنية لهم أجمل الأمانى وأسعد الأيام .

حمد الله كثيراً ما وسعه الحمد والشكر . إنها العناية الإلهية قد أعطته فأجزلت له العطاء ، فقد نال إجازته السنوية بعد طول التمنع والإباء . التمنع من الرؤساء ، والإباء من كل من يمت إليهم بصلة . .

أخذ مكانه فى القطار السريع يطوى به الأرض طيًّا صوب الإسكندرية ، بلد الحب والجمال . . . ، وكانت تصعد زفرة حارة مع كل نسمة من أنفاسه يخفق لها قلبه ، فيعتدل فى جلسته ، ويلتفت يسرة إلى هذا الرجل الجالس أمامه يطمئن لعدم مراقبته إياه . . . ، يسرع ببصره إلى تلك الفتاة الجالسة جواره يرقب ابتسامة حائرة بين شفتيها فيزداد اضطرابه ، فينصرف عنها إلى نافذة القطار يسرّى عن نفسه بتلك المناظر التى تمر سريعاً أمام عينيه ، فتنطلق روحه فى الفضاء حائرة بين القاهرة ، سريعة العدو نحو الإسكندرية . إنه ماضٍ حزين ، مستقبل باسم ، يالها من بسمة تصل الماضى بالحاضر ! ياله من ماضٍ أوشك فيه أن يصبح رب أسرة دعائمها الحب وأركانها الإخلاص !

أحب فتاة بادلته حُبًّا بحب ، وإخلاصاً بإخلاص ، فبنيا معا فى ومضات من هذا الفيض الرائق عش الأمانى . وما إن اكتمل بناؤه وتحددت أركانه حتى هبت ريح عاصف أطاحت به . نظر الشاب فى حسرة وألم إلى انهيار آماله . . . فتاته أصبحت تسأم منه وتسخر من أفكاره ، وقد كانت تتلهف إلى سماع نبرة من صوته العذب الرنين فى أذنيها . أعجبت بطبيب شاب عادها أثناء مرضها ، خدعها

منصبه وماله فهامت به ، فأطاحت بخطيبها بل بمستقبلها ، فلم تلحق حتى بهذا الذى مر فى طريقه لا يلوى على شئ . . .

انحدرت دمعة على خد الشاب وانفرجت شفتاه عن بسمة إن جاز للحزن والسرور أن يجتمعا فى لحظة . . . حزن لهذا الحب الضائع وسُرَّ لطائف جميل ألمّ به . . . وإنه لطائف رقيق جميل يبعث على السرور حقًا . . . يصل الماضى بالحاضر . . . يبعث هذا الحب الضائع فى أمل مقيم . . . إنها فتاة الإسكندرية التى خفق لها قلبه عند رؤيتها فى اللحظة الأولى . . . فأصبح يقيناً لديه هذا المثل السائر « يخلق الله من الشبه أربعين » . لكن كفاه اثنان . . . صفحة قد طواها ، وأخرى أقبل عليها فى لهفة وأمل . . .

مالت الشمس للغروب ، وانحنت فى رفق وحنان على صفحة البحر الرائقة كالحسناء تقبِّل أعز مخلوق لديها قبلة هى الحب الخالص الذى يبلغ حد الهوس والجنون . . . والذى هو أيضاً آية فى صفائه ونقاوته . احمر وجهها خجلا فزادته الحمرة رقة وجاذبية وجمالا . . . شعرت أن شخصاً يراقبها ويُسَرُّ لتلك المراقبة . . . فأنهت الوداع وأسرعت فى الإختفاء وفى قلبها خفقة أمل فى لقاء قريب . . . تاركة وراءها أثراً قد نحت فى قلب محمود روعة هذا الجمال الذى صوره الخالق فأبدع تصويره .

هبّت نسمة من هواء منعش أفاقته من أحلامه ورمته فى أحضان الحقيقة ، حيث أقبلت والدته تحمل أقداح الشاى ، فاعتدل فى جلسته . وترك ابراهيم بك جريدته وجلس ثلاثتهم يتجاذبون أطراف الحديث ، الذى شاركهم فيه بعد لحظات آمال وشقيقتها سعاد ، فأكسبتاه بهجة ومرحا . غنّت سعاد ما وعت ذاكرتها من الغناء الذى تصحبه بحركات من جسمها يكسبها رقة ويضفى على كلامها جاذبية . فقد اعتادت آمال وسعاد أن تترددا فى الأيام الأخيرة على أسرة ابراهيم بك تسليانهم بأحاديثهما العذبة المرحة ، حتى ائتلفتا معهم وأصبح إبراهيم بك لا يطيب الجلوس له فى شرفة منزله المطلة على البحر ، إلا إذا نادى الفتاتين ، سعاد تغنى وآمال تمدها بالعون من نكاتها اللاذعة التى تشجعها على المضى فيما تقول .

مر الوقت سريعاً والجميع فى جلستهم تلك ، حتى أقبل عليهم علىّ حاملاً

حقيبته التى سقطت فى حركة لاشعورية حين أقبلت عليه والدته تمطره وابلا من القبلات ، ووالده وشقيقه محمود يهنئانه بسلامة الوصول .

سكتت آمال حين رأته ، فلم تنفرج شفتاها إلا عن كلمتين أو كلمات تحمد الله على حضوره ، فشكرها وهو مضطرب غاية الاضطراب ، فالجميع يحفون به ، والجميع ينظرون إليه ، ولكن نظرة واحدة زادته اضطرابا ، فآمال حائرة تنظر إليه تارة وإلى الجمع تارة أخرى ، تتبع نظراته أينما سارت ، وتنصت لكلماته وتتلذذ بوقعها فى أذنيها ، وهو يختلس إليها النظرات ، ويوجه إليها من حين إلى حين بضع كلمات . وسرعان ما يحوّل حديثه عنها مداعبا سعاد أو متلطفا مع والديه وهو فيما بين هذا وذاك قلق النظرات قلق الأفكار مضطرب الحديث . . . فلاحظوا عليه ذلك فعزته والدته إلى تعبه من مشقة الطريق ، وطلبت إليه أن ينهض ليستريح ، فما نام . . . يفكر ويطيل التفكير ، فيما تطويه له الأيام المقبلة . . . سعادة أم شقاء ، مستقبل باسم أم ليال حالكة السواد . . .

أقبل عليها بقلبه وروحه ونفسه ، خفق قلبه لها ، وتعلّقت روحه بها ، وهامت نفسه حولها . . . لم يقو على فراقها أو البعد عنها . وأنّى له ذلك ، وقد استولت على عقله ووجدانه وتغلغلت فى أعماق كيانه ، خفيفة رشيقة ، عذبة الحديث ، فيها رقة وجاذبية ، وفيها جرأة . . . اضطرب لها وزادته حيرة وخجلا فلم يدر مكانه منها ، لكنه قد عرف ووعى أنها حاضره الجميل ، ومستقبله الباسم .

أخذ يمر على منزلها فى خروجه وعودته . وما أكثر ما كان يخرج ويعود ! ويمر عليها . . يخترع لذلك التعلات ، أخذ على نفسه شكرهم على حفاوتهم بأسرته وما أحاطوهم به من وسائل الراحة ، لكنه فكر فأطال التفكير . . . فلواجبات الشكر نهاية . . . فسارعوا إلى إنقاذه . . . أو هم قد سارعوا إلى إغراقه . . . ، فرضى قلبه ، وطابت نفسه بطوق النجاة ، وحبل الأمل . . . سعاد تتهيأ لدخول الامتحان . . . ليعطيها دروساً . . . فكان الدرس ساعة أو بعض ساعة ، فصار ساعات أو هو جزء من نهار . . . فإذا هو النهار كله . . .

سُرّ أحمد . . . لذلك أعظم السرور ، أو قل أحمد بك كما يلذ لأسرته أن

تدعوه بهذا اللقب ، ولم لا ؟ فهو لا يقل عن البكوات فى شئ ، فهو يمتلك عمارة فى أرقى أحياء الإسكندرية تدر عليه العشرات بل المئات من الجنيهات ، وإن كان كاتبا أو رئيس كتّاب ، فليس هذا فى نظارهم إلا منصبا حكوميا تكتنفه الهيبة والوقار . . .

إذن فقد سرّ أحمد بك لذلك أعظم السرور ، وشاركته زوجته فى ذلك ، فقد عَبَّدا الطريق لعلى فأجادا تعبيده . . . فليمش فيه إذن فى أناة ومهل حيث ينتهى به حتما إلى آمال . . . حيث هى فى انتظاره وفى انتظار الخطبة السعيدة .

أكرما عليًّا وزادا فى إكرامه ، بل أكرما إبراهيم بك وأسرته أعظم الإكرام . وخرج محمود من هذا بأوفى نصيب ، كان أقرب أفراد الأسرة لعلى فأشركه معه فى زياراته أحيانا بل غالب الأحيان ، فألفه أحمد بك وزوجته وأحبته آمال وسعاد لمرحه وخفته . . . ولضحكته تلك التى تبدأ فجأة وتنتهى فجأة ، عالية واضحة منفصلة المقاطع ، يخيَّل لسامعها أنها مفتعلة وأن صاحبها يجيد التمثيل . لكن محمود بطبيعته السمحة التى لا تعرف الخداع يُطلقها على سجيتها ، معبرة أقوى تعبير عن روحه المرحة .

لاحظ علىّ أن آمال تحيط محموداً ببعض حبها . . . فنفى ذلك من ذهنه ، فآمال له ، وله وحده تتجه له بكل حبها ، فهو فى نظر والدها الزوج المنتظر ، فلتحطه إذن بأعظم قسط من الحب ، وأوفى نصيب من العطف والحنان .

انتهت إجازة على . . . وحانت ساعة رحيله . . . فاضطرب لذلك أشد الاضطراب ، فقد نسيها وغاب عن ذهنه أن هناك نهاراً وأن هناك ليلاً يعقب النهار وأن هناك وقتاً ينقضى ويزول . . . استيقظ فجأة من أحلامه ليغرق فى أعماق آلامه . . . ترقرقت فى عينيه الدموع ، وخفق قلبه خفقانا شديدا ، بل هى دقات حزينة متصلة ، أخذت تعلو ثم تعلو حتى ضاق بها صدره ، فحاول أن يودعها بكلمات فخرجت من شفتيه زفرات تتخللها كلمات قليلة خافتة ، يَعِدُها بأنه سوف يعود قريباً ، فهو لا يقوى على فراقها لحظة . . . فاغرورقت عيناها بالدموع ...

وكانت سعاد أعظم اضطرابا من آمال ، فلم تقو على إخفاء ألمها لفراق أستاذها . . . فبكت وبكت طويلا ولم يكن إلى إسكاتها من سبيل . . . بكت لأنه علمها أصول الحب والغرام . . . فلم تكن الدروس جدًّا خالصا . . . بل فيها دعابة . . . أحب علىّ آمال ، فخال كل من اتصل بها آمال . . .

ولم يكن أحمد بك بأقل ألماً من ابنتيه أو زوجته ، ولكنه اطمأن لوعوده ، وبها قنعت زوجته ، وإن كان قد ألم بها طائف تطيرت منه فطردته من فكرها شر طردة . . . فكل ما حولها ينبئ بالسعادة لابنتها . . . فتوجهت إلى الله أن يشملهم بعطفه ورعايته ورضاه .

أخذت تجرى وتتدافع ، مسرعة حيناً خفيفة السعى حيناً آخر ، تحاول اللحاق ببعضها ، ولكن ليس إلى ذلك من سبيل ، فهى تعلو وترق وتندفع إلى الأمام فتصدم صخور الشاطئ فى قوة هائلة فَتَتَنَاثَر ذرات الماء فى الهواء صغيرة دقيقة ثم تعود من حيث أتت خائبة مدحورة . . . بل أشد ما تكون قوة وعزيمة ؛ فهى لم تيأس ولن تيأس ، ولن يعرف الضعف إلى قلبها من سبيل . فهى تعاود الكرة مرة ومرة مسرعة سريعة الجرى متدافعة أشد التدافع تصدم الصخر فى قوة ما بعدها قوة لا تضعف ولا تلين .

ابتسم محمود لهذه الخواطر التى ألمت به فى جاسته تلك من هذا الصباح الباكر ، يرقب الصراع المتصل العنيف بين قوى الطبيعة . فهذه ثابتة شامخة بأنفها فى السماء ، واثقة شديدة الثقة بنفسها ، وتلك فى هجوم وانكسار ، فى إقبال وإدبار تريد أن تشق طريقها وإنها لبالغته ، وما تلك النتوء المنتشرة وهذه الفجوات المبعثرة ، والممرات الطويلة إلا النصر المبين وإن طال الزمن وبعدت الشقة .

أرسل محمود الطرف إلى هؤلاء القوم الذين أسرعوا مبكرين إلى الشاطئ يمتعون أنفسهم بمياهه المنعشة وشمسه الهادئة ، قبل أن يغتصَّ حلقه ، وتشتد شمسه فتلفح الوجوه وتحرق الأجساد ، وإذا بموجة هائلة تندفع إلى الشاطئ فى قوة ترتفع لها ذرات الماء عالية فى الهواء ، ثم مسرعة إلى أسفل ، فينهض محمود مذعورا جادا فى الهرب ، فترتفع ضحكة خفيفة رقيقة مرحة أشد المرح ، فيقف فى مكانه جامدا يضحك من نفسه ، ملتفتاً إلى هذا الصوت الذى رده إلى هدوئه. فتقدمت آمال فى خفة وقد ارتدت للبحر لباسه ، وتهدلت خصلات من شعرها فوق جبينها تخفى أطراف عينيها ، فتهز رأسها فى حركة رشيقة فيها خفة ودلال فيعود إليه انتظامه ؛ فيظهر ثغرها وقد افتر عن ابتسامة عذبة وصوت هو أقرب إلى الضحك تحييه تحية الصباح ، وتدعوه إلى مشاركتها فى حظها من الرياضة ،

فيعتذر . . . فتلح أشد الالحاح ، فيعدها بالاستعداد فى الصباح التالى ، فتبتهج أشد الابتهاج وتقول له إنها سوف تكون فى الانتظار فى هذا الموضع وذلك المكان . ثم تندفع فى المياه فى حركة رشيقة بديعة إلى حيث صويحباتها تشاركهن لهوهن البرىء ، ورياضتهن المرحة .

استرجع محمود أفكاره ، فأسف أشد الأسف لهذا الوعد الذى انطلق من بين شفتيه تحت تأثير فتنة هذه الحورية التى خرجت من أعماق المياه رفيقة السعى خفيفة رشيقة تدعوه وتلح فى الدعاء . . . لا شك أنها بلبلت أفكار على بهذا اللحظ وهذه الجرأة ، فاندفع بين يديها يرتل آيات الحب والإعجاب ، حتى ضاق به والداه ، بل ضاقت بهيامه الأسرة كلها ، فإبراهيم بك متبرم بعلى يرى فى هذا الحب الطارىء والزواج الوشيك الوقوع نكبة عليه وعلى الأسرة . يعجب لعلى ولأفكاره تلك التى هبطت إلى الدرك الأسفل . انحدرت بمستوى الأسرة الرفيع السامى إلى مستوى الكتّاب وأشباه الكتاب . . . فيعزم فيما بينه وبين نفسه أن لو تم هذا الزواج فسوف يقطع كل ما بينهما من صلة . . . ثم تنغص عليه هذه الخواطر أيامه ولياليه فيجهر بعزمه إلى أفراد الأسرة ، فيؤيدونه ، ويشاركونه فى الضيق والتبرم ، ويأتلفون جميعاً على مقاطعة على ،وأن يقفوا سداً بينه وبين هذا الزواج .

طافت بذهن محمود هذه الخواطر ، وألمت به هذه الأفكار ، ورأى السحب تتكاثف وتتراحم وتنذر بسوء المصير ، فوطد العزم على الحضور فى الصباح التالى لمقابلة آمال . . . بعد أن همَّ بالانصراف عنها وعدم الاهتمام بها . . . فعلىٌّ أعماه الماضى وأذهله الحاضر ، فهو لا يدرى إلى أين يسير .

— إنك آلمتنى وزدت فى إيلامى ، انصرفت عنى فتغاليت فى الانصراف وقلة الاكتراث ، فعذبتنى . . وأى عذاب هذا الذى تسقينيه على جرعات قليلة بطيئة . . . راقبتك من بعد فهامت روحى بك ، فسعيت إليك ، فما زدت إلا تعلقاً ، ولكنى كلما زدت قربا منك زدتَ بعداً عنى . أصبحت فى حيرة من أمرى بل فى حيرة من أمرك . . . أحاديثك إلىَّ ، بل تلك الكلمات القليلة التى تتفضل بها علىَّ من حين إلى حين ، لا زيف فيها ولا رياء . . . لا مكر فيها ولا خداع ... لم أعهدها من أحد حتى علىّ ... هذا الإخلاص وتلك الصراحة فى كل ما يصدر من قول وعمل . . . إن الصراحة على مر مذاقها تهدى سواء السبيل .

— لاتنظر إلىَّ هكذا يامحمود فإنك تزيد فى إيلامى، فلستُ كما أقرأ فى نظراتك، وفى تلك الابتسامة الساخرة . . . بعديمة الإخلاص ، فاسدة الضمير . . . فحبى لعلىّ إن شئت أن تسميه حبًّا . . . بل صداقتى له كما وضحت لى الآن، لن تتجاوز هذا الحد فى يوم من الأيام . حقيقة لقد أقبلت عليه بكل جوارحى ، أسمع كلمات المديح والإطراء حتى خفَّت ضربات قلبى فتبينت على نقاء ضميرك زيفه ورياءه. فهل لك أن تقبل صداقتى ، وتسمع تلك الخفقة الصادرة من أعماق قلبى ؟

— إنى لفى حيرة من أمرك يا آمال ، ولفى عجب أى عجب لهذا الطلب الذى تودين ، وهذا الأمر الذى أنت عليه عازمة وفيه راغبة . فمن يوم أن تعرفت إلى أسرتكم ، قدأحببت فيكم هذا المرح الذى يُذهب عنا متاعب الحياة ، وهذا الظرف الذى أنسانا مر الليالى وكر الأيام فلن أنسى ما حييت هذه الأيام بل تلك اللحظات التى مرت كحلم جميل .

— محمود . . . إن سمحت لك بشىء فلن أسمح إلا بأن تكون صديقاً لشخص واحد فقط . . . فصديق الجميع ليس صديقاً لأحد .

وكانت جالسة بعيدة عنه فاقتربت منه وهى تبتسم فى عذوبة ورقة ، نظرت إليه نظرات طويلة عميقة . . . خفض لها بصره . . . فضحكت فى مرح ودلال ، فقد كان خجلا أشد الخجل ، يعجب لهذه الجرأة فى الحديث بل الجرأة فى كل شىء . . . حتى شعر بأنفاسها الحارة الملتهبة . . . فازدادت ضربات قلبه عنفاً ، وشدة فترفق ساعداه فضمها إلى صدره يقبلها فى رفق لا يخلو من شدة . . . ولكنه سرعان ما يفيق من هذه النشوة العابرة . . . فتبتسم له وتنصرف . . . ويبقى محمود حيث هو فى حيرة من أمره وفى عجب لهذه الفتاة ، ينكر نفسه أشد الإنكار ويعنفها أشدالتعنيف ، لا يدرى كيف بدأ هذا المشهد المسرحى ولا كيف انتهى ؛ فقد كان سخيفاً حقًّا ، يبعث على الضحك . . . الضحك من نفسه والضحك من آمال ، فقد أنكر جرأتها أول الأمر . . . ولكن دفعته نفسه بل دفعته غريزته إلى هذه القبلة التى أنكرها أشد الإنكار .

انصرفت آمال شاردة الفكر ، تائهة فى بيداء لا أول لها ولا آخر ، فقد شعرت أنها تحب محموداً حبًّا ملك عليها نفسها ، فهى سعيدة أشد السعادة ؛ لأنها استطاعت أن تظفر به آخر الأمر . فسوف تسعد بعذب حديثه وتستأثر بعطفه ورعايته وحبه .

يصل علىّ فى هذه الليلة إلى الإسكندرية . قلقاً أشد القلق يمتلئ قلبه شغفاً لرؤية آمال ، فهو لا ينتظر حتى يصعد إلى أمه وأبيه ، بل يعرج عليها قبل أن يصعد إليهم . . . فتقابله مقابلة فاترة ، ينكرها أول الأمر . لكنها تمادى فى ذلك ، فلا يصدق عينيه ويكذب قلبه ، فيكلمها فى عتاب رقيق ، فتعتذر له بأن صديقاتها ينتظرنها على شاطئ البحر ، وتمضى مسرعة قبل أن يفيق من ذهوله .

يعجب علىّ لها أشد العجب ، ويزداد الأمر حرجا ، فما إن يراه والده حتى يعنفه بشدة لا رفق فيها ، وتنكر عليه أمه هذه الحب الذى لا رجاء منه ولا فائدة فيه ، ويعجبا لحضوره ولم يمض على سفره سوى أيام قلائل ، فيخبرهم والأسى يملأ قلبه ، بأنه حضر لبعض أعماله يومين أو ثلاثة ، وقد كان كاذبا فيما يقول ؛ فقد وطد عزمه وحزم أمره على أن يعتذر إلى رئيس عمله بخطاب يرسله إليه بأنه مريض ، وما هو بمريض . . . فإلى أن ترسل إليه المصلحة طبيبا يعوده ، تمر أيام لا تقل عن عشرة وقد تزيد ... إذن فسوف يمضى أياما سعيدة ويعود إلى عمله قبل حضور الطبيب ، فقد برأ من مرضه . . . شاكرا الله عطفه ورحمته .

فإذا الأمور تسير كما تهوى لا كما يشاء ويهوى . لاحظ على آمال إقبالها على محمود وانصرافها عنه ، فعاتبها برفق أول الأمر ثم بشدة لا تخلو من عنف ... فهو لم يحضر إلا لها ... ولم يعرض نفسه لكل هذا العناء إلا بسببها ، فتشكره على هذا العطف الزائد والحنان الفياض . . . فيود أن تكون له وله وحده ، فلا تحفل به . . . فيؤنبها فتنصرف عنه . . .

بدأ اليأس يتسرب إلى قلبه ، فلا يلتفت إليه ، فكله أمل أن تعود إليه ، فتكذب الأيام ظنه ، وتخيب أمله ؛ فآمال تحيط محموداً بحب خالص وعطف شامل .

يعود علىّ كاسف البال ، مظلم القلب ، شارد العقل والوجدان ، فيلقاه والده ضيقا به متبرما من وجوده ، فيحزم أمره بل يحزم أمتعته . . . ويعود إلى القاهرة غارقا فى بحر من الآلام والأحزان .

احمد كامل

تولستوى

ولد تولستوى عام ١٨٢٨، وهو العام الذى ولد فيه هنريك إيبسن. ومما هو خليق بالذكر أن كلا هذين العبقريين كان يكره الآخر ويحاربه فى أفكاره وآرائه. وليس فى هذا العداء المتبادل ما يدعو إلى الدهشة؛ فتولستوى كان مالكاً لناصية الأفكار الحديثة، ويؤيد الجامعة المسيحية وينكر الفرد، فى حين كان هنريك إيبسن يؤيد الفرد وينكر حقوق المجتمع. فهما بذلك يتابعان نزاعاً موروثاً منذ أجيال متعاقبة. ومع ذلك فكلاهما ثورى؛ فهما، من هذه الناحية فقط، متشابهان، أما فيما عدا ذلك فهما متباينان؛ فلكل منهما طريقة خاصة فى إبداء استيائه من العالم تختلف كل الاختلاف عن طريقة الآخر. كما كان لكل منهما مذهب يتشيع له ويدافع عنه ويقول بأنه خير المذاهب. ليس شك فى أن لكل منهما نفوذه وتأثيره. ولما كانا غير متفقين على رأى، فان المرء ليميل إلى الاعتقاد بأن تأثير أحدهما يتناقض مع تأثير الآخر ويتعارض معه. والواقع أن الأمر على نقيض ذلك؛ فتناقض أفكارهما الشخصية، مع انتشارها وذيوعها فى وقت واحد، قد ضاعف من قوة الفوضى التى كانت سائدة إذ ذاك بين الكتاب والاضطراب المستحوذ على عقولهم.

قلنا إن تولستوى ثورى، وكان الأجدر أن نقول إنه مصلح. فقد كان عدو الشدة والتعسف، وكان يأبى أن تقاوم بمثلها، ويبشر باللين والحلم كما وصفهما الإنجيل. أما إذا كان قد أثار الاضطراب والقلق وأشعل نيران الفتنة، فمرجع ذلك إلى أنه كان يسعى إلى تحسين النظم القائمة وينادى بإصلاح المجتمع الإنسانى.

إن المصلحين والثوريين لعلى جانب عظيم من الخطر إذا هم حققوا غايتهم. على أن ضررهم يبدأ فى الظهور قبل أن يدركوا تلك الغاية كما يبدأ تأثيرهم السيئ فى الانتشار، فيضيفون إلى الفوضى القائمة فوضى من نوع جديد هى أفظع وأفتك؛ لأنها تجمع بين القديم والجديد.

كان تولستوى بسيطاً جداً، ولكنه كان — فى بساطته المتناهية — مؤثراً. وكانت نفسه من النفوس المعذبة، بل أشد النفوس عذاباً. وقد سعى إلى تخفيف ذلك العذاب وتسكين اضطراب نفسه، بجميع ما أوتيه من نبوغ وذكاء. وكان لا بد من عبقرية فذة لتتمكن من تلك النفس، وتهدئ من روعة ما تعانيه من الألم. ومع ذلك لم تفلح تلك العبقرية الفذة. لقد طالما بحث عن الحقيقة ونقب عنها فلم يجدها. على أنه قد وجد اليقين. فتلك الناحية من خلقه هى التى أثارت الدهشة من حوله. لقد انتزع الإيمان كل أثر للشك من صدر هذا الرجل، فبدا مطمئنا هادئاً وديعاً. فكيف استطاع هذا الجبار أن ينتزع عوامل الشك من صدره حتى أصبح لا يرتاب فى شئ على الإطلاق؟ إن لنا عقائدنا واعتقاداتنا، وهى قوية راسخة، ومع ذلك فإنها تترك فى نفوسنا بعض الأثر للريبة والتشكك. أما تولستوى فقد كان ينظر إلى جميع المسائل التى تعرض له نظرتين مختلفتين: فينظر إلى بعضها نظرة هامة عاجلة ويعجل فى حلها خدمة لنفسه، أو كما كان يقول: خدمة للإنسانية، وينظر إلى بعضها الآخر نظرته إلى الأشياء التافهة الباطلة ولا يهتم بها. كان العلم فى نظره شيئاً تافهاً معدوماً. فالأخلاق وحدها كانت فى نظره بمثابة الحقيقة الراهنة للحياة، فكان ملماً بجميع خباياها بحيث لم يعد يشعر بشئ من الشك والتردد.

لقد طالما رغب تولستوى فى ذلك الإيمان وبحث عنه حتى ظفر به فى النهاية! ومع ذلك فقد أجمع من عاشروه على أن عينيه كانتا تشعان ببريق غريب لا يخلو من القلق. وهذا فى الواقع ما كان يجعله مؤثراً، وإن كان المذهب الذى نادى به ومات عليه مذهبا خاطئا سيئ العاقبة، عظيم الضرر.

كان تولستوى من أسرة عريقة فى النسب... وعلى الرغم من أنه — وهو فى السبعين من عمره — أصبح رسول المساواة المطلقة بين جميع الرجال، وزعيم فلسفة شعبية، فإنه ظل محافظاً على نزعته الأريستقراطية تحت ثوب العمال الذى كان يرتديه، وظلت أنانية الكونت تولستوى الشريف الروسى متجلية وراء مذهب الإصلاح أو الثورة الذى كان ينادى به.

أتم تولستوى دراساته فى جامعة قازان القائمة فى أعماق روسيا، ثم التحق بالجيش، أسوة بجميع أبناء الشرفاء، برتبة ضابط فى المدفعية. وكانت فرقته معسكرة فى القوقاز فقضى عدة سنوات يعيش عيشة الترف والبذخ والحرية

المطلقة ، كما كان يعيش السادة فى عهد الرق والاستعباد . لم تكن له فى ذلك العهد عقيدة، فكان لا يؤمن بشىء غير اللهو والمرح. وقد كتب فيما بعد : «لقد عشت فى هذا العالم خمسة وخمسين عاماً — وإذا أنا استثنيت سنى طفولتى — فقد عشت فوضويا عدميا بكل معانى هذه الكلمة ، لا اشتراكيا ولا ثوريا بالمعنى الذى يطلق على هاتين الكلمتين ، ولكن « نهيليستيا » أى خارجاً « على كل النواميس والشرائع . »

كان مطلق الحرية فى القوقاز، فأطلق لنفسه العنان ولم يقف بها عند حد ثم اشتعلت نيران حرب القرم ، وهو فى السادسة والعشرين ، فأغرته نفسه الفتية بخوض تلك المغامرة ، وطلب أن يشترك فيها فأجيب إلى طلبه . كان موجوداً فى سباستوبول عند ما ضرب عليها الحصار ؛ فوصف ، فى ثلاث قطع ، صور الحوادث التى شاهدها، فكانت تلك القطع فاتحة مؤلفاته . وما إن عقد الصلح بين روسيا والدول حتى استقال من منصبه ، وترك الجيش وسافر إلى بطرسبرج وقضى فيها وفى موسكو ثلاث سنوات فى لهو وعربدة . كان مثال « الكونت » الصغير رشيق القامة رقيق الحاشية لبق الحديث، فكانوا يتوددون إليه ويلتفون حوله؛ لما كان يبدو على محياه من ذكاء وقاد، وما اشتهر عنه من النجاح فى المنتديات والأوساط الراقية بل فى بلاط القيصر . ومرت هذه السنوات وهو يتقلب بين أحضان الطيش واللهو ، ولكنها مع ذلك كانت غزيرة الإنتاج بفضل ما وقف عليه تولستوى من الحقائق المقنّعة المستهترة، والمظاهر الخلابة الكاذبة . وفى سنة ١٨٦٠ تزوج ، فهدأت ثائرته وانقطع إلى قصره فى مقاطعة تولا .

لقد كتب، قبل ذلك التاريخ ، «القوزاق» ثم أعقبه بكتابه « طفولة وحداثة وشباب » وهو قصة حياته ، أودعها مع بعض التحريف ، جميع ذكرياته . لقد دلت هذه القصة على ما كان عليه ، وتنبأت بما سوف يصل إليه ؛ فقد كان يتمتع ببعد النظر، وينعم بموهبة الوصف والتصوير، وفى ذلك سر عبقريته . كان ينظر إلى الأشياء على حقيقتها ويراها كما يجب أن تكون عليه ، ويلم بجميع نواحيها ودخائلها ، ويصورها تصويراً دقيقاً ، ويصفها وصفاً شاملاً ، فيتناول فى هذا الوصف حياته ومعيشته ، ويتكلم عن حقيقة القرى والأشخاص والنفوس . فأشخاصه القوقازيون قد رآهم وعاشرهم ؛ لأنه قضى ردحاً من الزمن فى بلادهم وبين ظهرانيهم . لقد تخيل شخصية أولنين على شاكلته، فجعله يمل الحياة المضطربة

المائجة التى تمر فى المدن الكبيرة ، وجعله ينزح إلى تلك القرية الموحشة فى بلاد القوقاز ، وهناك يعلق قلبه بحب ماريان ابنة مضيفه . غير أنه لم يفلح — على الرغم من حبه العظيم لها — أن يروض نفسه ويجعلها شبيهة بنفس ماريان ، بسيطة ، ساذجة ، صريحة . سيحاول تولستوى فيما بعد أن يضرب على منوال أولنين ، ويبسّط حياته وقلبه وعقله ؛ لينزل بها إلى مستوى العمال والفلاحين الذين اختلط بهم . تلك كانت رغبته الصادقة ، ولكنه يظل على ما كان عليه من الإبهام والتعقيد بل أكثر مما كان عليه ، لأنه حاول ألاّ يكون مبهما أو معقّداً .

إن من يقرأ ذكريات حداثته يتبين أنها لاذعة شديدة الوطأة فيدهش . على أنه لا يلبث أن يراجع نفسه متى علم بأن تولستوى كان ينظر إلى الحقيقة نظرة غريبة قاسية . وهذا ما يتجلى عند قراءة كتابه الذى وصف فيه أباه وصفاً شائناً وأظهره للملأ عربيداً سافلاً . أما أن يكون أبوه ذلك السافل العربيد ، وأن يكون قد رآه على تلك الصورة ، وأن تحمله صراحته المدهشة على المجاهرة بذلك ، فهذا دليل قاطع على ما كان عليه هذا الرجل الفذ من صفاء الذهن وقوة الإرادة التى تحمل على الدهشة ، بل تجرح الشعور ما دمنا قد تعودنا أن ننظر إلى الأشياء نظرة خفية مستترة متساهلة إذا ما اتصل الأمر بذوينا . أما تولستوى فكان يعتقد بأنه يكذب لو أنه فعل مثل ذلك . ثم إن الواحد منا يعد نفسه ، كما يعده الناس طرًّا ، عابثاً ، عاقاً ، إذا وصف أباه ولم ينمق الوصف ، فى حين أن تولستوى لا يحمل أى حقد لأبيه ولا يعتب عليه أو يلومه ، ولكنه يصفه لنا على علاته وصفاً دقيقاً . وهو أيضاً يصف لنا نفسه كما يراها . فها هوذا يصفها لنا إذ كان فى السادسة عشرة من عمره ، وقد ضل وفقد إيمانه وبدأ حياته النهيليستية ، أو « حياة العدم » كما يعبر عنها بنفسه :

« إن المذهب الفلسفى الذى سحرنى أكثر من جميع المذاهب الفلسفية الأخرى ، هو مذهب التشكك . وقد قادنى ، ردحاً من الزمن ، إلى حالة قريبة من الجنون . فقد كنت أتخيل أنه لا يوجد ، ماعداى ، شىء أو كائن فى العالم ؛ وأن الأشياء ليست بأشياء ، بل هى مجرد مظاهر كاذبة أتصورها متى كنت فى حاجة إليها ، ثم تتوارى وتتلاشى متى تناسيتها أو كففت عن التفكير فيها . ففى بعض الأحايين كنت ، وأنا تحت تأثير تلك الفكرة الملازمة ، أفقد شعورى إلى حد أن كنت ألتفت فجأة وأنظر إلى الخلف عسى أن يقع نظرى على العدم قائماً حيث

لم أكن موجوداً . كان عقلى الضعيف لا يستطيع التغلغل إلى أعماق المجهول؛ فقد يفقد ، تحت تأثير هذا العمل المرهق ، ما كان عندى من العقائد واحدة فواحدة . وقد كان يجب على أن أحافظ عليها لكى أحتفظ بسعادتى وهناءتى . تلك الجهود الفكرية أكسبتنى شيئاً من حدة الذهن وسرعة الخاطر ، وأضعفت عندى من قوة الإرادة بقدر ما أكسبتنى من الميل إلى التحليل الأخلاقى الذى أصبح عندى بمثابة عادة ، ونزع عن مشاعرى كل طراوة ، وحمل اللبس إلى آرائى . »

تلك – لاشك – صفحة غريبة . وهى تكشف لنا عن دخيلة ما انطوت عليه نفس فتى يافع قد اخترع لنفسه – لمجرد استعماله الذاتى أو ليكون سببا فى تعاسته وشقائه – مذهباً فلسفيا على غرار المذهب المثالى الذى قال به باركلى ولكن فى أقصى حالاته . وهذا المذهب يقول بأن الأشياء على اختلاف أنواعها قائمة على إدراكنا الحسى لها ، ولذلك فإن حقيقتها المستقلة عنا لا بد أن تتلاشى وتختفى ، وأننا نعيش فى عالم من المظاهر نخلقه نحن لأنفسنا . ليس شك فى أن تولستوى – وهو فى السادسة عشرة من عمره – لم يقرأ باركلى ولم يرشده إليه أحد . فالمخيلة التى أوجدها لنفسه هى من صنع قواه المدركة الحادة المرهفة .

وهاك مثلاً آخر من الهذيان الذى قادته إليه حساسيته ويتجلى فى كتاباته :

« عند ما أتذكر عهد طفولتى والحالة العقلية التى كنت أتمتع بها آنئذ ، أدرك معنى الجرائم الفظيعة الوحشية التى ترتكب بغير ما غاية وبغير ما رغبة فى الإيذاء، بل بدافع الفضول واللاشعور ، أو بدافع الحاجة إلى ارتكاب فعلة ما . ثم إنه تمر بالمرء أحياناً فترات من الزمن يرى فيها المستقبل فى ألوان قاتمة وأوضاع متباينة ، حتى ليخشى العقل أن يقف حيالها أو يتناولها بالتفكير فيغمض عينيه لكيلا ينظر إلى هذا المستقبل ، ويقف فعل العقل والتفكير ، ويحاول أن يقنع نفسه بأنه لن يوجد مستقبل ولم يوجد ماض . ففى تلك اللحظة التى يقف عندها الفكر عن مراقبة كل وازع من الإرادة ، وتصبح الغرائز المادية عماد الحياة ورائدها ، فى تلك اللحظة أدرك ما يرتكبه الطفل القليل الاختبار بلا تردد ، وأفهم لماذا يشعل النار ويذكى ضرامها بأنفاسه ، وينظر إليها بابتسامة ساذجة فضولية وهى تلتهم البيت الذى يرقد فيه إخوته وأبويه وكل الذين يحبهم حبًّا عميقاً . ففى تلك اللحظة التى تتوارى فيها الفكرة خلف حجب اللهو أو

النسيان والعدم ، يقف القروى اليافع إلى جانب الدكة التى يضطجع عليها أبوه الشيخ وهو ينظر إلى شفرة المعول التى تلمع فى يديه ، وفجأة ترتفع تلك اليد بما تحمل فى قبضتها وتهوى ، وتتحول نظرة الفتى من المعول إلى الدم الذى يتفجر من الرأس المحطم . إن المرء ليجد ، إذ يكون فى مثل تلك الحالة ، نوعاً من اللذة فى الانحناء على حافة الهاوية السحيقة وترديد هذه الفكرة : « لو أننى أنحدر إلى أسفل ورأسى إلى الأمام ! » أو أن يضع فوهة مسدس أو غدارة محشوة على جبينه ويهذى قائلا : « لو أننى أضغط على الزناد ! » أو أن ينظر إلى شخص عظيم الشأن محفوفاً بمهابة الجميع ويقول لنفسه : «لو أننى أتقدم إليه وأجره من أنفه وأقول له : « إيه ! أيها الرجل الطيب هلا أتيت معى ! ». يقيناً إنه لجنون وإن كان الوصف جذاباً . . . »

هذا ما ورد فى كتاب « القصة الروسية » للكونت دى ڤوجويه . وهو يقدر أن ذلك يعد نتيجة لإحساس روسى بحت أو « نوبة » شائعة فى روسيا باسم « أوتشايانييه » ومعناها « اليأس » . وإن كان من النوع الذى ينطوى على التعصب والوحشية والسخف المتعمد المقصود ، كما أنه نوع من السخط المشوب بالكآبة والحزن والاستسلام الذى يأباه تولستوى ؛ لأنه استسلام الذات والنفس والحياة لعوامل قوية مستترة خطيرة مغرية رائدها الخطر . أو بعبارة أخرى هو نوع من السحر المخيف المسف وإن كان فى ظاهره بسيطاً ساذجاً . . . ثم يستطرد ڤوجويه حديثه بقوله : « مسكينة روسيا ! تلك هى روحك وهى روح طائر مائى يحلق فوق العاصفة ويرفرف فوق الهاوية ! »

هذا ما كتبه ڤوجويه عام ١٨٨٦ . وإن تاريخ روسيا الحديث ، تاريخها عقب ثورتها الأخيرة ، كفيل بأن يعزز هذا التشخيص الدقيق لذلك الداء الوبيل .

لقد كان تولستوى ، مع ما كان عليه من عبقرية فذة ، روسيًّا بحتا وروسيًّا كبيراً . كان روسيًّا بكل قطرة من دمه ، فكان لا يخلو من أية حاسة أو أى شعور أو عقيدة أو نزعة أو سخافة روسية . وهذا ما جعله يصف روح بلاده وروحه ، ويعبر عن حقيقتها تعبيراً صحيحاً دقيقاً . إنه يصورها تصويراً حسيًّا يحمل على الدهشة والعجب . على أن هذا التصوير يخفف عناء البحث والتفكير على قارئه ويجعله يفهم خباياها ويشعر بها . إنها روح مستسلمة للأحلام ، فلا تجد فرقاً بيِّناً بينها وبين الحلم الذى تسبح فيه أو الحقيقة التى تلمسها . ومع ذلك

فتلك الروح تفكر وتعقل ، ولـكنها تناقش وتقيم البينات والحجج للتدليل على صحة خيالها أو على الحقيقة . هذه الروح تتمتع بكثير من الفضائل . وبين تلك الفضائل فضيلة ممتازة هى الصبر عند الشدائد . إنها أقدر من سواها على تحمل الألم والجلد . ويظهر أن استسلامها لا يكلفها شيئاً ، وإن كان فى الواقع يحملها أشياء ؛ لأنها لا تستطيع كتمان ما يعتريها من ثورات فجائية يتجلى فيها حقدها ثم ينفجر . إنها لا تنظر إلى الزمن والفضاء كما ننظر إليهما ؛ فليست لها فكرة ثابتة عنهما ؛ لأنها تضـل وتتيه فى دياجير الزمن والفضاء . إنها روح ضالة شريدة معذبة تستسلم فجأة لنزعاتها ونزعاتها مهما كانت مسفة أو خطيرة. إنها روح مريضة. إن القصص الروسية التى لقيت رواجاً عظيماً ، وبصفة خاصة قصص تولستوى قد كشفت عن صحة ذلك . تلك كانت روح روسيا قبيل الحرب العالمية الأولى . وهى روح مترددة غير مستقرة . فقد خانت كل من وثقوا بها ، كما خانت نفسها بسذاجة وجهل ، وقد كان ذلك أشد خطراً عليها من أعدائها .

إن « حرب وسلم » و « أنّـا كارنين » أشهر مؤلفات تولستوى وأبدعها . ولـكنه عند ما تحول من قصصى إلى رسول مبشر ، أصبح يحتقر عمله كقصصى ، وبصفة خاصة هذين المؤلفين. لاشك فى أنه أخطأ فى تحقير هاتين الدرتين الخالدتين، فقلّ أن يوجد فى الأدب ما يضارعهما ، وقل أن يوجد بين الأدباء من وضع فى مؤلفاته من الحقائق ، وضمنها من الوقائع ، وكشف عن خفايا النفوس وأضاءها مثله . وقل أن يوجد من تناول الحديث عن خبايا تلك الآلة المتحركة ، ووصفها فى دورانها السريع وحركاتها الظاهرة والخفية وذاتيتها ونزعتها الخاصة وخصائصها كما تناولها تولستوى . فـكأنه كان يفـكك أجزاء تلك الآلة لـكى نقف على تركيبها وأسرارها .

إن كتاب « حرب وسلم » هو وصف للحياة الروسية فى بدء الجيل الماضى خلال حروب نابليون . إن تولستوى يبعث هذا الماضى من قـبره . فأحد الأشخاص هو إمبراطور فرنسا ، والآخر هو قيصر روسيا . إنهما ولا شك من العظماء وهما زعيمان . على أن تولستوى لا ينعم عليهما بهذا اللقب ، فلا يوجد عنده زعيم . إن تولستوى عبقرى ، وهو لذلك لا يكتفى بأن يرى ، بين الحوادث البشرية ، السبب الظاهر الجلى ، على الرغم من أن هذا السبب قد يكون أحياناً أوضح

من الحقيقة . إنه يؤمن بالأسباب الصغيرة المتعددة فيبحث عنها بين الجماهير والجموع ؛ ولذلك رأى أن الذين رأسوا الحركة وتزعموها هم من العامة لا أهمها . يوجد فى « حرب وسلم » شخصية بذّت الأباطرة وسمت عليهم ، وتلك الشخصية هى الجموع والجماهير وعامة الشعب . وهذا ما يزيد فى ثروة تلك القصة ويرفع من مكانتها . وهذا ما يجعل التجانس كبيراً بين هذا الكتاب وبين الحقيقة الحية .

فى وسط تلك الجموع اختار تولستوى أشخاصاً يمثلون، أو يمثل كل منهم إحدى خصائصها . فكلما ازدادت مظاهر هذه الجموع ازدادت الوحدات التى تؤلفها . وأحد هؤلاء الأشخاص الذين تعرض لهم تولستوى بكل دقة وإخلاص هو الكونت بطرس بزوكوف ، وهو روسى بمعنى الكلمة ، وهو ذكى عالم وديع سهل الانقياد متحفز للشهوة سريع الخاطر رقيق الحاشية جدير بكل تبذل وجنون ، ميال إلى الكسل كما أنه ميال إلى العمل المتواصل المرهق . وهو إلى هذا كله شريف لا يتقهقر أمام ارتكاب نقيصة أو جرم . كانت النار تلتهم موسكو دون أن يعلم أحد من أشعل ضرامها ، وكان بطرس بزوكوف فى قصره ، فغادره فى زى قروى واختلط بجموع الشعب . كان يحمل تحت معطفه خنجراً حاداً ؛ ربما كان يقصد قتل نابليون . وهو إن قتله فلكى ينتقم لروسيا . وهو يعلم ما كان ينتظره من وراء ذلك . على أنه لو قتل نابليون فغايته من ذلك التضحية . ومجمل القول أن ما كان ينتظره لم يثنه عن عزمه بل زاده حمية . إن قتل نابليون ، لو تم ، كان سبباً فى موته ، هو نفسه ، وهذا ما كان يبتغيه ، وهذا ما لم يفعله. إن البون شاسع بين ما يريده بزوكوف وبين ما كان يجب أن يقدم عليه . فبين إرادته وتنفيذ ما يريده يجثم كل ما فى نفسه من تشكك وتردد.

وقع بزوكوف أسيراً بيد الفرنسيين، فكانوا يعاملونه بمنتهى القسوة والوحشية . لشد ما كان يتألم ! ولكنه يلتقى وهو فى الأسر بقروى يدعى أفلاطون كراتايف. وهو رجل معدم ونكرة بالنسبة له . وهو إلى جانب هذا عار عن كل فكرة بعيد عن كل تفكير، إذا نزع حذاءه فاحت من قدميه رائحة كريهة حادة . وكان يجلس القرفصاء ويضم يديه إلى ركبتيه ويظل شاخصاً إلى بزوكوف . ماذا كان يريد من بزوكوف ؟ لاشئ على الإطلاق ، إلا أنه كان ينظر إليه . وبزوكوف من جانبه كان ينظر إلى كراتايف . فماذا كان يريد منه ؟ هل يريد درساً أم يريد نصيحة وإرشادا ؟ ولكن أى درس يمكن أن يرجوه بزوكوف العالم من هذا

الغبى الجاهل ؟ . . . هنا تتجلى الفلسفة التى سيعتنقها تولستوى ، وتصبح رائده وموضوع رسالته . إن بزوكوف قد اكتشف الحقيقة فى عقلية أفلاطون كراتايف البسيطة الساذجة . . . وأية حقيقة ياترى ؟ . . . طهر الكائن وزهده واستسلامه للقدر .

وتبادل بطرس بزوكوف بضع عبارات مع أفلاطون كراتايف . إلا أن ما قاله أفلاطون كراتايف لا يعدو حد السخف . . . بعض ألفاظ سقيمة عقب عليها بابتسامة وشرحها بما يفيد عجزه عن عمل أى شئ ، وأن الحال يجب أن تكون كما هى عليه ، وأن خير ما يعمل هو قبول ما لا يمكن رفضه ويتعذر تبديله . يجب الاستسلام لذلك بغير مقاومة . وأخذ التعب من أفلاطون كراتايف حتى لم يعد يقوى على السير ، فقتله الجند برصاصهم دون أن يبدى أية مقاومة أو تأخذه هزة اضطراب أوغضب . لقد مات وهو يتألم . واتخذ بطرس بزوكوف من كراتايف رائداً له . . . هذا مؤثر للغاية وهو سخيف أيضاً . وفى مثل ذلك دعاية إلى هدم التفكير وانعدام الفكرة . فهل يمكن أن تؤدى جهود الفكرة البشرية إلى مثل ذلك الانتحار للفكرة ؟ . . . الواقع أن ما فعله بزوكوف سيفعله تولستوى .

أما القصة الثانية «أنّا كارنين» فمكانتها لا تقل عن مكانة « حرب وسلم » . فيها واقعة غرامية تنمو وتتطور بتطور الحوادث المزعجة التى تتخللها ، وفيها خاتمة . أما الفن فيها فيتساوى مع سابقتها كما تتساوى قوة الابتكار والتنبؤ التى يظهرها المؤلف فى معرفة النفوس وحيرتها واضطرابها . ويوجد فى «أنا كارنين» كما فى « حرب وسلم »شخص اودعه تولستوى بعض أفكاره الهامة . وهو فى هذه القصة بمنزلة بزوكوف فى القصة الأولى . هذا الشخص يدعى : ليفين .

قسطنطين ليفين رجل نبيل ، يعيش فى الريف طبقاً لعادات خاصة . وهو شريف النفس ، طيب السريرة ، كان يود أن يحسن حالة القرويين ، ويخفف عنهم وطأة الحياة ، ويحطم أغلال الاستعباد التى تقيدهم متأثراً بالأفكار الحرة التى كانت تشتعل فى نفوس بعض الروسيين . على أن تعصبه لمذهب الحرية المدنية والدينية لم يكسبه إلا المتاعب واليأس . مات له أخ كان يحبه ويقضى حياته بصحبته ، فأثر هذا الحادث فى نفسه تأثيراً كبيراً . وإلى جانب ذلك كان يقرأ شوبنهاور ، فلم يربح من تلك القراءة شيئاً ، وأظلمت الدنيا فى وجهه ، وتملكت

الكآبة نفسه، وتحولت تلك الكآبة إلى نوع من الفلسفة والاستسلام . وصار يعتقد أنه ليس إلا ذرة حقيرة ضئيلة تكونت فى اللانهائى ، وسارت مع الوقت فى هذا الفضاء وتألبت مع المادة ولا بد أن تنفجر وتتلاشى كالفقاقيع التى تطفو على سطح الماء . « هذه الذرة هى أنا » . أزعجه ذلك القياس وتأثر منه كثيراً ، ولما لم يكن إلا قياساً ، فإنه لم يلبث أن هجره ، وإذ ذاك ضل كل الضلال ولم يعد يعرف شيئاً إطلاقاً . وخاطب نفسه : «ما دمت لا أعلم من أنا، ولماذا أنا هنا فى هذه الحياة ، فإن الحياة تصبح أمراً مستحيلا . ولما كان المستحيل أن أدرك ذلك فلا شك فى أن الحياة مستحيلة . »

من السهل أن يقول المرء إن الحياة مستحيلة وهو مع ذلك يحيا . فلو أنه كان يتمتع بقليل من الإدراك العقلى لوجب عليه أن يقول : « إننى أحيا وإذن فالحياة ليست مستحيلة . » ولكن هذا الإدرك العقلى لا يوجد . وهو عند ليفين أقل منه عند أى شخص غيره . ثم إنه يقول لمن يريد أن يستمع إليه ويقول كذلك لنفسه : « لا يجب أن يحيا المرء لنفسه ، ويجب أن يحيا لله . » ولما كان مظهره وهو يقول ذلك يدل على الثقة والطمأنينة والهناءة ، فهيئته هذه تدل على أنه على حق . لقد سُرَّ ليفين لتلك الحقيقة، وانضم إلى فكرة فيدور وخاطب نفسه بقوله : « كل الشر ناتج عن سخف العقل ووضاعته ! »

لقد استعاض هذا الرجل بفيدور عن جميع الفلاسفة وشوبنهاور . لقد قرب الكونت ڤوجويه فى كتابه « القصة الروسية » بين ارتداد بزوكوف وارتداد ليفين إلى الإيمان . وأضاف تلك الملاحظة : « فى ذات يوم التقى تولستوى وسوتائف ، كما التقى بزوكوف وكراتايف ، وكما التقى ليفين وفيدور الرجل الطيب » .

كان سوتائف قرويا من تفر . اخترع فلسفة أو دينا نادى ، به وأخذ ينشره فى نزهاته وأحاديثه . بدأ فيه بالإنجيل، فأخذ يفسره على طريقته بإخلاص وبغير تعقل . واستخلص منه مذهباً يدعو إلى الإخاء وتنظيم الحياة المشتركة والشيوعية. وهكذا كما رأينا بزوكوف وليفين يلتحقان بمدرسة كراتايف وفيدور الرجل الطيب ، نرى أن « مؤلف حرب وسلم » و « أنا كارنين » وفيما بعد مؤلف « اعترافى » و«دينى» ، و« ماذا يجب فعله ؟ » يلتحق بمدرسة سوتائف الرجل المتعصب .

وتغيرت جميع أساليب حياته .

ففى «دينى» يقص أنه بينما كان فى موسكو مر بباب بوروفيتزكى ، فوقع نظره على شيخ متسول مريض مقطوع الساق ومعصوب الرأس ، وتأهب تولستوى ليحسن إليه ببعض النقود ، إلا أن المتسول وقف فجأة بقدر ما تسمح له حالته ، واندفع هاربا مذعوراً ؛ فقد رأى جندياً شابًّا فى أحسن الهندام جميل الوجه مقبلا عليه ومهدداً ، وطارده الجندى وهو يقذفه باللعنات ؛ فقد كان من المحظور على المتسولين الجلوس بباب المنزل الذى يقيم فيه بوروفيتزكى . وانتظر تولستوى حتى داناه الجندى وسأله :

— هل تعرف القراءة ؟

— يقيناً !

— وهل قرأت الإنجيل ؟

— بالطبع !

— وقرأت فيه تلك العبارة : « إن من يطعم جائعاً وما يتبعها . . . »

وكان الجندى يذكر تلك العبارة ، فبدا عليه الاضطراب وأخذ يسائل نفسه هل هو أخطأ مع أنه يقوم بواجبه العسكرى . وأخذ يبحث عن جواب يلقيه على نفسه وعلى تولستوى الذى يخاطبه . . . وفى النهاية قال لمحدثه :

— وأنت إذا كنت تعرف القراءة فهل قرأت اللائحة العسكرية ؟

واضطر تولستوى إلى الاعتراف بأنه لم يقرأها . فاستطرد الجندى :

— إذن اسكت !

وابتعد وهو يهز رأسه ، ومشى وهو يختال عجباً .

فلماذا كان يحاول أن يزعج أفكار الجندى ، ويحول بينه وبين القيام بواجبه ؟ لم يكن يتعمد ذلك ولم يفكر إلا فى هدايته إلى أرجح واجباته وأسماها . ولكن هذا الجندى كان يرى أن واجبه فى تلك اللحظة هو فى اتباع الأوامر . على أنه ليس من المعقول إلغاء لوائح البوليس والقوانين ؛ لأن الإنجيل يأمر بالإحسان . إن تولستوى يغالى فى تعاليمه ، والجندى كان على حق إذ يلاحظ هذه المغالاة ويرفض أن يحطم شعوره بواجبه مقابل مغالاته فى تطبيق سنة الإنجيل .

كان تولستوى يحب الحقيقة إلى حد الشغف والتدله . كان يحبها لأنه طالما رغب فيها وتمناها ، وطالما تألم بسببها قبل إدراكها . هذا هو التعليل الوحيد

الذى كان يقدمه هذا الرجل العظيم ويجيب به على كل من كان يعارضه فى رأيه . وهو تعليل عجيب . إن السبب فى كل ما وصل إليه ناشىء عن حساسية مرهفة كانت تلازمه منذ طفولته، ولم تضعف الأيام ولا السن من شوكتها بل زادت فى حدتها . إنه كان لابد له أن يكون رقيق الشعور مرهف الإحساس متيقظ الذهن إلى حد يؤثر فيه أدنى اعتراض لإدراكه العقلى ، لـكى يتمكن من وصف شخصياته فى مختلف الأزمنة وتصوير نفسيتهم وشعورهم . ولـكن مثل هذه الحساسية كانت عذاباً مستمراً ؛ فقد كانت تحوّل كل فكرة من أفكاره إلى قلق واضطراب . إن مذهب التشكك الذى طالما ارتاح إليه غيره ، كان عند تولستوى مصدراً لأفظع الأحزان والآلام . والحقيقة التى كانت فى نظر غيره موضع الفضول كانت محط أنظاره وسعيه يبحث عنها كما يبحث الغريق عن حبل الإنقاذ، ويحاول الوصول إليها عسى أن يدرك بوساطتها شاطىء الخلاص، حتى إذا أدركها قبض عليها بيديه القويتين، ولن يقوى إنسان — أيا كان — على أن يجعله يتخلى عنها أو ينكرها .

وليس أدل على تمسكه بمذهبه وارتياحه إليه من قوله يخاطب بعض أصدقائه : « إذا أنت أدخلت قطعة من القش بين آلات ساعة وقفت جميع أجزائها وكفت عن الحركة . ولـكنك إذا انتزعتها عادت جميع الأجزاء إلى سيرها الطبيعى ، وهذا دليل قاطع على أن هناك ضرراً من وجود قطعة القش بداخل الآلات . والأمر كذلك إذا أنت أدخلت فى حياتك مذهباً خاطئاً . . . تسألنى لماذا أومن بأن مذهب المسيح هو المذهب الصحيح ، وتطالبنى بالدليل على ما يحملنى على الاعتقاد بهذا المذهب ؟ . . . إذن هاك الدليل : عندما تدخل الفكرة المسيحية الحقيقية إلى أعماق النفوس ، فإن الحياة بأسرها تنتظم وتصبح جلية هينة منسجمة ، ويتلاشى التردد وتزول الاعتراضات . . . إننى أعتقد بمذهب المسيح لأننى لا أعرف مذهبا آخر يستطيع أن يهب مقداراً من السعادة يضارع ما يهبه هذا المذهب إلى مثل هذا العدد العظيم من الناس إن لم يكن إلى الناس طرا . لا نزاع فى هذا اليقين ! إن السفسطائيين يحاولون عبثا طمس معالم هذه الحقيقة . والـكتّاب أمثال نيتشه الذين يتبجحون فى تأييد نظرياتهم الفردية ، ويدعون بأن العطف والشفقة ضرب من الضعف ، لا يمكن أن يكونوا مخلصين . إن مذهبهم كاذب . والمذهب المعارض لمذهبهم واضح تمام الوضوح لمن يبصرون . »

لقد ذهب بعض الكتّاب — ومن بينهم الكونت دى ڤوجويه — إلى القول بأن تولستوى كان متصوفاً . على أن الذى يتبين من كتاباته وأقواله أنه لا يدين بهذا المذهب ، وأنه « واقعى » أو — إذا شئت — اختبارى . فقد قام تولستوى بكثير من الاختبارات فى الحياة ، لم يفلح بعضها فأثار حزنه ، وأفلحت الأخيرة ونجحت نجاحاً باهراً . أما فلسفته فليست — كما قيل — عوداً على المسيحية فى أول عهدها ، ولكنها تفسير للمسيحية . إنها تؤمن وتدعى لنفسها الحقيقة ، وإن كانت بعيدة كل البعد عن المسيحية التى تقول بها الكنيسة الروسية بل الكنائس أجمع . ويكفى للتدليل على ذلك أن نقرأ النبذة الآتية : « كل شئ كان يعزلى الحقيقة بالمعنى الذى وجدته فى مذهب المسيح ، ولكننى مكثت طويلاً دون أن أفهم السبب الذى جعلنى أكتشف شريعة المسيح كما لو كنت أكتشف شيئاً جديد العهد ، وإن كان قد مرّ على تلك الشريعة ثمانية عشر قرنا توافر خلالها آلاف الناس ووقفوا حياتهم على دراسة هذا الإيمان . . . »

تلك أنانية مدهشة مع ما فيها من تواضع غريب . على أن ما يبدو على تولستوى من القلق ليس مستغرباً . لقد اكتشف ، أو اخترع المسيحية كما لو كانوا يكتشفون الآن أمريكا فيجدون أنها ليست كما كانوا يتوهمونها أو كما كانت عليه فى عهد كولمبوس ! أما كيف صنع تولستوى مسيحيته فواضح من حديثه لبعض أصدقائه : « عندما أقرأ عظة الجبل أتبين أن الحقيقة كما يجب أن تكون تتجلى فى عباراتها . فكل ما جاء فى الإنجيل مطابقاً لما ورد فى عظة الجبل ، فأنا أسلم به . أما الباقى فأنا أهمله أو أرفضه . » . وهكذا فإن العظة التى ألقاها المسيح وهو على الجبل ليس فيها ذكر ألوهيته ؛ ولذلك كان ينكر تولستوى ألوهية المسيح . هذا تعليل غريب . وإذا قيل لتولستوى إن هذه العظة أخلاقية ولا معنى إذن لأن تتضمن تعزيزاً لألوهية المسيح ، فإنه كان يتبرم لهذا الاعتراض ولا يجيب عليه ؛ إذ كان شديد التمسك بعقيدته ولا يقبل أى اعتراض عليها .

ليس شك أن التفسير التولستوى لعظة الجبل لا يخلو من نزعة صبيانية . لقد فصل تولستوى تلك العظة عن الإنجيل ، وجعل منها إنجيلا له يفسره كيفما شاء ، ويريد أن يجعل منه برنامجاً لحياة من نوع جديد كان يطالب بتحقيقه .

يوجد نوعان من الحياة البشرية أو بعبارة أصح من الحياة فى المجتمع

ـ لأن الحياة الفردية بمعنى الكلمة لم توجد ـ وهذان النوعان هما الحياة الريفية والحياة العملية . فإذا أسف فيلسوف لاندفاع الناس فى معترك الحياة العملية فليس فى ذلك ما يؤاخذ عليه . وإذا أسف على الحياة الريفية فيمكن أن يقال عنه بأنه شاعر . وإذا كان يتوقع عودة الإنسانية إلى الحياة الريفية فيصح أن يقال عنه إنه حالم . أما إذا جاء هذا الحالم إلى ميدان الحياة العملية وأراد أن يفرض على من فيها العودة إلى الحياة الريفية ، فأقل ما يقال عنه إنه مخادع . فإذا خدع تولستوى نفسه فله عذره ، وإن كان لا يخلو من الخطر؛ لأن تأثيره كان عظيما.

لقد أنكر تولستوى كل وطن باسم الاشتراكية البشرية . لقد كان للروس قبيل الحرب العالمية الأولى كثير من المعلمين غير تولستوى . وقد ضللوا بهم حتى لقد انسحبوا من الحرب قبل نهايتها ؛ وما ذلك إلا عملا بتلك التعاليم الخطيرة .

إن مبدأ عدم مقاومة الشر هو أحد المبادىء الرئيسية التى يتضمنها برنامج تولستوى . وقد تذرع الروس بهذا المبدأ ليشتروا وهنهم وخورهم وانسحابهم من الحرب ، لم يقاوموا الشر الذى كانت تمثله ألمانيا فى ذلك العهد ، وكذلك لم يقاوموا الشر الذى استفحل فى بلادهم ، فظلت خلال سنوات عدة مسرحاً للفوضى وإراقة الدماء . وإذا كانت روسيا قد استعادت الآن مكانتها فلأنها تخلت عن هذه التعاليم بعد أن تبين لها خطؤها ، ووقفت فى وجه الشر وقاومته .

كان تولستوى يأبى أن ينظر إلى النتائج . وكثيرون من كتاب الروس من هم على شاكلته . لقد وضع مبادىء مذهب ، وهو يحافظ عليه مهما كانت نتائجه. يقيناً أنه كان لايرغب فى أن تصبح روسيا ـ فى بعض عهودها ـ مسرحاً للشر؛ فمذهبه ، كما فكر فيه ، لا يرمى إلى تلك الغاية ولا يذهب إلى هذا الحد ، على أنه كان سبباً لتلك النتيجة ، وهذا ما يستحق اللوم عليه .

كان تولستوى فذًّا فى عبقريته ، فذًّا فى تفكيره وبسط آرائه ، فذًّا فى معيشته . فقد كان يرتدى لباساً قيل إنه شبيه بلباس الموجيك أو القرويين وإن كان فى الواقع لباس العمال . كان هذا اللباس مؤلفاً من معطف أسود معقود عند المعصم ، وملتصق بالجسم عند الخصر بزنار من الجلد ، ومفتوح عند العنق تحت لحيته البيضاء المسترسلة على صدره . كان هذا اللباس ملائماً ومناسباً

وأكبر الظن أنه اختاره لنفسه مرضاة لراحته، أو تشبها بتلك الشخصية التى نادى بها تطبيقاً لمذهبه. لقد كان هذا المذهب على شئ من الشدة؛ فهو يفرض نوعاً من الحياة فى منتهى التقشف، ومثيراً للضيق والألم. على أن الكونتس تولستوى كانت إلى جانبه ساهرة على راحته، تستنبط الحيل للتوفيق - بقدر الإمكان - بين ما يفرضه هذا المذهب وبين ما تتطلبه الحياة العادية.

حدث أن ألم به مرض ثم أبل منه، فأشار الطبيب بأن يعطى قليلا من النبيذ مع الطعام، ليقاوم الضعف الذى خلفه المرض. وكان مذهبه يحرم شرب النبيذ فوجدت الكونتس حلاً مناسباً لإرضاء الطرفين، إذ فكرت فى أن تستعيض عن النبيذ بعصير العنب المختمر. هذا العصير - وإن اختلف الاسم - ليس فى الواقع إلا نبيذاً، ولكنه من نوع محلل لا لشئ، إلا لأنه لا يحمل اسم النبيذ.

وحدث مرة ثانية أن فكر تولستوى ألا يتقاضى من ناشرى مؤلفاته جعلا؛ لأن مذهبه يدعو إلى ذلك، ولأن الفن ليس مهنة يمنح عنها أجراً. والمرء لا يكتب إلا لينشر فكرته ويقدمها هبة لإخوانه؛ هذا ما يأمر به الإحسان وتدعو إليه الصداقة. وكشف تولستوى عن فكرته لزوجته، فهالها ما سمعت واستاءت، ولكنها تمكنت من معالجة الأمر وقالت له: «صحيح. هذا جميل ولكن فيما يتعلق بمؤلفاتك الحديثة؛ فهى ملائمة لفكرتك النبيلة التى تقوم عليها مبادئ رسالتك، وأنا أقرك عليها يا لييف نيقولائيفيتش، أما قصصك التى نبذتها عنك وأنكرتها أمثال «حرب وسلم» و «أنا كارنين»، فهى مؤلفات شعبية وضيعة لا تصلح للوعظ والإرشاد ولا لهداية أحد، ولذلك فهى تختلف كل الاختلاف عن غيرها.» واستقر الرأى على ألا يتقاضى تولستوى كوبيكا واحداً من بيع مؤلفاته الأخلاقية - وتلك كانت لا تباع بطبيعتها - ويستمر فى تحصيل حقوق التأليف عن قصصه المنبوذة المحتقرة - إذ أنه كان ينبذها ويحتقرها - وتلك كانت رائجة وتباع بكثرة مدهشة. إنه اتفاق مدهش عظيم ومضحك فى ظاهره. ولكن هل هو مضحك فى ذاته؟ إنه يوضح بجلاء أنه يصعب على الإنسان أن يعيش كما يريد، وكما يقرر أن يعيش طبقاً للفكرة التى يكونها عن الجمال...

إن مثل هذا العيش كئيب لا يسر. ومما يزيد فى كآبته أن تولستوى نفسه كان يتألم منه مُرّ الألم. وخير دليل على ذلك هو موته. كان قد تجاوز

الثمانين، وكان يعيش فى مزرعته فى ياسنايا بوليانا محاطاً بذويه وعشيرته . وفى ذات يوم غادرهم خلسة . . . إلى أين عساه يذهب ؟ إلى مكان قصىٍّ مجهول ينشد فيه حريته . . . أية حرية ؟ . . . حرية العيش طبقاً لعقيدته وإيمانه . كان قد اعتزم أن يبتعد عن حياة تُنظم وتُعَدّ له بما يناقض مذهبه ويتعارض معه . وهكذا أصبح تولستوى العظيم الخالد مشرداً فى الطرقات ، يمشى فى العراء بعيداً ، ويفقد ما بقى له من القوة شيئاً فشيئاً . ثم يفاجئه البرد فيقضى نحبه فى العراء . . . مسكين ذلك الشيخ الهرم . . . لقد هجر كل شىء وترك كل شىء ؛ ليكون فى لحظة موته شيخاً مسكيناً . . .

سليم سعده

الريف فى مصر

ذكريات الصبا من الأزمان خلجات الأفراح والأحزان
صور مسّها فؤاد ذكور عاش فى أمسه طليق العنان
أين منى الملاعب الخضر فى الريـ ـف وهمس الأفنان والغدران ؟
يوم أمشى إلى الفَراش صيودا أخرسَ الخطو باديَ الإمعان
باسطَ الكف من رجاء وخوف لاهثَ الصدر فى البعيد المدانى
والسواقى على الفِراض تعانى ظمأً رغم مائها للدهان
فى أنين من الوَجيعة باكٍ صارخ البثّ ذائع التحنان
ساقها مُرْهَقٌ من الأين أعمى ساقه السوط فى مدى الدوران
يُثقل الخطوَ إن تمهّل عنه وإذا ثار همّ كالعجلان
كأسير فى عهد نيرون يشقى بهظته فظاظة الرومان
نُظُمٌ للقوىّ تحجل فيها خطوات الإنسان والحيوان

أين ذاك الصفصاف يا ريف يدنى هدباً من قضيبه الريان ؟
يمسح الماء فى الجداول بالرفـ ـق ويحنو عليه فى الجريان
يبسط الظلَّ بارداً وظليلا ويلقِّى الجليسَ طيبَ المكان

أين يا ريف فى الصباح عذارَى ساقيات يَمِسْنَ بالملآن ؟
راجعات وقد صدرن عن الما ء بطرف مخالس وسنان
يتنادرن ساخراتٍ ويضحكـ ـن بثغر منظم جذلان
ويخافتن فى الحديث إذا ما عرض الوجد من هوى الفتيان
مُعْجَبات بخالد وسليم ساخطات على الفتى علوان

أين ياريف صيحة الديك فى الفجـ ـر تباعاً وصادحُ الكروان ؟
وابتسام الجديد يذهب باللحـ ـظ إلى كل باسم فتـان
لوحةٌ تجمع الظـلال فتوناً نقشُها مفصح بغـير لسان
خطّـها الله مبدع الحسن والظر ف ورب الإحسان والإتقان
يتراءى جمالهـا بَهِجات حافلات بساحرات المعانى

أين ذاك الأصيل يا ريف يبدو فى اصفرار كخالص الزعفران ؟
موعد اللهـو والتطلع للغِيـ ـد ولُقْيَا العشاق والإخوان
ورواح الأجير ينفض عنـه عنت اليوم واحتمال المعانى
فأسه تنبت الرفاهة للنـا س وإن طال عيشه فى الهوان
غبنتـه أيامه وجحـود نافر البـر عازب الإحسان
خسّ حظًّا وإن تعهد بالحظ (م) وفـيراً وبالقطوف الدوانى
دهره الجهد والخصاصة والجهـ ـل ونبـذ المرفَّه المبطان
حرّقت وجهَه الظهائر وانسا بت إليـه فواتك الديدان
وتولى الطبيب عنـه وعافتـ ـه أياد تهـيم بالنسيان
لطف الله بالشهيد وبالبا ذل كل الفـداء للأوطان

أين يا ريف ليـلة البدر فى الصيـ ـف وجمعُ السمّار والندمان ؟
ورقيق النسيم يحمـل شدواً بثـه الحب فى رقيق الأغانى
من محب مكابد أرّقتـه عقبات الهوى وميل الغوانى
وقديم من الحفاظ وسعىٌ دلّسته عجائز الجـيران
زهرة الحب والسكون حواليـ ـنا وخفق الطيور فى الأغصان
فتنة تمـلأ النفوس جمالا وهيـامٌ يشيع فى الوجدان

أين عهـد السراةِ والمجد يا ريـ ـف وعهد الأنصار والأعوان ؟
هجروا فى فراك جنـة عدن وتولوا بقسمة الخسران
جذبتهم مبـاهج خادعات زيّنتها حواضرُ البـلدان
بهرجٌ صاخبٌ وصيحةُ مينٍ من كذوب معربد سكران

دينه النقش فى القراطيس والنقـ ـد وزاه من اصـــفر رنان
وتراه وقد تملأ وفــراً يشتكى حظه من النقصان
دائم الجهـــد والتطلع والخو ف حليف الهموم والأحزان
أين هذا الشقى منك رضيًّا غافلا عن مذاهب الأشجان ؟
قانعاً بالحيـاة فى كنف الأمـ ـن قريراً بقسمة الرحمن

أحمد محفوظ

العناصر الثلاثة للقومية المصرية

أولا — الوجود المستمر للجماعة المصرية

إن أردت تصور القومية المصرية ، أو حاولت تصويرها ، فإنك واجد رمزها الرائع ، وتصويرها الجامع فى تمثال «مختار» .

الفلاحة المصرية ، تعتمد بيمينها على دعامة مصرية ، وهى ترمى ببصرها أقصى الأفق .

هذه الفلاحة هى الأم التى ولدت لمصر أبناءها وبناتها على ضفاف النيل ، جيلا بعد جيل ، فى خلال الـعُـصُر المتعاقبة ، وهى التى كانت نائمة فاستيقظت واستوت قائمة .

لم تنقطع صلتها بالماضى ، فإنها ما زالت تستند إليه ، ولا هى تقيدت بالحاضر ، راضية بالتلفت حواليها ، أو قانعة بالنظر تحت قدميها ، ولـكنها تتطلع للأمام ، ناظرة إلى المستقبل .

إنها تربط الماضى بالحاضر ، وتصل الحاضر بالمستقبل

ولـكن . . . ما الحاضر ، وما الماضى ، وما المستقبل ؟

أليس الحاضر لحظة مجردة من الامتداد الزمنى ، تجرُّد النقطة الهندسية من الأبعاد ؟

ثم ، أليس الماضى بدوره لحظة مجردة من الامتداد الزمنى ، كانت الحاضر ، فتراجعت لتحل مكانها — فى تصورنا — لحظة أخرى مثلها ، كانت المستقبل فأصبحت الحاضر ؟

وإذن ففى وسعنا أن نتصور أن الماضى والحاضر والمستقبل ، تلتقى وتندمج فى لحظة واحدة مجردة من الامتداد الزمنى .

ولئن صح هذا التصور بالنسبة لحياة الفرد — وهو صحيح — فإنه بالنسبة لحياة الأمة أكثر صحة ، وأوضح أثراً .

فالمصرى الذى يعيش اليوم ، ليس لَبِنَةً مستقلة فى بناء القومية المصرية الحاضرة ، منفصلة عن الماضى ، منقطعة الصلة بالمستقبل ؛ ولكنه لباب الماضى ومساك الحاضر ، ونواة المستقبل . مثله كمثل اللحظة الزمنية ، يلتقى فيه الماضى بالحاضر ، ويتصل عنده الحاضر بالمستقبل .

والأمة المصرية ليست أفرادها الذين يعيشون الآن ، ولكنها أفرادها الذين ماتوا ، والذين وُلدوا ، لا فى هذه الساعة وحدها ، (ومصر تلد فى الساعة حوالى ثمانين وتشيّع نيّفا وخمسين) بل فى خلال الأجيال الماضية كلها ، وأفرادها الذين سوف يولدون فى الأجيال القادمة جميعها .

ولئن قسنا عدد الأحياء من المصريين فى هذه اللحظة ، بعدد الذين عاشوا فى القرون الخوالى بأسرها ، وجدنا أن هذه الملايين من الأحياء ، التى تعد على أصابع اليد الواحدة ثلاث مرات أو نحوها ، لا تعدو أن تكون قطرة فى محيط زاخر بألوف الملايين ، بل بملايين الملايين ، ممن اشتركوا بالأمس ، أو ممن سوف يساهمون غدا فى تكوين القومية المصرية وتشكيلها وتلوينها ، على كرّ الغداة ومرّ العشىّ .

فالقوم الذين يعيشون اليوم فى مصر ، ويعرفهم العالم باسم المصريين ، ليسوا إذن مصريى القرن العشرين وحده ، ولكنهم مصريو الحقب الخوالى والعصور التوالى . هم مصر الغابرة ، وهم مصر الحاضرة ، وهم مصر المستقبلة .

والقومية المصرية ، أى الرابطة بين الفرد المصرى والجماعة المصرية ، شىء مركوز فى كيان الأفراد المصريين .

ذكريات كل مصرى ، وتقاليده ، ومعتقداته ، هى التى يتكون من مجموعها ذكريات الجماعة المصرية ، وتقاليدها ، ومعتقداتها .

فالقومية فى داخلنا ، فى صميم كل فرد منا ، ولكنها أسمى من تفكير أى فرد فينا ، وأوسع من فهم جميعنا .

عاش أجدادنا وآباؤنا على ضفاف هذا النيل منذ ألوف السنين ، يتلقون فيضه فى أجل معلوم ، وينعمون بشمس مصر يقطع قرصها الساطع سماءهم الصافية مرة فى كل نهار ، ويسعدون بالوادى الخصيب المنبسط ، لا تتبدل طبيعته ولا تتغير

معالمه . لا زلازل ولا براكين تهدم ما شادوه ، ولا صواعق ولا أعاصير تخرب ما عمروه ؛ فأخلاقهم موسومة بطابع الاستمرار والاستقرار ، وقلوبهم مشربة بحب النظام ، مفعمة بحب الأسرة ، مطبوعة على تذوق الجمال ، ونفوسهم فياضة بالولاء لنظم يجلونها ، ومؤسسات يؤثرونها ، ومعتقدات يدينون بها ، جعلت منهم قوما متجانسا ، وقومية قوية لعلها أقدم القوميات وأمجدها وأخلدها .

فقد عرفنا الله وعبدناه ووحّدناه ، وأدركنا الروح والخلود ، وآمنا بالبعث فى اليوم الموعود ، واستأنسنا القمح واستنبتنا أنحر سلالاته ، وبنينا وشيدنا ، ونحتنا وصوّرنا ، وكتبنا ودوّنا ، وقسنا وأحصينا ، وحسبنا الشهور والسنين وشرعنا وطببنا ، وفكرنا وألّفنا ، حين كان البشر نياما ، وكانت الدنيا جهلا وظلاما .

وإن التاريخ ليدحض دعوى المتحاملين على القومية المصرية ، ويفنّد مفتريات القائلين بأننا قوم طال عهدنا بسيطرة الغزاه ، والخضوع لحكم الطغاه ، حتى فقدنا قوميتنا ، واستحلنا مجموعة من أفراد متعددة عناصرهم ، متنافرة مواردهم ومصادرهم .

فما هبط وادينا شعب ، مستوطنا أو فاتحا ، إلا طويناه وتمثلناه ، وطبعناه بطابعنا ، وصغناه فى قالبنا ، وأدمجناه فى قوميتنا .

صنعنا هذا بالهكسوس ، والاثيوبيين ، والفرس ، واليونان ، والرومان ، والعرب ، والأتراك ، واحتفظنا دائما بأشكالنا وسحننا ، ومعظم تقاليدنا وعاداتنا . حتى المسيحية والإسلام ، لم يكد يغير دخولها البلاد من أخلاقنا القومية ، إلا قليلا .

أما الذين لم يتأقلموا ، فإنا لم نلبث طويلا حتى لفظناهم وتخلصنا منهم ، كما حدث مع الفرنسيين ثم الانجليز من بعدهم .

ثانيا — الشعور بالجماعة

وهو وجود فكرة الجماعة المصرية فى عقول أفراد المصريين ، وفهمهم طبيعتها وتكوينها وحقوقها ومطالبها .

وحَسْبُنا أن نضرب لهذا الشعور مثلا ، النهضة المصرية فى سنة ١٩١٩ .

لم تكن تلك النهضة مجرد اتجاه مجموع إرادة المصريين نحو الاستقلال ، بل كانت اتجاه إرادة جميع المصريين نحو الاستقلال ؛ إذ كان الدافع لهذه الإرادة الجماعية دافعا واحدا منبعثا من يقظة الشعور العام ، ولم يكن دوافع منوعة تختلف باختلاف الأفراد ، وإن اتجهت كلها نحو هدف واحد .

الفلاحة التى ظنوها ميتة ، كانت نائمة فصحت واستوفزت واستوت واقفة تتوكأ على ماضيها وتتطلع إلى مستقبلها ، بعد أن تأصلت فكرة الأمة فى عقول الأفراد الذين تتكون منهم الأمة ، وأصبحت هذه الفكرة نواة لعاطفة قوية ، تحرك دوافع قوية ، وتتغلب على سائر الدوافع ، وتتحكم فيها وتسيطر عليها .

اضمحلت النزعة الفردية ، وانطوت المصلحة الشخصية ، فاندمجت فى نزعة الجماعة ، وانضوت تحت لواء المصلحة العامة ، وأصبح المصرى يرى نفسه جزءا لا يتجزأ من الجماعة المصرية ؛ وبعد أن كان شعور المصرى « أنانيا » فى شخصه أضحى شعوره «أنانيا» فى الجماعة ، فجاوز حدود نفسه ، وتخطى نطاق أسرته ، وانبعثت فيه دوافع العمل لمصلحة قومه وأمته .

زادت معرفة الفرد المصرى بالجماعة المصرية ، وتضاعف اعتزازه بلغته ، وقوى احترامه لتقاليده ، واشتد حرصه على محبة الأمة المصرية والاندماج فيها والتجانس معها ، ونشط للقضاء على ما عساه أن يشوب وحدتها من عوامل التفرقة ، بسبب اختلاف الدين ، أو الفوارق الاجتماعية وما إليها .

شعر المصريون بأن للأمة المصرية عمراً أطول من عمر أفرادها ، وأنها وجدت قبل أن يولدوا ، وأنها مستمرة بعد أن يلقوا ربهم ، وأيقنوا أنهم باندماجهم فيها يعظمون ويخلدون ؛ فاتخذوا للأثرة الفردية فلسفة جديدة ، هى الأثرة الجماعية ، وطابت نفوسهم بالتضحيات حتى روّت دماؤهم شجرة القومية المصرية ، فإذا أصلها ثابت وفرعها فى السماء .

وكانت يقظة « الشعور السياسى » أول ثمار هذه الشجرة المباركة ، فعم الجماعة المصرية بأسرها ، وسيطر على تصرفاتها . ولا غرابة ، فقد كان أجدادنا أسبق الناس إلى التأثر بالشعور السياسى ، فاتخذ هذا الشعور فى عقلنا القومى مظهراً شبيهاً « بأساليب التفكير الدائم » .

ولربما ظل هذا الشعور خامداً عدة أجيال ، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى الظهور بكامل قوته ، حين توافرت له الظروف الملائمة. و « الوطنية » أهم مظاهر

« الشعور السياسى » ؛ فإن الطفل يحمل معه منـذ العصور المتوغلة فى القدم نزعة الولاء للجماعة التى يعيش فيها . ولئن صح ما يقوله علماء التاريخ الطبيعى من أن « الحقوق الإقليمية » معترف بها بين الحيوانات العليا ، فلا يبعد أن تكون الوطنية قد انتقلت إلينا بالوراثة من عصور ما قبل التاريخ .

وتنطوى الوطنية على « حب عاطفى لبلدنا » ، وهى عاطفة مركوزة فى العقل الانسانى ؛ لذلك لم يكن تشويه برامجنا التعليمية ، ولا مسخ التاريخ المصرى فى مدارسنا ، ولا محاربة الوطنية فى نفوس الأجيال السابقة على الثورة ، ليؤثر فى محبة المصريين لوطنهم ، وقيامهم كفرد واحد للدفاع عن حقوقه .

وكما تنطوى الوطنية على حب عاطفى للبلد او الوطن ، فإنها تشـمل أيضا « الشعور بالولاء نحو الوطن ، والشعوُر بالولاء للمواطنين » . شعور بالولاء نحو الوطن ، شبيه بشعور الولاء للأسرة ، وشـعور بالولاء نحو المواطنين ، شبيه بشعور الولاء قبـل الزملاء فى الصناعة ، والإخوان فى المهنة ؛ فهو جزء من « غريزة الاجتماع » ولون من « غريزة المحافظة على النفس » ، أو هو على الأقل مرتبط بهما .

وهـذه الناحية من الشعور الوطنى ، أى هذا الولاء للوطن ، والولاء للمواطنين ، هو ضرورة لازمة لتكييف تصرفات المواطنين بإزاء الشئون العامة والمسائل السياسية ، وهو أصل شعورهم بالولاء نحو حكومة البلاد ، أى نحو العرش والدستور والبرلمان والوزارة .

فلم تكد تشب الثورة ، أى لم تكد تتحرك المشاعر السياسية للمصريين ، حتى اشترك أبناء البيت العلوى فى الحركة الوطنية ، واشتركت الحكومة مع الوطنيين فى المطالبة بحقوق البـلاد ، وقويت الروابط إلى حد الاندماج بين ما كانوا يسمونه عنصرى الأمة ؛ إذ تبين أن الأمة ليس فيها عنصران ، بل عنصر واحد هو العنصر المصرى ؛ وضعف الشعور بالفوارق بين مصرى ومصرى ، سواء أكانت فوارق اقتصادية أم علمية أم اجتماعية ، وقوى الشعور بضرورة إزالة هذه الفوارق عن طريق رفع المستوى العـام للطبقات الفقيرة والجاهلة ، وأصبحت الوطنية دين الجميع ، والوطن قبلة الجميع ، والقومية المصرية شعار الجميع .

ومما يرتبط بالوطنية ويكاد يتحد وإياها ، شـعور اصطلحنا على تسميته « العزة الوطنية ، أو الـكرامة القومية » .

وهو شعور قد يظل كامناً عدة قرون ، فإذا صادف الحافز الملائم ، ورى شراره ، واندلع أوارُه ، وتأججت ناره ، حتى إذا تولته القيادة القوية الأريبة، استكمل عناصره ، وصهر الروح القومية فصفى شوائبها ، وسما بها إلى عليين.

وما الكرامة القومية غير إحساس هدفه تحقيق الرضا القومى . وكما أن من مظاهر احترام النفس أن يسكن الإنسان الدار التى يختارها ، ويرتدى الملابس التى يجدها لائقة ، فإن من مظاهر الكرامة القومية أن يختار الفرد الحكومة التى يعيش فى كنفها ، ويدين بالولاء لها . على أن يكون رجالها من بنى جنسه ، يتكلمون لغته ويشعرون شعوره ؛ لأن المواطن ينظر عادة إلى حكومته كأنها جزء من نفسه ، وبضعة من حسه ، وقطعة من ماله وملكه .

وقد كان ليقظة شعورنا بالكرامة القومية ، الأثر البالغ فى حياتنا الوطنية ، فاستردنا استقلالنا ، وانطلقت أيدينا فى إدارة بلادنا وتمثيلها لدى الدول الأجنبية ، وأصبح لنا دستور وبرلمان واشتراك فعلى فى الحكم ، قوامه الاقتراع العام ، والمسئولية الوزارية .

ثم تلا ذلك إلغاء الامتيازات الأجنبية ، فخلص بذلك شرفنا القومى من أذى المذلة أمام الأجنبى ، الذى كان يعيش بيننا دون أن يخضع لتشريعنا الجنائى أو المالى ، أو يحاكم أمام قضاتنا الوطنيين ومحاكمنا الوطنية .

وها نحن أولاء قد تخلصنا من ديننا الدولى ، الذى كانت مذلته تطوق عنق كل مصرى ، وأصبحنا على أبواب الحدث العظيم الذى نستكمل به استقلالنا تامًّا خالياً من كل شائبة .

ثالثاً — التنظيم والقيادة

هو العنصر الذى لا غنى عنه لأى جماعة تريد القيام بعمل قومى جماعى .

وقد أتيح لمصر فى فجر نهضتها الحديثة عدد من أبنائها ، مثلوا وحدة الشعب المصرى ، وعبروا عن شعوره الوطنى والسياسى ، واشتركوا فى تنظيم الحركة القومية ، وساهموا فى إذكاء روحها ، ونجحوا فى توجيهها وجهة مباركة .

ولئن صح لنا أن نحدد وقتاً معيناً لابتداء يقظة « الشعور بالجماعة » ، وهو ثانى عناصر القومية المصرية ، فإنا نرجح أن يكون سعيد باشا أول حاكم من

أسرة محمد على ، ربط مصلحته بمصالح شعبه باعتباره مصريًا ، وقطع على نفسه العهد بأن يتولى المصريون تدريجاً جميع مرافق الدولة ، ونزل عن ملكية الأراضى المصرية للمصريين .

ولا ننسى للخديو إسماعيل ، دعمه شخصية مصر كدولة مستقلة ، بما استخلص من حقوقها ، وأن أول برلمان مصرى انتخب فى عهده ، وأنه أول من اعترف بمبدأ المسئولية الوزارية ، وفى أيامه جاءنا جمال الدين الأفغانى ، الذى تخرج عليه زعيم النهضة السياسية ، وزعيم النهضة الدينية ، وزعيم النهضة النسوية .

وهكذا مهّد عهد سعيد وعصر إسماعيل ليقظة الشعور القومى ، وقدّما لظهور عرابى ومصطفى كامل وسعد زغلول .

وها هو ذا صاحب الجلالة المصرية ، الملك فاروق الأول ، يضرب لشعبه المجيد المثل فى الوطنية ، والقومية المصرية .

هذه هى العناصر الثلاثة للقومية المصرية . وإنا لنرجو أن نتناول فى مقال آخر ، « نواحى الضعف فى القومية المصرية » .

رياض شمس

ابراهيم بن المهدى : حياته السياسية

إنما هذه شخصية موهوبة عبقت فى قصور خلفاء الدولة العباسية : هارون الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم ، وانتشر شذاها الذكى فى مجالس الأنس والسمر والطرب ، تشدو بأعذب صوت ، وتغرد بأشجى نغم .

وقد حفلت حياة هـذه الشخصية العبقرية بالطموح والإقدام ، وتفردت بالشجاعة والمغامرة ، واتسمت بتعـدد المواهب وخصبها ، وامتازت بتسنم ذروة الفن والفصاحة . فكانت زينة المحافل ، ونديمة المجالس ، وريحانة النفوس الصادية لارتشاف مناهل الفن والجمال ، وبهجة الأرواح الظمأى إلى همسات الوجد والغرام .

أنجب العصر العباسى الأول هـذه الشخصية الفذة فى مناحى حياتها الصاخبة ، الغارقة فى أحضان الهوى ، العابثة فى مجالس الخلفاء والقيان ، الساخرة من أحـداث الزمان ، الضاحكة من الهموم والأحزان . فـكانت ألذ شخصية وأغربها ، وأدعاها إلى الدرس والبحث والتحليل ؛ تلك شخصية إبراهيم بن المهدى اللحن الحائر الرائع .

أمه « شكلة » مولدة . كان أبوها من أصحاب المازيار ، يدعى شاه افرند ، قتـل مع المازيار ، وسبيت ابنته « شكلة » وأرسلت إلى المنصور ، فوهبها لـ « محياة » أم ولده ، فربتها عندها . ثم بعثت بها بعد ذلك إلى الطائف ، فترعرعت هناك وتفصحت . فلما شبّت ، أعيدت إلى « محياة » . أصلها من طبرستان ، وقيل إنها ابنة ملك طبرستان .

وذات يوم أبصرها المهدى عندها ، فأعجب بها ، فطلبها منها ، فمنحته إياها . وما لبثت أن ولدت منه إبراهيم عام ١٦٢ هـ . وهو ينسب إليها ويدعى إبراهيم ابن شكلة . وكان مثلها حالك السواد . وقد لقب بالتنّين لعظم جثته وضخامتها .

تولى إبراهيم بن المهدى : فى الثامنة عشرة من عمره ، إمرة جند دمشق سنتين كان خلالهما مثال الحاكم الصالح .

على أن الرشيد عزله لهفوة بدرت منه ، وهو الفتى الحاكم ، وعين مكانه سليمان بن المنصور بن المهدى . غير أن الفتنة نشبت فى أثناء حكم سليمان ، ولم يطعه أحد من الشعب .

وغضب الرشيد على إبراهيم ، وحبسه مائة يوم ، ولم يسمح له بدخول قصره ، كما حظر على جعفر بن يحيى أن يذكر اسمه أمامه سنة .

بيد أن الأيام كانت كفيلة بعودة الصفاء والمودة بين هارون الرشيد وإبراهيم ، فكأن الرشيد أيقن أنه من العدل أن يفكر فى جفائه لأخيه ، نخيره أن يختار مدينة يوليه عليها ، فإذا بإبراهيم يحن إلى دمشق ومغانيها .

عقد لابراهيم على إمرة دمشق ثانية ، ورحل إليها عام ١٨٦ معززاً . وبعد زمن أقاله الرشيد متذرعاً بجبنه ، وولى مكانه العباس بن محمد بن ابراهيم الإمام .

ولكن مالبث الرشيد أن ألغى ولاية العباس بن محمد ، وأعاد إبراهيم إلى ولايته ، وأثنى على حكمته ، وأجازه بثلاثين ألف دينار .

وبقى إبراهيم فى ولايته الثالثة على دمشق أربع سنوات ، قفل بعدها راجعاً إلى بغداد ، وهو فى ريّق الشباب ، وقد اكتسب من الحكم خبرة ودراية انتفع بهما فى حياته المفعمة بالحوادث الجسام .

لما استقر الأمر للمأمون ، وولى الخلافة عام ١٩٨ ، بعد ما استعرت الحرب بينه وبين أخيه الأمين ، وردت فى الثانى من رمضان سنة ٢٠١ رسالة على عيسى ابن محمد بن أبى خالد ، من الحسن بن سهل ينبئه فيها بأن المأمون بحث عمن يليق أن يكون ولى عهده ، فلم يجد فى بنى العباس وبنى على أفضل وأروع وأعلم من على بن موسى بن جعفر بن محمد ، وقد دعاه الرضى ، وأمره أن يخلع الثياب السود شعار بنى العباس ، وأن يرتدى الثياب الخضر شعار بنى على ، وأن يأمر أصحابه والجند والقواد وبنى هاشم وأهل بغداد بأن يبايعوه ، وأن يتخذوا الخضرة فى ملبسهم وأعلامهم .

فقبل البعض ذلك ، ورفض البعض الآخر أن يخرج الأمر من ولد العباس ،

واحتدم الجدال بين أهل بغداد أياماً ؛ واضطرمت الفتنة ، واستعرت سورة الغضب بين الشعب ، فناوءوه وقاوموه .

اجتمع زعماء الثورة وبحثوا فى قضية المأمون ، فأنكروا عليه صنيعه ، فإذا بهم يجمعون على خلعه ، وتنصيب منصور بن المهدى خليفة ، ودعوه المرتضى ، وسلموا عليه بالخلافة ، ولكنه أبى ذلك . فعمدوا إلى أخيه إبراهيم ابن المهدى ، فبايعوه بالخلافة ، ولقبوه « المبارك المنير » وقلدوا ابن أخيه إسحاق بن موسى بن الهادى ولاية العهد . وكان ذلك فى ٢٥ ذى الحجة عام ٢٠١ .

لما انتزع إبراهيم بن المهدى الخلافة من المأمون ، أوفد إليه المأمون الحسن ابن سهل فى جيش ، فثبت له إبراهيم وقاتله فهزمه .

ودارت رحى الحرب بين إبراهيم وأهل بغداد ، وبين أهل الكوفة والسواد ، فتغلب إبراهيم عليهم وعسكر بالمدائن .

واستعرت الحرب سجالاً بين جند المأمون وجند إبراهيم ، وانتشرت الدسائس والمؤامرات ، وانقسم أهل بغداد إلى حزبين .

ومازال إبراهيم بن المهدى فى بغداد يدعى « أمير المؤمنين » ويخطب باسمه فى بغداد والسواد والكوفة ؛ إلى أن كان على بن موسى الرضى ولى عهد المأمون يأكل عنباً ، إذا به يموت لوفرة ما تناوله منه . فنزل موته على المأمون نزول الصاعقة ، وانتابه جزع عظيم .

وفى موت ولى عهده الذى احتدمت الحرب من أجله ، ونبذ السواد ، ولبس الخضرة بسببه ، أدرك المأمون أن لا سبيل له إلا أن يسلك سياسة الحكمة والمرونة . فإذا به يكتب بوفاته إلى الحسن بن سهل ، وإلى بنى العباس وأهل بغداد والموالى ، وأنهم إنما نقموا عليه لجعله ولىَّ عهده . أما وقد زال السبب ، فإنه يرغب إليهم أن يدخلوا فى طاعته ، ولكنهم جابهوه بالرفض وأنهم لا يقبلون عن ابراهيم بن المهدى بديلا .

وبقيت الحرب مضطرمة زمناً بين المأمون وابراهيم بن المهدى . وما زال ابراهيم يخمد الفتن ، ويقف فى وجه خصومه ، ويدافع عن خلافته ، حتى انتشرت الفوضى . وقد نظم عيسى بن محمد بن أبى خالد مؤامرة على تسليم ابراهيم

إلى خصومه . وكان يتظاهر بالطاعة لإبراهيم والإخلاص له . ولما نمى هذا الخبر إلى ابراهيم كتم الأمر فى نفسه .

وانضم بعض أنصار ابراهيم من القادة والجند إلى حميد الطوسى ، وسلموه المدائن ، كما هزم جند حميد جند ابراهيم وطاردوهم .

ولما رأى خاصة أهل بغداد انتصار حميد ، انضم إليه الفضل بن الربيع وعلى ابن ريطة . ثم بدأ العقد ينفرط من حول ابراهيم ، حيث تحول عنه الهاشميون والقواد إلى حميد تباعاً .

وهنا أدرك ابراهيم من انصراف أنصاره من حوله ، أنه خسر المعركة ، وأنه لا شك خاسر الخلافة . وإذا ببضعة من القواد يفاوضون على بن هشام على تسليم ابراهيم بن المهدى إليه . فلما علم ابراهيم بخيانتهم وخيانة قومه وأصحابه ، وأنهم قرروا تسليمه ، ولم يبق له نصير أو صديق ، دأب على ملاطفتهم فى حكمة ولين .

وفى عيد الأضحى عام ٢٠٣ سار موكب ابراهيم بن المهدى إلى الجامع ، مرتدياً زى الخلافة ، تحف به حاشيته بأبهة وعظمة ، وصلى بالناس صلاة العيد . وهو يشاهد معسكر على بن هشام . ثم عاد إلى قصر الرصافة ، واجتمع فيه بمؤيديه وأنصاره ، حيث درس وإياهم الموقف الراهن ، فوجد أنه فقد الخلافة ، ولا مناص له من الفرار من وجه المأمون ، كى لا يبطش به ، لأن أقل عقاب له كان القتل .

انسل ابراهيم بن المهـدى من قصر الخلافة إلى داره ، حيث اختفى فى ليلة الأربعاء فى ١٧ ذى الحجة سنة ٢٠٣ .

وحاصر المطلب وابن الساجور وأصحابهما دار ابراهيم ، وأبلغا ذلك إلى حميد الطوسى وعلى بن هشام ، فقدما ودخلا دار ابراهيم ، فوجداها خالية منه . فأعلما المأمون بذلك .

وكانت خلافة ابراهيم بن المهدى سنة وأحد عشر شـهراً واثنى عشر يوماً ، قضاها فى إخماد الفتن والثورات ، ومحاربة المأمون فى سبيل الاحتفاظ بالخلافة وتنازع البقاء .

دخل المأمون بغداد فى ١٦ صفر عام ٢٠٤ وكان مرتدياً هو وأصحابه الخضرة ،

كما كانت أعلامهم خضراً ، وثياب بنى هاشم وقواده وجنده وأهل بغداد خضراً .
وبعد مرور ثمانية أيام اتفق معه بنو العباس على نبذ الخضرة ، والعودة إلى
رتداء السواد .
وكان من الأسباب التى ساعدت المأمون على إعادة أهل بغداد إلى طاعته ، أنه
ر بإعفائهم من ألفى الف درهم من خراجها . وهكذا استمالهم إليه وملك قلوبهم
رة أخرى ، مما دل على مرونته السياسية ، وحنكته الإدارية .
ومالبث المأمون أن استأنف إدارة شؤون الدولة بما عرف عنه من
لحكمة والحلم .
غير أن العلويين عمدوا إلى المشاغبة عليه ، بعد أن ضحى بما ضحى فى سبيلهم . فلما
اى منهم ذلك أمرهم بهجر الخضرة وارتداء السواد ، ومنعهم من الدخول عليه .
إن ما تحلى به المأمون من سماحة الخلق ، ورحابة الصدر ، والحلم القصى ،
حب التسامح ، وميله إلى التساهل ، وكرهه للانتقام ، وشغفه بالعفو ، أصبح
ضرب المثل . فقد عفا عن الفضل بن الربيع وزير الأمين ، ثم أعقبه بعفوه
ن عيسى وزير إبراهيم بن المهدى ، وكان هو والفضل بن الربيع من زعماء
نقلاب عليه .

وفى ربيع الآخر سنة ٢١٠ اعتقل إبراهيم بن المهدى ، وهو متنكر بزى امرأة .
وروى أبو المحاسن بن تغرى بردى يصف عفو المأمون عن عمه ابراهيم بقوله :
« ... وله فى هروبه واختفائه وكيفية الظفر به أمور وحكايات مهولة ؛ منها
لما وقف بين يدى المأمون ، شاور فى قتله أصحابه . فالكل أشاروا بالقتل ،
أنهم اختلفوا فى القتلة ؛ فالتفت المأمون إلى أحمد بن خالد وشاوره ، فقال :
ير المؤمنين ؛ إن قتلته فلك نظير ، وإن عفوت عنه ، فمالك نظير . فأنشد المأمون :
فلئن عفوتُ لأعفُوَنْ جللاً ولئن سطوتُ لأوهِنَنْ عظمى !
فكشف ابراهيم بن المهدى رأسه وقال : اللّه أكبر ! عفا عنى أمير المؤمنين ؟
فقال المأمون : ياغلمان ، حلّوا عن عمى وغيِّروا من حالته ، وجيئونى به ... [1] »
وفى مثول ابراهيم بن المهدى بين يدى المأمون ، وفى الحوار الذى دار بينهما ،

---

(١) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ج ٢ ص ٢٤١

بلاغة وطرافة ومتعة تشف عن فصاحة ابراهيم وتوبته، وعن حلم المأمون وكرمه.

حدث ابن عساكر قال « . . . ولما طال عليه الاختفاء ضجر، فكتب إلى المأمون : «ولىّ الثأر محكمٌ، والعدل أقرب إلى التقوى . ومن تناوله الاغترار بما مد له من أسباب الرجاء، فمن عادية الدهر على نفسه . وقد جعل الله أمير المؤمنين فوق كل ذى عفو، كما جعل كل ذى ذنب دونه . فإن عفا فبفضله، وإن عاقب فبحقه» . فوقع المأمون على الكتاب : « القدرة تذهب الحفيظة، وكفى بالندم إنابة وعفو الله أوسع من كل شىء » . ولما دخل على المأمون قال :

إن أكن مذنباً فخطى أخطأ ت، فدع عنك كثرة التأنيب

قل كما قال يوسف لبنى يعقوب لما أتوه : لا تثريب

فقال له المأمون : لا تثريبَ، وقال له أيضاً لما أخذه : ذنبى أعظم من أن يحيط به عذر، وعفوك أعظم من أن يتعاظمه ذنب . فقال له المأمون : حسبك! فإن قتلناك فللّه، وإن عفونا فللّه . . .[1] » « بل أعفو يا إبراهيم، فكبر إبراهيم وخرّ ساجداً [2] » .

إن عفو المأمون عن عمه ابراهيم بن المهدى، كان خيراً ومكرمة وذكراً عاطراً مدى الدهر . وقد ضرب به مثلاً عالياً فى الحلم والتساهل والتسامح ورحابة الصدر ونبل الخُلق .

ومن أبلغ ما دار بين المأمون وابراهيم بن المهدى ما حدّث الفضل بن طيفور . « . . . وقال المأمون لابراهيم حين صفح عنه : لو لم يكن فى حق أبوتك حق الصفح عن جرمك، لبلغتَ ما أملت بتنصلك فى لطف توصلك . وكان ابراهيم قال له : إنه إن بلغ جرمى استحلال دمى، فحلم أمير المؤمنين وفضله يبلغان عفوه، ولى بعدهما شفعة الإقرار بالذنب، وحق الأبوة بعد الأب . . . قال المأمون : . . . لو علم أهل الجرائم لذتى فى العفو ما جمدونى عليه؛ ولا أنابوا من ذنوبهم » فقال ابراهيم إما متمثلا وإما مخترعاً :

أميرَ المؤمنين عفوت حتى كأن الناسَ ليس لهم ذنوب[3]

وأضاف ابن العميد قوله : « ... فقال له المأمون : إنى شاورت فى قتلك،

(١) التاريخ الكبير ج ٢ ص ٢٧٢ و ٢٧٣ . (٢) تاريخ الأمم والملوك ج ٧ ص ١٧٦

(٣) كتاب بغداد ج ٦ ص ١٩٥ .

فأشاروا بقتلك ؛ إلا أنى وجدتُ قدرك فوق ذنبك ، فكرهتُ القتل[1] »

وعاد إبراهيم إلى مجلس المأمون عزيزاً مكرماً ، فنادمه المأمون ولاطفه . ثم طلب إليه أن يغنى ؛ فاعتذر بأنه نذر لله عند خلاصه نبذ الغناء . فألح عليه ، وأمر بوضع العود فى حجره فغنى :

هـذا مقام مشرد خربت منازله ودوره
نمّت عليـه عُداتُه كذبا ، فعاقبه أميره

ثم أمر المأمون بإعادة ما حجزه له من الأموال والضياع والعقار والدور والدواب ، كما أعاد مرتبته ، وأجازه بعشرة آلاف دينار فوراً ، وانصرف مكرماً على خيل المأمون .

وهكذا أنقذ بيان ابراهيم بن المهدى حياته من القتل ، وبرهن ذلك على كرم المأمون وسماحة طبعه ، وتقديره للأدب وأربابه . فلولا بلاغة ابراهيم وسرعة خاطره ، وذلاقة لسانه ، وقوة حجته ، ومضاء عزيمته ، لبطش به المأمون ، وجعله عبرة لسواه .

منير الحسامى

(١) تاريخ المسلمين ص ١٣٦

من هنا وهناك

مرقص الشانزليزيه

حرصت باريس دائماً على أن تحتفظ للرقص بالمنزلة الممتازة التى يستحقها ؛ لأنها تراه فناً رفيعاً كأخته الموسيقا وكأخيه التمثيل وكعمه الأدب . وهو من أجل ذلك يلجأ إلى الأدب وإلى الشعر خاصة لينشئ له النص الذى يعتمد عليه ، كما يلجأ إلى اللحن والايقاع ليكونا شيئاً أكثر من الحركات والاشارات . وهو كالمأساة والملهاة والدرامة محتاج إلى التصوير والعمارة والنحت والتخطيط والبدع — الموضة — والاضاءة ، إذا أراد أن يظهر فى المناظر الملائمة ، وأن يكسو جسمه وأن يراه الرائى فيعجب به .

ومن أجل ذلك رغب كبار الشعراء وكبار الملحنين وأصحاب الصوت البعيد من الفنانين فى أن يتعاونوا لينشئوا آية بديعة من آيات الرقص. فاذا تحققت هذه الشروط الدقيقة العسيرة وأعان بعضها بعضاً أتيح للنظارة أن يشهدوا مناظر فنية رائعة نادرة تمتزج فيها لذة العين ولذة الأذن ولذة العقل والقلب . وهذا الانسجام الدقيق بين هذه اللذات هو الغاية الصحيحة للرقص .

ومنذ عرض سرج دى دياجيلف فى باريس قبيل الحرب العالمية الأولى المرقص الروسى ballet russe وأظهر العالم على عبقرية نيجنسكى عنيت العاصمة الفرنسية عناية متزايدة بفن الرقص . وليس من شك فى أن مسرح الأوبرا قد كان له رقصه التقليدى المقرر منذ وقت طويل ، ولكن أخذت حركة جديدة موازية تظهر فى أول القرن إلى جانب هذا الرقص التقليدى . محاولة أن تحدث شيئاً جديداً وأن تنشىء موضوعات مبتكرة للرقص وخطوات لم يسبق إليها الراقصون من قبل . وهناك أسماء ستظل دائما مقرونة إلى هذا الجهد الخصب فى تجديد الرقص والخروج به عن أصوله المألوفة ؛ فالى جانب المرقص الروسى وجدت محاولات لوى فولير التى ابتدعت الرقص من وراء نقب تقبضها وتبسطها وتمدها وتردها عصا خفية . ووجدت كذلك محاولة أخرى للعودة أو لاحياء الرقص اليونانى القديم ، يستعان على ذلك بما يرى مرسوما على الآنية القديمة. وكانت إزادورا دونكان هى التى استأنفت هذه المحاولة . وقد حاول راقص روسى آخر بين الحربين سرج ليفار ان يعرض على مسرح الأوبرا مذهبه الخاص فى هذا الفن الجميل ، فكان نجاحه الرائع السريع مصدر سطوع عظيم لمراقص الأوبرا كلها . ولكن هذا الراقص العظيم قد حيل بينه وبين إعجاب الباريسيين بعد تحرير فرنسا ؛ لأنه اتهم بالتعاون مع العدو فحرم عليه الظهور على مسارح باريس. منذ ذلك الوقت فتن جماعة من الشباب الفرنسيين هذه المرة بفن تربسكورا إلهة الرقص عند اليونانيين وأخذوا يجمعون شملهم وينظمون عملهم تحت إشراف رولان بتيبه الذى لم يتجاوز بعد السابعة والعشرين من عمره ، واخذوا يعرضون طائفة من المناظر الراقصة فى ملعب الشانزليزيه الذى تسموا باسمه. وقد عرضوا مناظرهم أخيراً فى لوندره فظفروا عند نظارتها بفوز عظيم . ويظهر أن

رئيسهم لم يتح له ما أتيح لنيجنسكي من النبوغ ولا ما أتيح لسرج ليفار من التفوق ، وإنما هو في أكبر الظن متقن لفنه ولكنه راقص غير ممتاز قد منح جسما جميلا حسن الاتساق فأتاح له ذلك رضا النظارة عنه وحبهم له . وهو مع ذلك قد أحسن اختيار الجوقة التي تعمل معه من الراقصين والراقصات ولا سيما جان بابلييه وسولانج شوارتز. وبرنامج هذه الجوقة كثير متنوع ؛ فهي تبتكر موضوعات جديدة وتعرض بينها من حين إلى حين مناظر تقليدية قديمة كهذا المنظر المشهور شبح الوردة الذي خلده نيجنسكي والذي يعرضه في رقصة رائعة الشاب الحدث بابلييه الذي لم يبلغ العشرين بعد ، والذي ينتمي إلى أب من كبار الأطباء في باريس . وربما أخذ على رولان بتييه وجوقته أنهم لا يعنون بالوحدة كما تعنى بها المراقص الروسية ، وإنما يذهب به الالهام مذاهب مختلفة متباينة بحيث يمكن أن يقال إن في مراقصه إرضاء لكل ذوق . وهي خصلة يمكن أن تكون في وقت واحد مزية وعيباً . فهو من هذه الناحية يكفل لنفسه جمهوراً ضخما من النظارة ؛ لأنه يتيح لكل فرد ما يلائم ذوقه الخاص من المتاع ، ولكنه من أجل ذلك نفسه لا ينشيء لوناً جديداً من الفن ولا يحدث ثورة حاسمة في الرقص ، ولا يسبغ على مناظره من الخصائص ما يميزها تمييزا دقيقا من مراقص سرج ليفار مثلا الذي هو أرسخ منه في الفن قدما وأشد منه للفن تعمقاً وأقدر على النهوض بما يقتضيه الفن من أعباء . فليس من الممكن إذن أن تدرس مراقص الشانزليزيه في جملتها ، وإنما يمكن أن تبين الخصائص التي يمتاز بها هذا الراقص أو هذه الراقصة . هذا الافتقار إلى الوحدة وهذا التقصير في تحقيق الملاءمة يلاحظ حتى في ثنايا المنظر الواحد من مناظر الرقص حيث تصعب ملاحظة الوحدة في الحركة ، وإن كانت وحدة الزمان والمكان تظل مفروضة بحكم قوانين المسرح . وينتج عن ذلك الشعور بأن كل فرد من أفراد الجوقة إنما يأتي ليظهر ما يستطيع أن يعرض ، كما ينتج عن ذلك أيضا أن النظارة لا يشهدون حركة اجتماعية ولا منظراً تشترك فيه الجوقة على أنها كل ، وإنما يشهدون ألعابا رياضية فردية وتمرينات شخصية. وهناك عيب آخر خطير لهذا المرقص وهو أن الموسيقا ليست على انسجام دائم ملحوظ مع الرقص . وإنما هي تعلة صوتية توشك أن تكون عقبة دون فهم الرمز الذي يقصد إليه الرقص . فاذا سجلنا هذه الملاحظة فيجب أن نحمد لمرقص الشانزليزيه مشاركته في الجهد الذي يبذل لاظهار الجمهور على مذاهب الشعراء المعاصرين من أمثال جان كوكتو وجاك بريڤرت والملحنين المحدثين من أمثال جاك إيبر وهنرى سوجيت وعلى التجديد في فن المناظر مما يبتكره أمثال مارى لورانسان وڤاكڤتش .

ولنختم هذه العجالة بكلمات قصار حول المنظر الأخير الذي عرضه مرقص الشانزليزيه منذ أيام ، وهو الشاب والموت . وهو عنوان كما ترى مستعار في أكبر الظن من رباعية شوبرت : الفتاة والموت ، هذا المنظر يقصه الشاعر جان كوكتو على رولان بتييه منشيء الرقص وعلى الراقصين جان بابلييه الفتى وناتالى فيليبار الفتاة وعلى ڤاكڤتش منشيء المنظر وهو يعرض مقترنا بموسيقى جون سبستيان باخ . في غرفة حقيرة على سطح دار من دور باريس ينتظر المصور عشيقته التي يهواها وهي تأتي ولكنها لا تظهر له حباً وإنما تظهر له ازدراء . وما تزال به حتى تغريه بالانتحار وتدفعه إليه ، ثم تمضي والفتى يقتل نفسه خنقاً . هنالك تتطاير أجزاء الغرفة وإذا نحن على سطوح باريس أثناء الليل نرى من بعد برج إيفل ونرى في كل مكان أضواء

تشب وتخمد، ثم يظهر الموت — يرى الفرنسيون الموت دائماً فى شكل امرأة وتؤنثه لغتهم — مقنعاً قد اتخذ ثوب السهرة أحمر قانياً وهو يدنو من الفتى، حتى إذا بلغه نزع قناعه وقنع به الشاب. فاذا نزع الموت قناعه تبين للنظارة أن الموت ليس إلا هـذه الفتاة التى كان يعشقها المصور، ثم هى تقوده من سـطح إلى سطح.

فى هـذا المنظر أيضا تنقطع الصلة بين الموسيقا وبين هذا الرقص، أو بعبارة أدق هذا التخييل. فكل شىء يؤدى بالاشارة والحركة. فالموائد تنهار والكراسى تتحطم والفتاة تلطم الفتى وتكزه وتشعل سيجارة والفتى يضع يده على قلبه ويتمرغ على الأرض. وينقضى المنظر على هذا النحو. والغريب أن جان كوكتو كان قد أعلن إلى الصحف قبل أن يعرض هذا المرقص أنه لا ينتظر له نجاحاً. وكانت نتيجة هذا الاعلان أن الشعب الباريسى أبى أن يتهم بالغباء فمنح المرقص فوزاً عظيما. أما النقـد فآثر التحفظ. أيمكن أن يكون تصريح كوكتو لوناً من ألوان الاعلان الذى يريد ظاهره شيئاً ويريد باطنه شيئاً آخر؟

مؤنس طه حسين

أيام للعربية فى باريس

لمصر منزلة رفيعة فى باريس، ولأبنائهـا مقام محمود وسمعة طيبـة لدى من يتصلون بهم فى حيـاتهم العلمية وحياتهم الخاصة. وزاد فى هذا وذاك وجود الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين بك بيننا فى عاصمة العلم والآداب هذه الأيام؛ فقد ارتفع فيهـا بفضله صوت مصر والبلاد العربية عامة، بما أقيم لحضرته من الهيئات الرسمية والعلمية وأبنـاء العروبة من استقبالات جمعت بين الجلال والجمـال، وبما ألقى فيها من كلـمات قيمة فيها الاشادة بالعروبة والثقافة العربية بلسان العـالم الثبت الأديب، وأسلوب لا يقال فيه أكثر من أنه أسلوب الدكتور طه حسين!

ولست أشير فى هـذه الـكلمة إلا إلى ما شهدته بنفسى، وأجد هذه الاشارة واجباً علينا لمصرنا والعروبة، ونحن فى عاصمة كبيرة من عواصم الغرب دوى فيها صوت مصر والعربية، وسمعه الكثير من العلمـاء والأدباء، أساتذة السوربون وغيرهم من رجالات فرنسا.

١ — كانت جلسة طيبة ممتعة منتجـة «لاخوان الصفا»، المتعاونين على العلم والفلسفة والحق، بباريس بدار أستاذنا الكبير ماسينيون، نعمنا فيها أثناء تناول الشاى والحلوى الشرقية بحديث من أحاديث الدكتور، فيه توجيه محمود لجماعتنا الناشئة هنا، بما أوضح وحدد من الغـاية، ورسم من الطريق والمنهاج، وذلك عصر الأربعاء الخامس من مايو.

٢ — وكان الخميس غداة هذا اليوم يوما مشهوداً من أيام مصر؛ إذ دعا أساتذة وطلاب معهد الدراسات الاسلامية بكلية الآداب بالسوربون صفوة من رجال العلم والأدب لاستقبال فخم تكريماً للدكتور ولسماع محاضرة له عن خصائص الأدب العربى الجاهلى.

وبعد أن افتتح الجلسة الأسـتاذ ليفى بروفنسـال، ألقى الدكتور محاضرته القيمة باللغة العربية، التى حدد فيهـا خصائص هذا

الأدب ومقوماته ، وأبان ما يرجع منها إلى الموضوع وما يرجع إلى اللفظ ، وخلص من ذلك إلى أن هذا الضرب من الشعر القديم يوجد فى كل العصور ، حتى العصر الحديث الذى نعيش فيه ، بوجود هذه الخصائص فى بعض نتاج كل عصر .

ثم كان بعد أن هدأت عاصفة تصفيق الحب والاعجاب ، الشاى والحلوى التى قدمت بكرم عجبنا له ونحن فى باريس هذه الأيام ! وفى خلال تناول الشاى كانت كلمات الترحيب من مندوبى الطلاب العرب النابهين .

وانتهى الحفل ونحن نحس السرور والفخر يتمشيان فى أعطافنا ، لمحاضرة عن الأدب العربى ، تلق من عميده باللغة العربية فى معهد من معاهد السوربون ، وبين نخبة من رجاله أساتذته الفرنسيين !

٣ — أما يوم الخميس الثالث عشر من هذا الشهر مايو ، الذى كانت أيامه أعياداً لنا هنا ، فقد كان يوم شمال إفريقية والأندلس الذى لا ينسى .

إن من الأمانى التى يحلم بها شباب شمال إفريقية الناهض أن يتصلوا اتصالا مباشراً برجال النهضة فى العلم والأدب فى مصر والعالم العربى عامة ، وقد حقق الله لفريق من هذا الشباب ، الذين هاجروا من بلادهم إلى باريس فى سبيل العلم والجهاد لتحرير أوطانهم العزيزة ، أمنية من هذه الأمانى . لقد تفضل الدكتور وأجاب دعوتهم لحفلة شاى ، فكان ذلك من حسنات باريس ، كما أشار إليه رئيس نادى هؤلاء الطلاب وهو الأخ المهدى بن عبود وزميله الفاضل السيد محجوب بن ميلاد .

لقد تحدثا عن العقاب الكؤود التى تحول بينهم وبين الاتصال بالعالم العربى ، هذا الاتصال الذى يجب أن يكون دائماً لخير العروبة جميعاً « ولتحرير الحياة العقلية العربية من قيودها الحاضرة ، وبعث الشخصية العربية قوية جبارة رائعة بين باقى الشخصيات الانسانية » . وهكذا قدر لهذا الشباب أن يبث إلى مصر والعالم العربى فى شخص الدكتور طه حسين بك آلامه ، وأن يزجى إليه آماله .

وأخيراً تكلم الدكتور ، وأفاض فى الكلام من كل قلبه ومشاعره وعقله ، عن مبدأ تعرفه إلى شمال إفريقية والأندلس ، وعوامل حبه لمن أنجب هذا القطر من أقطار العالم العربى الاسلامى من علماء وأدباء ومؤرخين وفلاسفة على رأسهم ابن خلدون وابن حزم ؛ وكيف أنه كان يفر إلى مؤلفات هذين فى فورة شبابه وهو لا يزال طالبا بالأزهر ، فيجد فيها متعة العقل والقلب ! كما تحدث طويلا عن فضل هذا القطر على العالم العربى كله ، وعلى التفكير الانسانى عامة ، وعن غير هذا كله من الشؤون التى بعثت فى أبناء هذا القطر أكبر الآمال وأقوى العزائم ، لبعث بلادهم من جديد ، وإضافة الكثير من الأمجاد إلى مجدهم العظيم القديم .

ومن الطريف والقمين بالذكر هنا أن أشير إلى أن الدكتور ، فى حفل معهد الدراسات الاسلامية ، لم يحمد موقف المتنبى كشاعر بين القديم والجديد ؛ إذ لم يرض لنفسه أن يكون محافظاً ، وحاول التجديد فلم يأت بشىء . وكان بين الحضور المعجبين الأخ مصطفى كامل ياسين ، وهو شاب نابه من شباب العراق جاء إلى باريس لاستكمال دراسته للقانون ؛ ويظهر أنه عتب على الدكتور فى نفسه ، حتى إذا كانت حفلة طلاب شمال إفريقية ألقى كلمة شعرية لطيفة ممتعة فيها هذه الأبيات :

يافتى النيل بعض واديك نيل زاهر الضفتين عذب المواسم
أدب كابتسامة الفجر تخضل (م) بأنفاسها ثغور الكمائم

هو آمال أمة وتراث من رسالاتها بظلك سالم
وسواء بالفضل راية فتح خافق ظلها وآية عالم

يشتهي نقدك العراق وإن كا ن على آية العراقين حائم
ولذكراك تنثني كوفة الجنـ ـد وتندى معاهد ومعالم
أو تنسى رسالة المتنبي وسراياه والظبا والمعالم
لست أدري وإن فتنت بـ آيا تك والسحر من بنانك ناجم
أخيال من ابن عباد أم فيـ ض من الحق لا يرق للائم ؟

أنت يا ابن البيان وحي عصور مشرق عهدها وفيض مكارم
تنطوي صفحة الزمان وأيا مك ميمونة ومجدك دائم

وقد أعجب الدكتور بالشعر والشاعر وقربه إليه وأخذ يسأله عن حاله ودراساته هنا، كما أعجب بذلك الحاضرون إعجاباً شديداً.

٤ — وكان أخيراً، بعد هذه الأيام المشهودة الخالدة، أن تفضل الأستاذ الدكتور باجابة دعوة أبنائه المصريين إلى حفل يتحدث فيه إليهم حديث الأستاذ لتلاميذه المخلصين قبل أن يترك باريس إلى الوطن العزيز. ودعي إلى هذا الحفل كثير من العلماء والأدباء والأساتذة الفرنسيين، وعدد كبير يمثل البلاد العربية شرقها وغربها؛ وكان ذلك يوم الأربعاء ٢٦ من هذا الشهر، في قاعة الحفلات بالمنزل الدولي بالمدينة الجامعية.

وقد بدأت الحفلة بتقديم مندوب Le centre d'accueil à Paris إلى الدكتور وثيقة رسمية من مدينة باريس فيها اعتراف بفضله وتقديره كصديق من أصدقاء باريس، ثم بكلمات طيبة من الاخوان والأساتذة: القصاص والشاوي وعنبر، ثم أخيراً عزفت بعض قطع من الموسيقا الغربية. وبعد كلمات الترحيب والشكر من الاخوان تحدث الدكتور إلينا بالفرنسية موصياً ناصحاً بضرورة فهم الحياة بباريس فهماً دقيقاً من كل نواحيها وانتهاز الفرص الكثيرة المتاحة لنا لنصل إلى ما يجب من هذا كله، وبذلك تجني مصر منا فيما بعد الكثير من الخير؛ إلى غير ذلك من النصائح الحكيمة التي أمدته بها تجاربه الطويلة، والتي تنبعث من عقله وقلبه لأبنائه المخلصين. كما شكر باسم المصريين ومصر عامة ما يلقاه هنا أبناؤها دائماً من حفاوة باريس وجهاتها الرسمية، وعناية الأساتذة عناية شديدة خالصة، تجمع بين عناية الأستاذ والأب الحكيم.

وكان بين الحضور الذين تفضلوا باجابة دعوتنا من الأساتذة الفرنسيين، الأساتذة ماسينيون وبريسيه وليفي بروفنسال، وغيرهم من أساتذة السوربون ومعهد الدراسات الاسلامية والكولوليج دي فرانس.

هكذا كان مقام الدكتور طه حسين بك بيننا في باريس هذه الأيام، عظيم الفضل محمود الأثر بفضل الله على مصر والعروبة عامة. ونسأل الله الهداية والرشاد.

باريس في ٢٧ مايو ١٩٤٦

محمد يوسف موسى

شهريات

شهرية الاجتماع

أثر الحرب فى الإجرام

تعتبر الحروب من الظروف التى تمر بالمجتمعات فتغير من مجرى حياتها وتحدث أثراً واضحاً فى كافة اتجاهاتها الذهنية ومقاييسها الاجتماعية . ومما لاشك فيه أن الاجرام ، وهو ظاهرة اجتماعية أو على تعبير البعض سنة كونية ، يتأثر تأثراً واضحاً بالحروب ويصطبغ بها بألوان متعددة . . . والاجرام بعناصره يتكون من المجرم والجريمة ، ويضاف لذلك عنصر ثالث هو العقاب ، وهو جواب المجتمع على الخارجين عليه الكاسرين نواميسه . والحرب فى نيلها كل مظاهر الحياة بالتغيير تنال الاجرام فى عناصره آنفة الذكر ؛ فهى تنال المجرم من ناحية بواعثه النفسية ومدى قداسة المعايير الخلقية عنده ، وتناله أيضاً من حيث نوعه وبيئته ، وفى نظرته إلى طائفة معينة من الجرائم والفصل بينها وبين الخطيئة والاستعانة بكل وسائل التبرير لابعاد بعض الجرائم عن دائرة الخطيئة .

وتتأثر الجريمة بالحروب ، فتنطوى تلك الظاهرة الاجتماعية تحت قانون العرض والطلب كما ردد ذلك الفيلسوف تارد ، فتكثر أنواع من الجرائم تقتضيها الظروف الطارئة ، أو بتعبير آخر يشتد الطلب عليها ، وتصطبغ أفعال ما كان يدور بخلد أحد أن تصطبغ بصبغة الجريمة . ويلابس الجريمة بصفة عامة صفة المبالغة فى الأداء أو على الأقل الأداء الاجماعى .

والعقاب وهو العنصر الثالث من عناصر الاجرام يظهر أثر الحرب واضحاً عليه فى تلك النظرة الحازمة التى توليها السلطة العامة بعض الجرائم ، وارتفاعها بدرجات العقاب فى بعض الحالات وبعض الظروف إلى درجة غير متصورة فى الظروف العادية .

وسنبدأ بشرح أثر الحرب فى المجرم وسنحاول الوصول إلى ماوراء العرض الظاهر لصانع الجريمة مقتفين دخيلة نفسه .

يصدر المجرم فى جريمته عن بواعث تحركه وعن بيئة اجتماعية تساعد فى تكوين هذه البواعث لديه . . . وفى الظروف العادية تعمل البيئة عملها فى تكوين البواعث الخاطئة . فهذا شخص يولد فى أحضان الفقر فتدفعه الحاجة وأخلاط السوء إلى ألوان من الاثم والجريمة . . . وهذا حدث من أقاصى الصعيد يقتل والده وتعمل البيئة الحارة التى تغلى بالانتقام عملها فى نفسه . . . ويضج بشماتة الناس وتعييرهم ، فتنمو فكرة الانتقام عنده وتترعرع إلى أن ينفس عنها بالطريق الذى يختاره ، وبذلك ينخرط فى سلك المجرمين .

وفى الحرب تزداد البواعث الموجودة أصلا ، والتى تحرك الشخص لارتكاب الجريمة ، جلاء ووضوحا وقوة . فطبيعة الطفرات التى تلازم الحروب وترتفع بأشخاص من الفقر إلى الغنى العريض ، هذه الطفرات الواسعة تصلح حافزاً ضخما لدى كثير من الأشخاص

على ارتكاب جرائم الأموال وتوفر فى نفوسهم عنصر المقامرة التى قد يكون من نتائجها فيما بينهم وبين أنفسهم استواؤهم على عرش المال إن كفلت لهم حظوظهم النجاة من معقبات فعلهم. فمثلا فى جرائم الأموال، وهدف الشخص فيها وقصده الأول الحصول على مال مملوك للغير بطريق غير مشروع، يزداد الدافع على ارتكاب هذه الجرائم فى أزمان الحرب وضوحا وقوة، فيدفع المجرمين إلى اجتراح مثل هذه الأفعال دفعاً أشد عنفاً وأكثر جلاء من أزمنة السلم. وهذا ما ظهر فعلا فى عدد من المجرمين؛ فكثير من موظفى الحكومة الذين كانوا فى مدة الحرب يحتكون بحكم عملهم بالتجار يرون بأعينهم الربح الذى ينعم به هؤلاء فيعملون آذهانهم فى مقارنات خاطئة بين حالتهم وحالة هؤلاء المجدودين. وكثيراً ما أنتجت هذه المقارنات لدى بعضهم بواعث على الجريمة. فتولد حالة الموظف المالية وما يتوقعه لنفسه من مستقبل تعس وما يرى عليه التجار الذين أسعدهم الحظ، كل هذا يولد عنده رغبة حائرة عاجلة فى الربح، فيسعى نهماً وراء المال، ويشعر بجوع مادى هو أول درجات الجريمة عند ضعاف النفوس. وقد وقعت طوائف متعددة من الموظفين فى المحظور بسبب هذا، وأضيف إلى السجون شباب يانع سلبته الرغبة الجامحة فى الاغتناء نعمة الحياة الشريفة. وفى غير دوائر الموظفين كثيرون من ضعاف النفوس أذهلهم الغنى المفاجىء الذى حل بغيرهم، فتولدت عندهم رغبة التسابق المندفع الذى لا يعرف الهوادة ولا يعرف القيود، خلقية كانت أو قانونية أو اجتماعية. وولدت هذه الرغبة بدورها باعثاً جامحاً على الاغتناء ولو كان عن طريق الجريمة. فهذه الطفرات الواسعة التى ولدتها الحروب تعتبر مسئولة شيئاً ما عن أشخاص عديدين وقعوا فى الجرم وما كانوا ليقعوا فيه لو لم تسر الظروف على هذا النحو.

وليت الأمر يقف عند هذا الحد، بل إن بيئة الحرب تغير من نظرة بعض الأشخاص إلى المعايير الخلقية التى تواضع المجتمع عليها. ومن مقتضى هذه المعايير إدخال طائفة من الأفعال فى عداد الجرائم. والملحوظ أن الأخلاق تنهى عن الجريمة أيا كان لونها، إما لأن اقترانها خطأ خلقى فى ذاته كالسرقة والاغتصاب، وإما لأنها مجافية — وإن لم تكن مجافاة تامة — لقواعد الأخلاق كجرائم الاهمال؛ فان فى ارتكابها تعريضاً للمركز الذى يحرص الرجل المحترم على التمتع به فى المجتمع. والحرب تؤثر فى هذا الوضع المريب الذى يحيط بالجريمة، فتكاد تخرج بها فى نظر بعض الأشخاص عن دائرة الخطيئة إلى دائرة الأفعال المشروعة. ففرص الاغتناء الواسعة، وموجات الأموال التى تنفق بغير حساب، وعمل الظروف غير المفهوم فى توزيع الأموال على أشخاص دون آخرين، وزيادة الاعتقاد أن الحرب فرصة لا تعوض للاغتناء لايكون وراء تركها إلا الندم، كل هذا يقلب فى بعض النفوس رغبة انتهاز الفرصة، ويلبس الجريمة ثوبا من أثواب المحاولات والكفاح فى الحياة لا أكثر، وتختفى تدريجيا المعايير الخلقية تحت هذا الستار فيصبح الشخص المقدم على الجريمة فى نظر نفسه ليس أمام عمل مشروع أو غير مشروع أو عمل ينال من مركزه الاجتماعى أو لا ينال منه، بل أمام اختيار الفقر أو الغنى، انتهاز الفرصة أو تركها، ولا شأن للأخلاق فى هذا الموقف . . . ولا محل لرقابة الضمير . . . ويندفع وراء هذا التصور الخاطىء مستعيناً بكل وسائل التسويغ إلى أن يصل بينه وبين وجدانه، إلى أن مهارة الشخص فى انتهاز الفرصة وأن طعام الساعة هو عقل الساعة . . . ولا تترك له عجلة الحرب الهوجاء فرصة للتأمل والتدبر فى أوهامه وأخطائه.

فى إحدى القضايا سئلت فتاة اندفعت فى تيار الفساد عن حياتها قبل الوقوع فى الرذيلة فأجابت بأنها كانت خادمة . ولما سئلت عن سبب إيثارها عملها الجديد على القديم وهو يمتاز بطهارة المسلك ، أجابت بأنها خرجت من المقارنة بين الماضى والحاضر إلى أن فى الحاضر يسراً وسهولة فى سبل الرزق ، ويسراً وسهولة فى تجميع المال . وتفويت مثل هذه الفرصة قد يدعو إلى ندم العمر كله . وظهر أيضاً أن بعض الموظفين الذين انزلقوا إلى الرشوة كان يساورهم شعور خفى أن فعلهم هذا لم يكن إلا إقامة للعدل بينهم وبين غيرهم من المجدودين بسبب الحرب ، وإصلاحا للتوزيع الذى قامت به المصادفات بغير حساب ، وهى علة مفهومة فى نظرهم . بل إن كثيراً من الذين اقتطعت منهم مبالغ الرشوة ليذكرون أن هؤلاء الموظفين كانوا يصرحون لهم بذلك دون مواربة ، موضحين أنه ليس غريباً ولا نابياً أن يخصهم شىء مما ينالون من أموال طائلة . ومن ذلك يبدو مقدار تأثر المعايير الخلقية بالحروب ، ومقدار مزاحمة الفرص البراقة ، وهى كثيرة جداً فى زمن الحرب ، للتراث الخلقى ، ومقدار تداعى مبادىء الأخلاق أمام رغبة جمع المال .

هذا هو أثر الحرب فى صانعى الجريمة ، وهذا هو المدى الذى يتأثر به المجرم . وأما أثر الحرب فى الجريمة فيتعين أن نبدأ قبل الكلام عنه بتعريف الجريمة :

يعرف رجال القانون الجريمة بأنها كل فعل أو امتناع يقرر له القانون عقابا . . . والمفهوم بداهة أن القانون عندما ينهى عن فعل أو امتناع يستهدف فى ذلك مقتضيات الزمان والمكان ، فما يعتبر محرما فى وقت من الأوقات أو ظرف من الظروف قد لا يعتبر كذلك فى وقت آخر أو مناسبة أخرى .

والمجتمع بحكم غريزته فى المحافظة على نفسه دائم اليقظة ، ويتحرى ما يهدد كيانه فينهى عنه ويوجب الأفعال التى يراها لازمة للمحافظة عليه . وأوقات الحروب أشد الأوقات تهديداً لسلامة المجتمع ، ومن ثم تزداد حساسيته فيرصد العقاب فى أفعال متعددة أحس بخطرها واضحاً . والحرب التى مرت بنا أرتنا بوضوح ذلك الحرص وتلك اليقظة التى تلابس المجتمع فى المحافظة على نفسه ؛ فقد نهى عن أفعال وهو لا يبغى من وراء نهيه إلا تلبية رد الفعل الجديد الذى وضعته فيه ظروف الحرب قهراً .

أحست الحكومات منذ البداية بأطماع الطامعين ، ورأت شبح الجوع والغلاء يهدد كيان الشعوب ، ورأت الميزان يختل بين مختلف الطوائف ، ورأت توثب بعضها لبعض فاستجابت لذلك كله وأدخلت أفعالا معينة فى باب المحرمات وقررت لها عقابا ، ووضع الاتجار تحت الرقابة وأقيمت له حدود اعتبرت مجافاتها جرما ، وحرمت الأفعال الكثيرة لضمان تموين الشعوب وأخرى لضمان سلامة الدولة فى أعمالها الحربية . وصفوة ما تقدم أن أفعالا كثيرة انسحب عليها ثوب التحريم بسبب الظروف الطارئة ، ومن ثم زاد عدد الجرائم زيادة ملحوظة .

وفيما عدا الجرائم التى نشأت لأول مرة بسبب الحرب ، فقد اختل التوازن اختلالا واضحا بين الجرائم المحرمة أصلا فى زمن السلم . فبينما دعت ظروف الحرب إلى زيادة نوع معين من الجرائم بقيت أنواع أخرى فى حدودها الطبيعية . ويصح أن نستهدى هنا بنظرية الفيلسوف تارد فى إخضاع الاجرام لقانون العرض والطلب ؛ فقد اقتضت ظروف الحروب وتجمع الجند فى المدن لقضاء فراغهم والتماسهم الراحة عن طريق اللهو وعدم اطمئنانهم على حياتهم ، مما يقلل حرصهم على المال . . . اقتضى كل ذلك زيادة عدد الجرائم الخلقية

وجرائم الأموال زيادة فاحشة . فوسائل تصيد المال ميسورة بالطرق غير المشروعة ، فقام هيكل ضخم من جرائم متعددة هدفها الأول ابتزاز أموال هؤلاء الجنود . وفى هذا الهيكل زادت الجرائم الخلقية وجرائم السرقة زيادة ملحوظة ودعا تجمع الجيوش وكثرة ما تنفقه وانتشار الجنود وقضاؤهم حاجاتهم وكونهم جنودا إلى حرص التاجر وجشعه فكثرت جرائم غش البضائع . ومجرد مطالعة الاحصائيات الرسمية يؤيد ما سبق أن ذكرنا من اختلال موازين الجرائم وازدياد بعضها ازديادا واضحا .

والحرب تعتبر بيئة صالحة لنوع من الجريمة يستتر دائما تحت ستار البطولة ، وهو الجريمة التى توجه ضد الدولة والتى تصطبغ بصبغة المغامرة التى يقوم بها المغامرون الطامحون . فجرائم الخيانة وجرائم الاتصال بدول الأعداء والمراهنة الايجابية العملية على مصاير الدول ، كل هذه الأفعال تظهر غالبا فى أيام الحروب ويقوم بها أشخاص تضيق صدورهم بالمطامع الواسعة والآمال العريضة ، وهم فى الغالب من الطوائف الممتازة ذهنيا لكن شدة أثرتهم هى التى تدفعهم إلى سلوك هذا السبيل .

وهناك أثر للحروب ينسحب على الجريمة بصفة عامة . فالعنف والتنظيم الذى يلابس الحرب يصبغ الحياة كلها ، ومن بينها الجريمة ، بهذه الصبغة ؛ فهى تتخذ شكلا منظما توحى به عقلية الحرب والميدان ، فتنتظم العصابات للسرقات وللنهب ولابتزاز الأموال بالطرق غير المشروعة . . . وتجمع هذه العصابات وتنظيمها يؤدى بها إلى شئ من الثقة والجرأة ، ومن ثم تنشأ الجريمة التى تؤدى بشكل إجماعى عنيف .

هذا هو أثر الحرب فى الجريمة ، وهذا هو اللون الذى تصطبغ به . أما أثر الحرب فى العقاب ، وهو العنصر الثالث من عناصر الاجرام كما سبق أن أوضحنا ، فيمكن تلخيصه فى زيادة حساسية المجتمع فى الحفاظ على نفسه فيصدر من العقوبات ما يكون رد فعل للعنف الذى يبدو من المجرم والاتساع فى الجريمة . فالأثر عبارة عن عنف يقابل عنفا وشدة تقابل شدة . ومن ثم ترتفع العقوبات ويوجد القضاء العسكرى باجراءاته الصارمة وشدة أخذه للجناة . وما هذا كله إلا كما أوضحنا استجابة للظرف الجديد ، ظرف المبالغة والجنون فى كل شئ . هذا هو أثر الحرب فى الاجرام أحد مظاهر الحياة الاجتماعية ، وهو كما أوضحنا اندفاع من المجرم إلى آخر مدى تطيقه إرادته الاجرامية مع تبرير ومغالطة ترمى إلى تسويغ الجريمة ، واتساع واختلال فى ميزان العمل الخاطئ ، ويقظة وحرص واستجابة من جانب الحكومات لهذه الدواعى التى تهدد كيانها .

احمد مختار قطب

شهرية السياسة الدولية

بل شهرية وزراء الخارجية

كان مؤتمر وزراء الخارجية الأربعة المنعقد بباريس هو الشاغل بال المعقبين على الشؤون الدولية طوال الشهر المنقضى ، وقد بدأ فى الخامس عشر من شهر يونيه وانتهى فى الخامس عشر من يوليه . وكان جدول أعماله متضمناً معاهدات الصلح مع إيتاليا وبلغاريا ورومانيا والمجر وفنلندا ، كما كان متضمناً العرض قدر المستطاع لمعاهدة الصلح مع النمسا ولشؤون ألمانيا . وقد تراوح جو المؤتمر بالنسبة لأعضائه وبالنسبة للمتتبعين أعماله بين التفاؤل والتشاؤم ، وكان هذا التراوح يتمشى فى عمومه مع المواقف التى كان يقفها الرفيق مولوتوف وزير الخارجية السوفيتية من زملائه وزراء بريتانيا العظمى والولايات المتحدة وفرنسا ، بل من زميليه وزيرى انجلترا وأميريكا وحدهما ، تساهلا أو تشددا.

وقد خشى فى بعض الأحايين أن يبوء المؤتمر بالاخفاق وأن تحل بالعالم كارثة ، إن لم تكن هى كارثة حرب عالمية ثالثة ، فهى على كل حال كارثة قطع العلاقات الدبلوماسية أو وقفها أو توترها بين الكتلتين السلافية والانجلوسكسونية . لكن كتبت السلامة آخر الأمر للمؤتمر وتوجت أعماله بالنجاح ، ودعى مؤتمر الصلح إلى الانعقاد فى التاسع والعشرين من شهر يوليه يضم الاحدى والعشرين دولة التى كان قد تم التفاهم فى اجتماع من اجتماعات « الأقطاب الثلاثة » رؤساء المملكة المتحدة والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، على قصر الدعوة عليهن ، وإن كانت مصر وإيران والعراق قد تقدمت بطلبات لحضوره ، وهن قد بذلن أثناء الحرب بالنسبة لطاقتهن ما يعتبرنه مساهمة فعالة فيها .

تريستا والمستعمرات الإيتالية

وكانت المسألتان الشائكتان خلال معاهدة الصلح الايتالية هما مسألة تريستا ومسألة المستعمرات الأفريقية . أما جزر الدوديكانيز فقد تقرر بالاجماع عودتها إلى اليونان . ووجه الصعوبة فى مسألة تريستا أن إيتاليا تعتبرها إيتالية فتريد استبقاءها فى حظيرتها ، وأن يوجوسلاڤيا تعتبرها يوجوسلاڤية فتريد ضمها إليها . وقد انتهى الأمر بشأنها إلى اعتبار منطقتها « إقليما حراً » يحظى بنظامه البرلمانى الخاص المستند إلى مبدأ الانتخاب العام

ويكون له حاكم يعينه مجلس الأمن بهيئة الأمم المتحدة بعد استشارة إيتاليا ويوجوسلاڤيا ويكون مسئولا أمامه بالذات . وهذا إلى تحديد التخوم بين إيتاليا ويوجوسلاڤيا بالخط المسمى « الخط الفرنسى » — ومندوب فرنسا هو الذى اقترحه — تحديداً يقضى على كثير من أسباب التنازع فى تلك المنطقة التى تقطن فيها جنسيات مختلفة إيتالية وسلاڤية وكرواتية ونمساوية ومجرية أيضا . لكن هذا الحل لم يرض الايتاليين ولم يرض

اليوجوسلافيين، فأعلن الايتاليون الحداد إذ فقدوا « تريستا » واحتجت حكومتهم الجديدة بل أعلنت خيبة أملها فى « العدالة الدولية » . وقامت حكومة بلغراد تعلن عدم رضائها عن قرار الأربعة الوزراء ، كما قام السلافيون من سكان الاقليم يحاولون الاقدام على حركة فعالة ، فقابلتهم السلطات الأميريكية بدعم قواتها العسكرية فيها .

وأما المستعمرات الأفريقية فقد انتهى المؤتمر إلى تقرير تأجيل البت فى مصيرها إلى ما بعد انقضاء عام على إبرام معاهدة الصلح الايتالية ، ولكن مع تحديد الأوضاع التى يتم على مقتضاها مصير تلك المستعمرات . وهى أوضاع الاستقلال أو الوصاية أو الادماج فى أقاليم مجاورة مع اعتبار الوعد الذى قطعته بريتانيا العظمى للسيد السنوسى بألا يعود النفوذ الايتالى إلى برقة بحال . ومعنى هذا إبقاء المشكلة كلها معلقة إلى وقت أنسب مع الاحتفاظ لكل من اصحاب الشأن بوجهة نظره . وبريتانيا العظمى تود أن تكون برقة بين مناطق النفوذ البريتانى ، والاتحاد السوفيتى يطالب بالمساهمة فى الوصاية على طرابلس وعلى أريتريا، وإيتاليا تسترحم كى تعود إلى طرابلس ويحظى استرحامها بتأييد الولايات المتحدة . وانجلترا تود لو خلقت الصومال الكبير من الصومال البريتانى والصومال الايتالى والصومال الفرنسى تحت وصايتها ، وأهل أريتريا يطالبون بالانضمام إلى الحبشة ، وإمبراطور الحبشة يطالب بمنفذ لبلاده إلى البحر . ومصر لا تريد أن تعاودها أزمة الاعتداء على حدودها الغربية والتوغل من ناحيتها فى أراضيها المستقلة ، والجامعة العربية تود لو تحظى طرابلس الغرب — وهى من بلاد العربية — باستفتاء أهلها جميعاً كى يقرروا ما يريدون لأنفسهم من مصير .

الحدود الفرنسية الايتالية

كذلك تم تفاهم وزراء الخارجية الأربعة على تعديل الحدود الجديدة بين إيتاليا وفرنسا ، فأدخلت فى الجمهورية الفرنسية بلاداً ظل أهلها يتكلمون الفرنسية على الرغم من ضمهم إلى إيتاليا وبقائهم تابعين لها عشرات عدة من السنين ، كما ادخلت محطات كبيرة لتوليد الكهرباء بفعل سقوط المياه من الجبال توفر لفرنسا الكثير من الوقود الذى تحتاج إليه صناعاتها فى تلك المنطقة من مناطق جنوبها الشرقى .

التعويضات

كما تم التفاهم على التعويضات التى فرضت على إيتاليا ، وهى الدولة المنضمة إلى ألمانيا فى الاعتداء . وكانت روسيا تستمسك بنصيبها فى تلك التعويضات كما كانت تستمسك بتعويض اليونان على ما أنزل بها الاعتداء الايتالى المفاجىء من رزايا ، فانتهى الرأى إلى قبول وجهة النظر الروسية فى الحالين ، وإن كانت قد اكتفت هى بأن يكون نصيبها من التعويضات أنواعاً من الانتاج الايتالى لا نقدا مراعاة لضائقة إيتاليا المالية .

الملاحة فى الدانوب

وكان تنظيم الملاحة فى الدانوب — أو كانت حرية الملاحة فيه — محل تدافع فى مؤتمر وزراء الخارجية ، لكن الأمر انتهى إلى تغليب منطق الأشياء وتقررت هذه الحرية تحت إشراف الدول التى يجتازها النهر الأوربى العتيد . وبهذا سهلت الموافقة على معاهدات الصلح مع رومانيا وبلغاريا والمجر ، وسهل التفاهم على سحب القوات السوفيتية منها فى نفس المدى الذى تم التفاهم على سحب القوات الاميريكية والبريطانية فيه من الاراضى الايتالية، وهو مدى تسعين يوماً بعد التوقيع على معاهدات الصلح .

معاهدة فنلندا

وكذلك أقر المؤتمر معاهدة الصلح مع فنلندا — أومشروعها — وهى التى تعنى روسيا قبل غيرها وإن كانت انجلترا قد ساهمت فيها كذلك بخلاف فرنسا وأمريكا، إذ لم تكونا محاربتين لفنلندا .

ألمانيا والنمسا

ولم يستطع الوزراء الاربعة أن يصلوا إلى تفاهم على شؤون ألمانيا والنمسا ، فأجلوا بحثها إلى اجتماع آخر، على الرغم من احتجاج فرنسا التى كانت تود الانتهاء إلى تقرير نظام دولى لمنطقة الرور الغنية بفحمها يكون لها فيه مقام خاص .

وقد كان للرفيق مولوتوف فى هذا الصدد تصريح لم يرض الفرنسيين ، إذ عارض فيه مبدأ تقسيم ألمانيا وأيد فكرة الابقاء عليها دولة موحدة ، وإن كانت محاولات تبذل فى سبيل عدول روسيا عن اتجاهها الذى أعلنه وزير خارجيتها فى تصريحه .

شىء من التفاؤل

ومهما يكن من شىء فقد غلب التفاؤل على أثر مؤتمر وزراء الخارجية فى نفوس المعقبين الدبلوماسيين ، وقد تجسم هذا التفاؤل بخاصة فى خطاب أذاعه مستر بيرنز وزير خارجية الولايات المتحدة فى السادس عشر من يوليه بمجرد عودته إلى واشنطن من باريس بعد انقضاء أعمال المؤتمر ، وقد أعرب فيه عن عظيم سروره ، إذ توجت جهوده وجهود زملائه فى سبيل تنسيق وجهات نظر الدول العظمى بالنجاح ، كما أعرب عن كبير أمله فى انسجام الاتجاهات بينهن فى مستقبل الأيام .

محمود عزمى

شهرية السينما

الجوهرة السوداء (أفلام مينرفا) (١)

يخيل إلى مشاهد هذا الفيلم أن الجوهرة السوداء التى يحمل الفيلم اسمها ، تلعب دوراً مهماً فيه . وما تكاد تجرى حوادث القصة حتى نعلم أنها ليست ذات خطر وأن المؤلف لم يطلق هذا الاسم على قصته إلا لما فيه من غرابة . فالجمهور حين تحدثه عن جوهرة يتخيل فى الحال حجراً كريماً براقاً ، ولا يتبادر إلى ذهنه أن ثمة جواهر سوداء نادرة الوجود . فالجوهرة السوداء فى نفسها شىء فريد يثير الاعجاب لندرته ، فما بالك وهذا الاسم يطلق على قصة سينمائية ! فالمشاهد يسعى إلى دار العرض لاشباع فضوله الذى أثاره هذا الاسم الغريب ، ولكن سرعان مايخيب ظنه ، فالفيلم ليس فيه من جمال إلا عنوانه ، وربما كان تمثيله أيضا .

اعتزم المسيو مترى ، وهو مدير أحد البنوك الكبيرة فى باريس ، أن يلحق بامرأته وطفلته على الساحل الجنوبى من فرنسا لتمضية عيد الميلاد مع الأسرة ، ولكنه عند وصول الطائرة إلى المطار لا يجد فى انتظاره إلا طفلته ومربيتها . كانت امرأته قد برحت القصر ذاهبة إلى طولون لأمر يجهله زوجها ، ولم تعد من رحلتها فى الوقت المناسب لمقابلة زوجها . ويطول انتظار الزوج لزوجته ، ثم يعلم أنها لقيت حتفها فى حادث سيارة . ويعيد البوليس إليه ما وجده مع الفقيدة فى السيارة . ومن بين هذه الأشياء عدة خطابات كتب على غلافها الخارجى هذه الجملة المثيرة : « تحرق عند وفاتى » .

يتردد الزوج طويلا فى إحراق هذه الخطابات ، وأخيراً يلقيها فى النار . وإذ يتأملها وهى تذوب فى اللهيب يقع بصره على هذه الجملة فى نهاية أحد الخطابات : « إن ابنتنا لا تعرف أباها الحقيق » . فيعتقد أن لامرأته عشيقاً ، وأن تلك الطفلة التى أحبها ودللها ليست ابنته بل ابنة غريمه . فينفر منها ويبتعد عنها ويهجر القصر ويحيا فى باريس حياة لهو وعربدة . أما الابنة فتلاق من العذاب ألوانا ، فهى تعسة منذ وفاة أمها لأن مربيتها تريد أن تحل مكان والدتها فى المنزل وأن تبعدها عن القصر حتى تتمكن من مغازلة الأب والزواج به . والطفلة تكافح فى سبيل إحباط هذه المؤامرة ، حتى تضطر المربية أن تدخلها إحدى المدارس الدينية التى تديرها الراهبات . وهنا تتاح الفرصة للمربية أن تنصب شراكها لرب الدار وتحمله على الزواج بها ، ولكنه يرجىء هذا الزواج . وتعلم الفتاة بكل مايحدث بين والدها ومربيتها فتزهد فى الحياة وتعزم على دخول الدير . وأخيراً يعلم الوالد من إحدى صديقات زوجته أن الخطابات التى أحرقها لم تكن خطابات زوجته بل خطابات تلك الصديقة . فيتحقق حينئذ أن الطفلة ابنته وأنه باعراضه عنها لم يثر إلا بغضها له وزهدها فى الحياة ، فيحاول أن يصلح خطأه . ويعاونه فى تلك المهمة الشاقة أحد أصدقائه . ويقع هذا الصديق فى شراك الحب للفتاة ، ولكن سرعان مايتضح له أن

---

(١) Le Diamant Noir (*Films Minerva*).

الفتاة لا تحبه ، وإنما هى فى كلف شديد بشاب فى البحرية كان رفيق طفولتها . فلا يمانع الوالد من زواج ابنتـه بمن تحب . والقصة ، وقد استوفت حوادثهـا ، لا تنتهى إلى هذا الحد من المفاجآت العجيبة ، بل يضيف المؤلف إليها حادثاً مفاجئاً آخر وهو إعلان الحرب وانفصال العاشقين الصغيرين .

ونحن نجد أن القصة فى بداءتها متقنة تمام الاتقان فى دراستها للشخصيات وفى ترتيب حوادثها، حتى يلجأ المؤلف إلى المفاجآت التى تغير مجرى الرواية ، مثل ظهور شخصية صديقة الزوجة واعترافها المفاجئ للزوج بأن الخطابات الغرامية هى خطاباتها، وأنها قد أعطتها لصديقتها لتعيدها إلى عشيقها . ويسائل المشاهد ما الذى حمل هـذه العشيقة على تسليم تلك الخطابات إلى صديقتها مع أن فى إمكانها هى أن تعيد بنفسها هذه الخطابات إلى عشيقها ؟ ويسائل كذلك : ما أهمية إعلان الحرب فى نهاية الرواية ، وما الدافع إلى هذا التطويل ويسـائل أخيراً : ما الدور الذى لعبتـه الجوهرة السـوداء فى الفيلم ، وما أهميتها فى مجرى حوادثه حتى يحمل الفيلم اسمهـا ؟

وقد قام بدور الوالد المسيو شارل ڤانيل، وهو ممثل قدير نجح أتم النجاح فى تمثيله . فهو لا يلجأ مطلقاً إلى العنف فى التعبير عن شعوره مكتفيا بنظرة أو بايماءة ليعبر عن الحزن أو الغيرة أو الغضب . وقد تؤاخذه على اتباعه أحياناً أسلوباً مسرحياً فى أداء دوره ، ومع ذلك فلا يسعنا إلا الثناء عليه لتمثيله البارع .

ومدام جابى مورلى بالرغم من كبر سنها الذى لم يخفه الماكيياج فى هذا الفيلم ، فانها لم تغير من أسلوبها الفنى فى القيام بدور المربية . وقد أتقنت الأداء إتقانا يستحق هذا الاعجاب الذى نالته دائماً . فهى لا تتقن فناً واحداً ، وإنما تجيد تمثيل الدراما بقدر ما تتقن تمثيل الأدوار الهزلية . وحسبنا هذا ليكون دليلا على كفايتها الفنية الفائقة .

ورغم ضآلة الفيلم من حيث القصـة فهو يعـد إنتاجاً حسناً إلى جانب تلك الأفلام المتخاذلة التى تعرض علينا أثناء الموسم الصيفى فى مصر .

السابحات الفاتنات (مترو جلدوين ماير)[1]

و « السابحات الفاتنـات » من الأفلام الاستعراضية الملونة ، فيه من المناظر الخلابة والمواقف المضحكة الفكهة ما جعـله يحتل دار العرض منذ أربعة أسابيع .

والقصة هنا معدومة تماماً ، أو قل إن شئت إنها قليلة الشأن : شاب تزوج بفتاة رائعة الجمال ولـكن بعد مراسيم الزواج انفصلا لأنه نمى إلى الزوجة أن فتاها متزوج ، ولم يكن هذا صحيحا ، وإنما كانت وشاية أريد بهـا إقصاؤه عن محبوبته ، فيفرغ لعمله وهو التلحين . ولـكن الفتى ينصرف عن كل شىء إلا عن إرضاء زوجته واسترداد حبها .

ولم تكن القصة محور الفيلم ، فحوادثهـا قليلة جداً على حين كثرت خلال تلك الحوادث المنـاظر الراقصـة والموسيقـا الشـجية والاستعرضات الرائعة فى حمـام السباحة .

وثمة عنصران احتلا المكانة الأولى فى الفيلم : عنصر الفكاهة وعنصر الرقص . وكان الممثل

(١) Bathing Beauty (*Metro Goldwyn Mayer*).

الهزلى رد سكلتون يتعهد العنصر الهزلى، وقد أثبت منذ أمد بعيد أنه فاق الممثلين الأمريكيين الهزليين أمثال لوريل وهاردى وإدى كانتور وإخوان ماركس من حيث تعمقه النفس الانسانية وإظهار عيوبها فى صورة مضحكة. وهو لا يلجأ إلى عناصر خارجية لاثارة الضحك مثل لوريل وهاردى، ولكنه يعنى بابراز الناحية الهزلية فى عاداتنا وأخلاقنا، معتمداً فى ذلك على ايحاءاته وتعبيرات وجهه. وأذكر له تمثيل شخصية الخجول فى أحد الأفلام الاستعراضية الماضية؛ فقد مثل فى شىء من المبالغة المضحكة كل ما يأتى به الخجول من حركات وما يبدو عليه من اضطراب حين يكون بين يدى فتاة جميلة. وأذكر له أيضاً فى «السابحات الفاتنات» هذا الموقف العجيب الذى يحاكى فيه ما تفعله المرأة عند استيقاظها فى الصباح. ومع أنه لا توجد الأشياء اللازمة لهذا المنظر من الاكسسوار مثل المساحيق والملابس النسوية، فقد أخذ يمثله فى إتقان تام. فهو بحركات أصابعه يفهم المشاهد أنه يتناول «البودرة» و «أحمر الشفاه» و «أحمر الخد» الخ من المساحيق التى تستعملها النساء فى التجميل. وهو على إحاطة تامة بتفاصيل هذا التجميل، فلم يهمل منها شيئاً من تصفيف الشعر إلى ارتداء الملابس الداخلية والجوارب. وأعتقد أن ممثلا يجد المادة الهزلية فى حركاته المبتكرة المفاجئة دون أن يحتاج إلى أن يستمد هذه المادة من الأشياء التى تحيط به أو المفارقات المضحكة أو النكات الموضوعة، أعتقد أن هذا الممثل جدير بالاعجاب لهذا الفن الرفيع.

والعنصر الثانى فى الفيلم هو عنصر الاستعراض. ومما يؤسف له أن هذه الاستعراضات التى توالت فى الفيلم فى مناظر خلابة تسر العين، لا نرى فيها ما يستحق الذكر إلا الاستعراض الأخير الذى قامت به فتيات شركة مترو جلدوين ماير فى حوض السباحة، وقد كان استعراضا فريداً فى نوعه؛ فلم نر قبل منظر الرقص المائى، إن صح هذا التعبير عن هذا الاستعراض؛ فقد استعاضت الراقصات عن حركات الأقدام بحركات أذرعهن وهن يسبحن فى الماء على نغم الفالس. وكانت الراقصات على أتم ما تكون الحركة انسجاما، وهن يظهرن فى أوضاع مختلفة تمثل تارة أهراما، وتمثل تارة زهرات.

وقد أتى المخرج فى آخر المنظر بما يشوهه تشويهاً بغيضاً، وذلك بنوافير الماء والنار التى انبثقت فجأة من حوض السباحة. والذى أراه أنه أتى بهذه الأشياء ليؤلف منها صورة الستار وهو يسدل على الرواية حين تنتهى. أما الاستعراضات الأخرى فلست أرى فيها ما يجعل الحديث عنها مستساغا.

أما موسيقا الفيلم فقد كانت مزيجاً من الفالس والسوينج وموسيقا أمريكا الجنوبية. وقامت بأداء هذه الألحان فرقتان موسيقيتان، يقود الأولى منهما كساڤيه كوجيت وهو من ملحنى الرومبا المشهورين؛ ويقود الأخرى هارى جيمس من أحسن ملحنى السوينج. وساهمت بنجاح كبير هيلين فوريست العازفة على الأرغن، مهارتها فى العزف على هذه الآلة تدعو إلى الاعجاب والتقدير.

والفيلم فوق ذلك كله غنى بالمناظر الجميلة وبالألوان الطبيعية الخلابة وملابس الراقصات المنسجمة التى تدل على أن الذوق فى أمريكا قد أخذ يرتقى شيئاً ما. وقد يأتى يوم نرى فيه الذوق الأمريكى يضارع الذوق الفرنسى فى اختيار الملابس وألوانها.

رشدى كامل

من كتب الشرق والغرب

نقد النثر

ألفه قدامة فى سنة عشرين وثلثمائة

كان قدامة بن جعفر البغدادى ناقداً ، ملتهب الخاطر ، غزير المادة ، جيد الفطنة ، منظم الفكرة ، يقرأ الكتب بعين النقد ثم يسائل نفسه : هل أحاطت هذه الكتب بموضوعها أم لم تحط؟ فان وجدها كما يحب ويشتهى طاب بذلك نفسا ، وإن لم يجدها وفق ما يريد انبرى للتأليف فيما قصرت فيه ليتم النقص الذى لحظه كما فعل حين ألف نقد الشعر . فقد رأى المؤلفين قبله قد استقصوا بيان العروض والقوافى ، وشرح الألفاظ الغريبة ، والمسائل النحوية ، وأفاضوا القول فى معانى الشعر ومقاصد الشعراء ، ولكنه لم يجد أحداً تصدى للتأليف فى نقد الشعر ، وبيان جيده من رديئه ، مع أن التأليف فى هذا الفن أولى وأجدى « فان الناس يخبطون فى ذلك منذ تفقهوا فى العلوم ، وقليلا مايصيبون . » (١) ولما وجد الأمر كذلك وضع كتابه نقد الشعر .

وكان قدامة مولعاً بالنظام أشد الولع وأعنفه ، يأخذ به نفسه فى كل ما يكتب وما يؤلف . ومن ثم كان يضيق أشد الضيق بكل كتاب يحيد عن جادة النظام ، ويندفع إلى معارضته بكتاب منظم دقيق يونق أبصار الناظرين ، ويروق بصائر المتوسمين . قرأ قدامة كتاب « الألفاظ الكتابية » لعبد الرحمن بن عيسى الهمذانى المتوفى سنة ٣٢٠ هـ فلم يرق فى نظره ؛ لأن الهمذانى فى إيراده للألفاظ لم يعن باستقامة وزن الكلمات المتعاقبة ، ولا باتساق السجعات المتقاربة ، فعارضه بكتاب « جواهر الألفاظ » .

وكذلك قرأ قدامة كتاب « البيان والتبيين » لأبى عثمان الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ فوجده لا يستحق هذا الاسم الخلاب ؛ لأن الجاحظ « لم يأت فيه بوصف البيان ، ولا أتى على أقسامه فى هذا اللسان ، وإنما ذكر فيه أخبارا منتخلة ، وخطبا منتخبة » (٢) فعارضه بكتاب أسماه كتاب « البيان » ذكر فيه كما يقول : « جملا من أقسام البيان ، آتية على أكثر أصوله ، محيطة بجماهير فصوله ، يعرف بها المبتدى معانيه ، ويستغنى بها الناظر فيه . لم أسبق المتقدمين إليها ، ولكنى شرحت فى بعض قولى ما أجملوه ، واختصرت فى بعض ذلك ما أطالوه ، وأوضحت فى كثير منه ما أوعروه ، وجمعت فى مواضع منه ما فرقوه ؛ ليخف بالاختصار حفظه ، ويقرب بالجمع والايضاح فهمه . » (٣) ألف قدامة كتاب « البيان » هذا فى سنة عشرين وثلثمائة وعرضه على الوزير العالم على بن عيسى فقراه وأعجب به كما أعجب به كبار النقاد فى عصره ، فشهدوا له بالاجادة والاحسان والتفرد فى وصف فنون البلاغة بما لم يشركه فيه أحد وشبهوا عمله فى هذا الكتاب بوضع الخليل

---

(١) نقد الشعر ص ٥ . (٢) نقد النثر ص ٣ . (٣) نقد النثر ص ٥ .

ابن أحمد الفراهيدى لعلم العروض . وانتشر الكتاب ، وسارت نسخه إلى بلاد المغرب ، ثم عبرت البحر إلى الأندلس . . . ودار الزمن دورته ، وبادت كتب قدامة الكثيرة فيما باد من كتب السلف فى تلك المحن المعروفة ، ولم يبق من كتبه غير « نقد الشعر » و « جواهر الألفاظ » و « الخراج » ونسخة وحيدة من كتاب البيان كانت فى ملك عالم نحوى أندلسى وهو أبو عبد الله محمد بن أيوب بن محمد النافقى البلنسى (٥٣٦ — ٦٠٨ هـ) (١) . وهذه النسخة محفوظة فى مكتبة الأسكوريال . وقد كتب على صفحتها الأولى هذه العبارة : « كتاب نقد النثر مما عنى به أبو الفرج قدامة بن جعفر البغدادى رضى الله عنه وأرضاه . للشيخ الفقيه المكرم أبى عبد الله محمد بن أيوب بن محمد نفعه الله به . وهو الكتاب المعروف بكتاب البيان » . والناظر فى هذه العبارة يلحظ فى يسر وسهولة أن صاحب النسخة أو ناسخها قد استحدث للكتاب اسم « نقد النثر » ؛ لأنه قد جعله مع نقد الشعر فى مجلد واحد ، وأن هذا الاسم لم يكن شائعاً ولا معروفاً كما يشعر بذلك قوله : « وهو الكتاب المعروف بكتاب البيان » . قرأ بعض المستشرقين هذه العبارة فأخطأ فى فهمها ، وكان هذا مصدراً لخطأ جمهرة المستشرقين فى هذه المسألة الواضحة ؛ فقد أخذ درنبورغ صاحب فهرس المخطوطات العربية المحفوظة بالأسكوريال من هذه العبارة أن مادة الكتاب لقدامة ، وأن صياغتها لأبى عبد الله محمد بن أيوب ، وقال إنه لا يعرف شيئا عن ابن أيوب هذا . وتابعه على ذلك بروكلمان وهيوار متابعة تامة . وبازاء ذلك — كما يقول الأستاذ العبادى (٢) — شك الدكتور طه حسين بك فى نسبة الكتاب إلى قدامة ، وقال فى بحثه عن البيان العربى من الجاحظ إلى عبد القاهر : « ينسب نقد النثر إلى قدامة . ولكن المطلع عليه يرى أنه لا يمكن أن يكون له ، بل هو فى الغالب لكاتب شيعى ظاهر التشيع قد صنف كتبا عدة فى الفقه وعلوم الدين يشير إليها ويحيل عليها فى شئ من الطمأنينة والارتياح . » (٣)

وقد عهد الدكتور طه حسين إلى الأستاذ العبادى تحقيق هذه المسألة ، فكتب فى تحقيقه يقول : « أما نحن فبعد طول البحث ثبت عندنا أن الكتاب لقدامة كما جاء على الورقة الأولى من النسخة المخطوطة . » واستدل على ذلك بأن الكتاب لا بد أن يكون قد كتب فى عصر قدامة ؛ لأن أسلوبه وطريقته وروحه الفلسفى اليونانى « كل ذلك يشير فى جلاء ووضوح إلى أنه من آثار القرن الرابع ، ثم إنه ليس من بين الأعلام الكثيرة الواردة به علم واحد يمكن أن يقال إنه متأخر عن عصر قدامة تأخراً يذكر . والمقارنة الموضوعية بين كتابى نقد النثر ونقد الشعر ترى تقاربا عجيبا فى كثير من المعانى فضلا عن طريقة التعبير عنها مما يرجح أن الكتابين صدرا عن أصل واحد . » وضرب لذلك عدة أمثلة من الكتابين قارن بينها ، وخلص منها بنتيجة تؤيد إثبات الكتاب لقدامة . ولكن الدكتور طه لم يقتنع برأى الأستاذ العبادى وما زال عند رأيه الأول من أن الكتاب « لا يمكن أن يكون لقدامة » بدليل أنه تحدث بعد ذلك بأعوام عن « كتاب نقد النثر المنسوب لقدامة » وقال فى حديثه هذا : « والكتاب ليس لقدامة بيقين » (٤) .

وكان طبيعياً أن يشيع الشك فى نسبة

(١) بغية الوعاة للسيوطى ص ٢٣ .
(٢) مقدمة نقد النثر ص ٤٢ .
(٣) مقدمة نقد النثر ص ٢٠ .
(٤) من حديث الشعر والنثر ص ١٢٥ .

الكتاب . وأن يجزم كل من يعرض له بنفيه عن صاحبه . ومن أعجب ما رأيت أن بعض كبار الأساتذة قد استدل على أن الكتاب لم يؤلفه قدامة بأن مؤلفه قلد الجاحظ ، وقدامة لايقلد أحداً ؛ لأنه مستقل فى آرائه ! وبأنه شيعى وقدامة بعيد كل البعد عن هذا الاتجاه ، وبأنه قد ألف فى علوم الدين كتباً ، وهذه ناحية بعيدة عن قدامة كل البعد ! وبأن منهجه فى البحث إجمالى وفى أسلوبه سجع وازدواج ، ومنهج قدامة تفصيلى وأسلوبه مرسل بعيد عن السجع والازدواج . وهى أدلة واهية كما ترى لا تثبت أمام النقد إلا بمقدار مايلقفها . وقد كتب الأستاذ محمد كرد على بك فى مجلة المجمع العلمى كلمة عن الطبعة الثالثة من هذا الكتاب قال فيها : « ليس هـذا الكتاب لقدامة كما ذكر فى الكتاب وأكده الأستاذ العبادى بل هو لرجل شيعى مجهول كما قال الدكتور طه ، ولا يزال الأستاذ العبادى مصراً على نسبته لقدامة ، وما أورد على ذلك ضعيف » . وأنا لا أوافق الأستاذ على رأيه فى أدلة الأستاذ العبادى ، وهى عندى قوية كل القوة كافية الدلالة على أن الكتاب لقدامة . بل كان يكفى فى نسبته له ماجاء على الصفحة الأولى من النسخة المخطوطة ، ولم يكن هناك ما يسوغ الشك أو يدعو إليه . ولو ارتضينا الشك فى الكتب العربية على هذا النحو لنفينا كثيراً منها عن أصحابها ؛ لأنه ليس لنا من سند فى نسبتها إلى مؤلفيها غير وجود أسمائهم عليها .

والحق الذى لامرية فيه أن هذا الكتاب المسمى بنقد النثر قد ألفه قدامة ، ويشهد بذلك معاصروه . قال أبو حيان التوحيدى ــ وهو أعظم مؤرخ ثقافى لعصره : « وما رأيت أحداً تناهى فى وصف النثر بجميع مافيه وعليه غير قدامة بن جعفر فى المنزلة الثالثة من كتابه . » قال لنا على بن عيسى الوزير : « عرض على قدامة كتابه سنة عشرين وثلثمائة واختبرته فوجدته قد بالغ وأحسن وتفرد فى وصف فنون البلاغة فى المنزلة الثالثة بما لم يشركه فيه أحد من طريق اللفظ والمعنى مما يدل على المختار المجتبى ، والمعيب المجتنب . ولقد شابه فيه الخليل بن أحمد فى وضع العروض . ولكنى وجدته هجين اللفظ ، ركيك البلاغة فى وصف البلاغة ، حتى كأن ما يصفه ليس مايعرفه ، وكأن مايدل به غير ما يدل عليه . وهذا لايكون إلا من غزارة العلم وحسن التصور وتوارد المعنى ونقد الطبع وتصرف القريحة . ولولا أن الأمر على ما ذكرت لكان ذلك الطريق الذى سلكه والفن الذى ملكه ، والكنز الذى هجم عليه ، والنمط الذى ظفر به ، قد برز فى أحسن معرض وتحلى بألطف كلام ، وماس فى أطول ذيل ، وسفر عن أحسن وجه ، وطلع من أقرب نفق ، وحلق فى أبعد أفق . » (١) هذا هو الدليل الذى يفصل فى الأمر ويضع الحق فى نصابه ويريح الكتاب والباحثين من عناء الافتراض الظنى . ولكن قد يظن بعض الناس أن هذا النص وإن كان فاصلا فى أن قدامة قد ألف كتابا وصف فيه فنون البلاغة فأحسن الوصف وأجاد الابداع ، فانه غير فاصل فى أن يكون هذا الكتاب الذى بين أيدينا هو الذى عناه أبو حيان وتحدث عنه الوزير ؛ لأنهما لم يذكرا اسم الكتاب الذى ألفه قدامة . ولكن عـدم تسميتهما له لا يفيد من يظن هـذا الظن شيئا ؛ فان وصفهما للكتاب الذى عنياه ينطبق على نقد النثر كل الانطباق . وإن من الصفات التى وصف بها ووجدت فى نقد النثر مايقوم مقام الاسم الصريح

(١) الامتاع والمؤانسة ج ٢ ص ١٤٥ .

لأنه من الملامح الأصيلة والصفات اللازمة التي تغني بمجرد ذكرها عن تسمية الموصوف.

أليس مما وسم به كتاب قدامة أنه قد وصف النثر بجميع مانيه وعليه كما يقول أبو حيان، وأنه قد تفرد بوصف فنون البلاغة في المنزلة الثالثة بما لم يشركه فيه أحد كما يقول الوزير؟ بلى! وإن تلك الأوصاف بعينها لهي أوصاف المنزلة الثالثة من كتاب نقد النثر. فقد قسم المؤلف وجوه البيان في صفحة ١٠ بقوله: «والبيان على أربعة أوجه فمنه بيان الأشياء بذواتها وإن لم تبن بلغاتها، ومنه البيان الذي يحصل في القلب عند إعمال الفكرة واللب، ومنه البيان الذي هو نطق باللسان، ومنه البيان الذي يبلغ من بعد أو غاب.» والكتاب كله تفصيل لهذه الأنواع ففي صفحة ٢٠ نجد المؤلف يقول: «باب فيه البيان الأول وهو الاعتبار. قد قلنا إن الأشياء تبين بذواتها لمن تبين، وتعبر بمعانيها لمن اعتبر. وإن بعض بيانها ظاهر وبعضه باطن. ونحن نذكر ذلك ونشرحه...» وفي صفحة ٤١: «باب في البيان الثاني وهو الاعتقاد. قد قلنا إن الأشياء إذا بينت بذواتها للعقول، وترجمت عن معانيها وبواطنها للقلوب صار ما ينكشف للمتبين من حقيقتها معرفة وعلماً مركوزين في نفسه، وهذا البيان على ثلاثة أضرب...» وكل بيان من البيانين يسمى منزلة فهاتان منزلتان. بقي من أقسام البيان الأربعة بيان اللسان، وبيان الكتاب وقد جمعهما المؤلف في منزلة واحدة وهي المنزلة الثالثة. قال في صفحة ٤٨: «باب فيه البيان الثالث وهو العبارة...» ونجده في هذا البيان الثالث أو في هذه المنزلة الثالثة يقول في صفحة ١٠٥: «باب فيه المنثور وما جاء فيه، وليس يخلو المنثور من أن يكون خطابة أو ترسلا أو احتجاجاً أو حديثاً. ولكل واحد من هذه الوجوه موضع يستعمل فيه.» وقد فصل القول في الخطابة والترسل من صفحة ١٠٥ إلى صفحة ١٣٢ ثم تكلم عن الجدل والمجادلة من صفحة ١٣٣ إلى صفحة ١٥٤، وأفاض في الكلام عن الحديث من صفحة ١٥٤ إلى صفحة ١٦٦ التي ينتهي بها الكتاب. من هذا العرض المجمل يتبين أن المنزلة الثالثة من كتاب قدامة الذي تحدث عنه أبو حيان والوزير هي نفس المنزلة الثالثة من كتاب نقد النثر أو من كتاب «البيان» كما سماه قدامة حين ألفه ليعارض به الجاحظ في كتاب البيان والتبيين. وكان لزاما على ناشريه الفاضلين أن ينشراه باسمه الأصيل ليحققا المقصد الذي أراغ إليه قدامة من التسمية التي ارتضاها لكتابه ولم يبغ عنها حولا. ولعلهما فاعلان ذلك عند إعادة طبع الكتاب للمرة الرابعة إن شاء الله.

السيد أحمد صقر

من وراء البحار

ماذا فى اليابان ؟

لسنا نعلم عن اليابان إلا القليل من الأنباء المقتضبة التى ترد فى البرقيات . على أن الصحفى الأمريكى بليرفاليسر كتب فى العدد الأخير من « المجلة الجغرافية الأمريكية » (عدد يونيه) مقالا قيما عن اليابان وحالتها الحاضرة. قال: تخترق البلاد الآن آلاف من السيارات الأمريكية على حين يسير أهلها على الأقدام فى شوارع قديمة. وهم يرمون إلى أغراض جديدة ، فقد قبل اليابانيون هزيمتهم فى صبر وطاعة ، وهم مليئون بالرغبة فى أن يسلكوا ببلادهم مسلكا أحسن مما كان فى الماضى .

لقد ظن الأمريكيون عندما نزلوا إلى أرض اليابان أنهم سيقابلون بالكراهية والغدر ، فكانت دهشتهم شديدة عند ما تبينوا أن قول الامبراطور فى بيانه « يجب ألا نكره أعداءنا » قد قبل ونفذ حرفياً . ولقد صار الأمريكى يمثل القوة ، والقنبلة الذرية ، والأسطول القوى الساحق . وكان اليابانى يعتقد فى نفسه القوة ، ولكن الأمريكى هزمه ، فاستنتج فى بساطة أن طريقة الحياة الأمريكية خير من طريقته. وهو لذلك يقبل سلطة الأمريكيين ويخضع لارادتهم ويبذل كل مجهود لكى يتعلم ويتلقى الطريقة المثلى منهم. وهكذا نراه مثلا يعتبر الديمقراطية مرمى يقصد إليه ، لا وسيلة إلى غاية . ومما زاد من رغبة اليابانيين فى التعاون أنهم أحبوا الجنود الأمريكيين سريعاً . ذلك أنه لم يكن فى البلاد من الخمر إلا القليل، وعلى ذلك لم تحدث من الأمريكيين تلك الحوادث التى تصاحب عادة شاربى الخمر. وكان اليابانيون يتصورون الأمريكان وحوشاً ضارية ، فزال هذا الظن سريعاً .

وقد دهش الأمريكان عند ما رأوا أطفالا أو عجائز يقدمون كومة من الاوراق المالية تتراوح بين ٦٦ سنتا إلى دولارين لكى يحصلوا على علبة من السجاير. على أن الذى لم يفهمه الأمريكيون هو أن اليابانيين بالرغم من الهزيمة لا يزالون على شىء من الثراء . والسبب الحق فى ذلك هو أن اتساع قوة الشراء لم تقابل بوجود سلع يستطيع المستهلك أن يشتريها. ويدفع الأمريكيون الآن للعامل العادى ٨ ين (وهو ما يعادل ٣٥ سنتا) فى اليوم، ويتناول العمال المهرة أجراً قدره ١٢ ين وكان العامل من هؤلاء لا يتناول قبل وصول الأمريكيين أكثر من ٧ ين .

وقد اعتاد اليابانيون أن يعملوا بين ١٠ و ١٢ ساعة فى اليوم بغير عطلة إلا مدة يومين فى الشهر ، فنرى من ذلك أن اليابانيين سيكونون أحسن حالا فيما يتعلق بأحوال المعيشة من الاوربيين .

ولقد أخذ اليابانيون يقلعون عن الكثير من معتقداتهم الراسخة . فلم يعد الامبراطور عندهم مقدساً بالدرجة التى كان عليها . وينتظم العمال فى نقابات تحميهم وهم يطيعونها كطاعة الجندى قائده ، ولذلك كانت هذه النقابات غنية . وقد أخذ الأمريكيون يساعدون هذه النقابات ، ولكنهم يخشون أن تقوى إلى حد

قد يؤثر فى نظام الحكم .

وتقوم المدارس الآن بتعليم الديمقراطية ، ولكنها تقوم بذلك على أسلوب خاص باليابانيين فقد صدر أمر إمبراطورى بعدم الاستمرار فى التعليم الحربى والمبارزة والحركات العسكرية ، فقام المعلمون بذلك. وأمر المعلمون بأن يقلعوا عن التعاليم الحربية والجنسية. ولكن كتب التاريخ والجغرافيا محشوة بها، فأقلعوا عن تعليم التاريخ والجغرافيا . ومع ذلك لاتزال تجد أنهم فى المدارس لايتناولون نص أمر للامبراطور حتى يبادر المعلم بلبس القفاز، وأنهم لا يزالون ينحنون أمام صورة الامبراطور كل يوم عند الصباح !

الحياة السياسية فى النمسا

فى مجلة « العالم اليوم » التى يصدرها المعهد الملكى للشؤون الخارجية (عدد يونيه ١٩٤٦) وصف للحالة السياسية الآن فى بلاد النمسا . ويقول كاتب المقال : إن مما يسترعى النظر فى الحياة السياسية لهذه الدولة هو الثبات الظاهر فى الرأى العام السياسى منذ خمسة عشر عاما . فقد دلت نتائج الانتخاب فى سنة ١٩٤٥ على أن نسبة قوة الأحزاب لم تتغير عما كانت فى سنة ١٩٣٠ ، ففى هذه الانتخابات نال حزب الشعب ٥٠ ./. من الأصوات ونال الاشتراكيون ٥و٤٤ ./. والشيوعيون ٤/٥ ./. أما فى سنة ١٩٣٠ فقد حصلت أحزاب اليمين على ٥و٤٥ ./. والاشتراكيون الديمقراطيون على ٤١ ./. والشيوعيون على ٦/. ./. فنرى فى ذلك تحولا ولكنه غير قوى ، وهو أمر يسترعى النظر إذا اعتبرنا أن الحرية السياسية قضى عليها منذ سنة ١٩٣٨ عند اجتياح النازيين لتلك البلاد .

ويرجع هذا الثبات إلى أن هذه الأحزاب السياسية تمثل مصالح مهنية ، أكثر مما تمثل نظريات سياسية فلسفية ، ولما كان النظام الاجتماعى فى تلك البلاد لم يتغير كثيراً منذ نحو عشرين سنة (ففيها نحو ٤٠ ./. من أصحاب الأجور ونحو ٤٠ ./. من الفلاحين ونحو ٢٠ ./. من المستقلين وأصحاب المهن الحرة) لم تتغير لذلك نسبة الممثلين للأحزاب .

ولكن إذا فحصنا قوة الرأى العام فى ضوء النتائج الانتخابية فى الخمس عشرة سنة الأخيرة وجب ألا يغيب عن الأذهان عامل هام هو قوة الاشتراكيين الوطنيين ، فهذا الحزب لم يحصل فى انتخابات سنة ١٩٣٠ على صوت واحد ، أما فى سنة ١٩٤٥ فانهم منعوا من الانتخاب. على أنه كان يوجد فى سنة ١٩٣٠ عناصر الاشتراكية الوطنية فى الجناح الأيمن للأحزاب الأخرى . ولا ريب فى أن حزب الشعب يجد تأييدا بين صفوف النازى السابقين الذين منعوا من الانتخاب .

وحزب الشعب هذا هو وريث لعدة أحزاب، أهمها الاشتراكيون المسيحيون الذى ألفه الدكتور كارل لويجر وكان يجد تأييداً من الكاثوليك ومن صغار أصحاب الأعمال المسيحيين ، ولكن هذا الحزب ضعف بعد وفاة زعيمه .

وإذا كان حزب الشعب الآن فى مركز أقوى من الأحزاب المماثلة له فى الانتخاب السابق فانه ينقصه الوئام بين زعمائه ، ولذلك لم تبد جبهته قوية بما يتناسب مع عدد أعضائه فى البرلمان ، واضطر إلى أن يعقد علاقات ود مع الحزب الاشتراكى .

أما مركز الحزب الاشتراكى فهو أكثر وضوحا ، لأنه بذاته الحزب الاشتراكى الديمقراطى القديم ، ولكنه بدل من اسمه

اعترافا بفضل الاشتراكيين الثوريين الذين قاوموا النازى ، وأنشأوا علاقات مع الاشتراكيين فى البلاد الأخرى . وكان هذا الحزب منذ أنشأه فكتور أدلر فى سنة ١٨٨٩ يعمل لمصلحة الطبقة العاملة فقط ؛ فهو لذلك موحد فى أغراضه ، ولا تتضارب مصالح أعضائه كما هو الشأن فى حزب الشعب . ولقد كان يشرف عليه فيما مضى زعماء من مثقفى اليهود نجحوا فى تحسين حال العمال . ولكن هؤلاء الزعماء اضطروا فى سنة ١٩٣٤ إلى الفرار من البلاد مما أضعف مركز الحزب ، وهجره عمال كثيرون وانضموا إلى الوطنيين الاشتراكيين.

وكان ماضى الحزب الاشتراكى مما يبعث على الاحترام ، لا لدفاعه عن مصالح العمال فحسب ، بل كذلك لما أظهره من مهارة فى إدارة أمور بلدية ڤيينا. ثم إن هذا الحزب كان بعيداً عن فضائح الرشوة التى لطخت الكثيرين من زعماء الحزب الاشتراكى المسيحى . وأهم من ذلك أن هذا الحزب ظل على مبدأ واحد فى مقاومته للفاشية فى النمسا ، ولم يخضع إلا للقوة ، حين اضطر إلى أن يقبع فى تلك الدور العظيمة التى بناها لطبقة العمال ، والتى هى فخر له مقيم ؛

على أن الحزب الاشتراكى لم ينل فى الانتخابات الأخيرة الكثرة التى انتظرها كثيرون ، وقد زاد عدد الأصوات التى نالها فى الأرياف ونقص عددها فى ڤيينا . والسبب فى ذلك توزع الصناعات فى أنحاء البلاد أثناء الحرب ، وفرار اليهود من العاصمة النمساوية. ثم إن الحزب حمل فى انتخاباته حملة شديدة على النازيين فلم يجعل لهم سبيلا للعودة إلى أحضانه ، وقد أخذ الحزب يعدل عن مسلكه .

ويوجد فى النمسا حزب شيوعى ولكنه ضعيف . وكان المنتظر أن يقوى فى الانتخابات إلا أنه يظهر أن الاحتلال الروسى لم يفد فى تقوية هذا الحزب . وليس لهذا الحزب زعماء بارزون ولا هو خال من الخلافات الداخلية .

فيتبين من ذلك أن الحياة السياسية فى النمسا قائمة على حزبين. ويظهر أنهما عرفا كيف يعالجان الخلافات القائمة بينهما فى سبيل العودة ببلاد النمسا إلى الحياة الطبيعية النافعة .

قاعة المطالعة بالمتحف البريطانى

قد يسر العلماء فى أنحاء العالم أن يعلموا بافتتاح قاعة المطالعة الشهيرة فى المتحف البريطانى ابتداء من شهر يونيه . وقد كتب الأستاذ أرنديل أزديل بهذه المناسبة فى العدد الأخير من نشرة أخبار الكتب البريطانية يقول : إنه عند ابتداء الحرب رأى أولو الأمر من الخطر بقاء هذه القاعة مفتوحة وهى غاصة بالقراء مع أن الغارات منتظرة فى كل وقت فقرروا إغلاقها ، وسمح للقراء بأن يقصدوا إلى المطالعة فى المكتبة الشمالية ، وهى الغرفة التى كانت مستعملة للاطلاع على الكتب النادرة ، بعد أن نقلوا إليها عددا من الكتب التى تعد مراجع فى بابها ، أما مجموعة الكتب النادرة والمخطوطات والآثار فقد نقلت إلى مخابئ ، أعدت لها منذ سنة ١٩٣٤ .

ولم تصب غرفة المطالعة الكبيرة إلا بضرر بسيط ، ولكن الجهة الشمالية من مكتبة الملك أصيبت إصابة مباشرة وتحطمت نوافذ قسم المخطوطات ، كما أصيبت مجموعة صحف القرن التاسع عشر والعشرين المحفوظة فى هويدن بخسارة كبيرة . وكانت أكبر كارثة نزلت بالمتحف البريطانى فى آخر غارة كبيرة فى مايو سنة ١٩٤١ عند ما احترق الجانب الجنوبى الشرقى

من البناء ، وطارت أجزاء من السقف المشتعل إلى المربع المجاور ، فاتصلت النار بمخازن الكتب المجاورة لغرفة المطالعة ، وتلف من الكتب ما يقرب من مائة الف مجلد. وقد عمد المتحف إلى البحث عن تعويض النسخ التالفة ، ولكنه قد لا يوفق فى تعويض بعضها أبدا .

وهذه الغرفة ، لا فى زوارها فحسب ، بل فى إنشائها كذلك ، هى مصداق للقول المأثور بأن العلم لاوطن له ؛ فقد وضع فكرتها وعمل على تحقيقها موظف أجنبى فى خدمة المتحف البريطانى هو انطونيو پانتزى الذى هاجر من مدينة مودينا الايطالية الى انجلترا فى سنة ١٨٢١ ، وكان أديبا عالما بالشعر القديم ولكنه أيضا رجل مجدد وإدارى قدير . فكان أول من فكر فى إنشاء مكتبة وطنية كبيرة بالمعنى المتعارف اليوم . وقد أخذ الرجعيون يناهضون فكرته ، ولكنه مازال يعمل حتى جمع نحو مليون كتاب بلغات مختلفة ونظم لها الفهرس الذى يستطيع به المئات أن يصلوا إلى هذه الكتب .

وقد زاد إصدار الكتب فى عهده بتقدم فن الطباعة ، فسلك سياسة حكيمة بشراء كل ما يمكن شراؤه ، ثم بعمله على أن يحصل المتحف على نسخة من كل كتاب يتم طبعه ، حسب قانون حقوق النشر الذى أصدره البرلمان الانجليزى فى سنة ١٨٤٢ .

وضاقت مخازن المتحف البريطانى بالكتب وهى جزء من محتوياته ، فوضع پانتزى تصميم غرفة المطالعة الحديثة وابتدئت فى سنة ١٨٥٤ وتمت فى سنة ١٨٥٧ . وكانت القاعة فيما مضى ميسرة للجميع ، أما الآن فقد أنشئت مكتبات عامة وخاصة عدة يمكن الجمهور أن يقصدها ، ولذلك رئى من الواجب وضع بعض القيود ، محافظة على الكتب وضنا بالمقاعد على من ليسوا فى حاجة شديدة إليها ، فهى الآن وقف على طلاب المعرفة الحقيقيين من جميع الامم .

ظهر حديثا

نابليون لأميل لودفيج نقله عن الالمانية الاستاذ محمود ابراهيم الدسوقى ـ الجزء الثانى
(دار الكاتب المصرى)

يعتبر كثير من الكتاب بدء سقوط نابليون وأفول نجمه منذ عدل سافراً عن مبادئ الثورة ونظمها ونصب نفسه إمبراطوراً . وهم فى ذلك يتبعون رأى العدد الكبير من الرجال المعاصرين الذين كانوا يناصرون قائد الثورة الشاب والقنصل الأول، فاذا به يحطم آمالهم إذ يحلم بتكوين عرش وأسرة مالكة ، فانقلبوا عليه، وقبع بعضهم فى ديارهم وهم يتمنون لهذا العرش النهاية والزوال . واتخذ بعضهم الآخر موقفاً عدائياً صريحاً .

ولكن نابليون سار قدما فى سياسته لا يلوى على شىء ؛ فهو ثمل بانتصاراته وبالامبراطورية التى كونها ، وبذل فى سبيلها حتى قلبه ، فأقدم على طلاق جوزفين التى عرف فيها حبه الاول وربما كان الأخير ، وصاهر أسرة هابسبرج العريقة ؛ ليربط دمه الوضيع بدماء الملوك التى يقال إنها زرقاء .

ونحن فى مطلع هذا الجزء الثانى من الكتاب الذى بادرت دار الكاتب المصرى إلى نشره ، لكيلا ينفرط عقد الحديث عن القارىء ، نجد صورة لنابليون إذ كان يستطيع أن يقنع بما كسب ، ويعمل على توطيد هذه الامبراطورية ، ويحاول أن يسترضى الدول الناهضة باللين والمهاودة حتى يخلدوا إلى النظام القائم ، وحسبه أن يكون لامبراطوريته اليد العليا فى أوربا، ولكن هل يمكن لعجلة السياسة أن تقف ؟ وهل يغير المرء من طباعه بين لحظة واخرى ؟ لقد كان نابليون عبقريا ، ولكن هذا التغيير يتطلب عبقرية أخرى أى يتطلب أن يجمع المرء بين عبقريتين .

وعلى ذلك نشهد فى الجزء الثانى من هذا السفر الشيق سيرة حياته خطوة فخطوة نحو النهاية المحتومة ، التى لا تبدو عادة لأعين المعاصرين ؛ إذ تخفيها المطامع والأهواء والمنافع والآمال ، ويخفيها عنه هو ما هو محاط به من حاشية ومنتفعين ومتملقين .

لقد كان نابليون عظيما فيما اتخذه من وسائل للوقوف فى وجه الأقدار، فلم يكن يسوس إمبراطوريته وحدها بل كان يسوس تلك الدول التى أنشأها و نصب على عروشها أولئك الأقزام من إخوة وقواد قد يكونون بارزين فى الحروب ولكن أنى لهم العلم بتدبير الملك وحكم البلاد !

ولم يفقد الامبراطور عبقريته فى الحرب حتى اللحظة الأخيرة من حياته ؛ فقد كان دائماً القائد الفذ فى انتصاراته المتوالية حتى ظن أنه لن ينهزم ، وهو لم ينهزم إلا لتألب الظروف وتكالب الحوادث وتجمعها حتى جرفه التيار .

وفى الفصول الأخيرة من هذا الجزء نجد حياته فى منفاه ، بتلك الجزيرة الاستوائية النائية ، وعيشته بين نفر قليل من خلصائه ولم يعد له من عمل إلا التفكير فى ذلك الماضى القريب الذى خط فيه صفحات من المجد .

تقرير عن أعمال الجمعية العمومية العادية الأخيرة لعصبة الأمم وضعه الأستاذ محمود الدرويش بك (المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٤٦)

فى هذا التقرير القيم نرى الفصل الأخير من حياة هذه المؤسسة التى علق العالم بها آماله نحو ربع قرن كامل ، وظن أنها خير أداة لمنع الحروب بعد أن اكتوى بنار الحرب العالمية الأولى ، ولكن — مع الأسف — لم تتحقق هذه الآمال ، وانتهى الأمر بهذه الهيئة إلى الاخفاق ، وانتهى بالعالم إلى حرب عالمية ثانية ، لاتقل فظاعة عن الأولى .

لقد قابل الناس تأسيس عصبة الأمم بتفاؤل كبير لم تسوغه الحوادث ، وهم يدخلون إلى عالم ما بعد الحرب الأخيرة وهم أكثر تحفظا نحو الهيئة التى حلت مكانها ، بل يكاد شعورهم يبلغ حد التشاؤم . غير أن كل محب لخير هذا العالم يرجو أن تكذب الحوادث هذا الشعور فتكون الهيئة الجديدة أكثر مقدرة على معالجة المشكلات القائمة ، وأن تظهر لها شخصية مستقلة تكون أبعد من التأثر بأهواء أعضائها ومطامعهم .

هذا التقرير الذى وضعه رئيس مندوبى مصر فى الجلسة الأخيرة لعصبة الأمم لا يبحث طبعا فى مثل الأمور التى ذكرناها ، فهو تقرير رسمى كتب بكياسة الرجل القدير على تمثيل بلاده ، الذى لا يفوت فرصة دون أن يجر نفعا إلى وطنه أو يؤدى له خدمة ، مثال ذلك موقفه حين امتنع من التصويت على مشروع القرار الخاص بالانتدابات من أجل فلسطين ، فهو يقوم بواجبه ، ولو كانت الهيئة التى حضر اجتماعها فى النزع الأخير .

مختصر تاريخ الحضارة الغربية فى الأزمنة الحديثة للأستاذين جورج حداد وبسام كرد على (يطلب من مكتبة العلوم والآداب بدمشق)

فى رأيى أن كل كتاب يصدر باللغة العربية عن الحضارة الغربية ، هو كتاب جزيل الفائدة جدا فى الشرق ؛ إذ الواقع أننا لا نطمع فى الأخذ بأسباب الحضارة ، وبلوغ درجة من التقدم مثل ما بلغته الأمم الأوربية ، إلا إذا قمنا بدراسة وجوه هذه الحضارة دراسة عميقة . فليس تقدم الغربيين هو على مايعتقده بعض الشرقيين تقدم فى الماديات وحدها ، بل هو نهضة شملت نواحى الحياة جميعها من مادية وروحية . وقد ظهرت هذه النهضة جلية واضحة فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر فى إيطاليا ، وانتقلت منها حتى عمت البلاد الأخرى ، وقامت هذه النهضة على أثر العودة إلى دراسة الآثار الفكرية لليونان والرومان .

وفى هذا الكتاب المختصر المفيد نجد صورة تكاد تكون كاملة لجميع نواحى التقدم الفكرى ، قبل المادى ، فى بلاد أوربا فى القرون الأربعة الأخيرة . وقد لخص المؤلفان على اتساع موضوعهما هذه الحركة خير تلخيص ، فتكلما عن حضارة عصر النهضة ، ثم انتقلا إلى القرن السابع عشر وحياته الأدبية

والفنية ، ثم القرن الثامن عشر وخصصا فيه فصلين للحركة العلمية والانقلاب الصناعى . ثم تبسطا فى الكلام عن القرن التاسع عشر : حيث أضافا إلى الموضوعات التى درساها فى القرنين السابقين موضوع التطورات الاجتماعية والسياسية .

وقد أعجبنا من المؤلفين أنهما لم ينسيا الشرق فى تاريخهما ، فابتدآه بذكر فضل العرب فى حمل قبس الحضارة فى القرون الوسطى ، واتصال دراستهم وتفكيرهم بالدراسات اليونانية ، ومواصلتهم البحث والزيادة فى هذه الدراسات ، وبذلك ظلت الحضارة متصلة بفضل العرب ولم ينضب معينها إلى أن تلقاها الاوربيون منهم .

وإنا لنرجو فى القريب العاجل ان يقبل الادباء والمؤرخون على دراسة الحضارة الغربية وأسبابها ، ويعملوا على تزويد عالم الكتب العربية بهذه الدراسات التى لا يمكن أن تقل فائدة عن نشر كنوز الأدب والتاريخ العربى القديم .

فى موكب الشمس الجزء الأول تأليف الدكتور أحمد بدوى (لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة) .

عند ما عرف شامبليون كيف يحل رموز ذلك الحجر المحتوى تلك النقوش الغريبة التى هى أقرب إلى الصور ، والتى تمثل حروف لغة بائدة ، إذ وجد على الحجر نفسه سطوراً منقوشة باللغة اليونانية ، ورجح أنها ترجمة لما كتب بالحروف المجهولة ، وعند ما تمكن من الوقوف على شىء من سر هذه اللغة البائدة ، وبدأ الستار يرفع عن مدنية من أقدم مدنيات العالم ، وتاريخ مجيد من امجد التواريخ ، أخذ العالم يقرأ ماضى أمة — الأمة المصرية — هو أقرب إلى الأساطير منه إلى الحقيقة ، لو لم تكن تلك الآثار ملموسة وقائمة .

اجتذبت دراسة التاريخ المصرى العلماء من سائر الأجناس ، فلم يمض قرن حتى كانت أمامنا صورة بارزة ، لمدنية مصر التى كان لها فضل كبير على الحضارة القديمة ، والتى اغترف منها اليونانيون والرومان وغيرهما من الأمم ، ثم انتقل ميراثها إلينا نحن أبناء العصر الحديث .

ولقد اشترك فى بحوث التاريخ المصرى بعض العلماء المصريين ، من أمثال أحمد كمال باشا فى الجيل الماضى ، ثم أنشئت الجامعة وأخذ طائفة من العلماء المصريين أمثال الدكتور سليم بك حسن والدكتور سامى جبره وإلى جانبهما عدد من أفاضل العلماء الأجانب ينشرون الدراسة التاريخية لمصر القديمة ، وسافرت البعوث من تلاميذهم إلى مختلف البلاد الأوربية .

وها نحن أولاء نجد ثمرة من ثمار التوفر على دراسة التاريخ المصرى القديم فى هذا السفر الثمين الذى يخرجه لنا اليوم الدكتور أحمد بدوى .

ونحن إذ نقرأ هذا الجزء الأول فى تاريخ البلاد المصرية والمجد القديم نشعر ولا ريب باغتباط كبير ، لا لأنه تاريخ أجدادنا فحسب ، بل كذلك لأن المؤلف ، وهو مصرى صميم فخور بوطنه ، عرف كيف يكتب هذا التاريخ فى تحمس وحرارة عاطفة ، مما بث فى ثنايا كتابه روحاً خاصة متوثبة ، وجعل منه سجلا حياً وطنياً ، فوق ما فيه من علم وثيق .

وقد صدر الكتاب بمقدمة للأستاذ محمد شفيق غربال بك المؤرخ المشهور ، ثم جاء

المؤلف يروى قصة الكتاب والحافز له على تأليفه ، وتكلم عن مصر الخالدة، ثم ذكر لمحة سريعة لقصة التاريخ المصرى ، وانتقل بعد ذلك إلى مصادر هذا التاريخ المصرى، ثم أخذ يشرح فجر هذا التاريخ ، وعصر الأسرات الأولى وملوكها والعقائد الدينية فى الدولة القديمة ، ثم تكلم عن الأسرات الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة عارضا آثارها وملوكها . وانتهى من هذا الجزء الأول بكلام عام عن الدول القديمة .

ولسنا نريد بعد هذا البيان العودة إلى التنويه بالكتاب وقيمته العظيمة . وكل ما نرجوه أن يعمل المؤلف سريعاً على إتمام كتابه ونشر أجزائه الباقية .

حسن محمود

نحل عبر النحل لتقى الدين المقريزى ، نشره وحقق أصوله الأستاذ جمال الدين الشيال (مكتبة الخانجى القاهرة)

قلت لنفسى وقد ألقى إلى أن الأستاذ الشيال معنى باخراج هذا الكتاب : من أين يا ترى تهيأت الرغبة للأستاذ الشيال فى نشر هذا الكتاب وهو شاب كل همه البحث عن التاريخ الاسلامى فى مصادره وموارده ،وهذا كتاب ليس من التاريخ ولا يمت إليه بسبب قريب ؟

ثم لم ألبث أن عرفت من أين عرضت للأستاذ الفاضل هذه الرغبة ؛ فمؤلف هذا الكتاب هو المقريزى مؤرخ مصر الأول ، أو الأشهر ، فلا عجب أن يكون بينه وبين ناشر هذا الكتاب أسباب .

وهو كتيب لطيف الحجم كبير الفائدة ، لعل فى غموض عنوانه ما يباعد بين القارئ العادى ومعرفة موضوع الكتاب ؛ فعنوانه « نحل عبر النحل » بسكون الحاء المهملة فى الكلمتين المتماثلتين لفظاً وشكلا . أما الأولى منهما فمعناها المنح ، وأما الثانية فالمقصود بها تلك الحشرة الرفافة التى تخرج لنا العسل . والعبر : جمع عبرة ؛ فالمقريزى فى هذا الكتاب يريد أن يمنح قارئه العبرة فى درس النحل . هذه هى دلالة العنوان كما أرادها المؤلف ، وكما حققها الناشر ، وكما يدل موضوع الكتاب .

والمقريزى من علماء هذه الأمة الذين ضربوا بسهم فى كل فن ؛ فهو على شهرته فى التاريخ من أهل التحصيل والاجتهاد فى فنون شتى . وقد نشأ فى عصر زاخر بأهل العلم والفضل والنباهة نستطيع أن نسميه بمن اجتمع فيه من العلماء وبما اجتمع لكل منهم من طارف العلم وتليده وبما حاولوا من إذاعة العلم فى مؤلفاتهم التى لا يكاد يبلغها الحصر — عصر الموسوعات ؛ فلا عجب أن يتجه المقريزى إلى تأليف كتاب خاص فى النحل يلم فيه بكل ما يخطر على البال حين يذكر اسم النحل مما يتصل بموضوعه من العلم واللغة والحكمة والتاريخ وشئون الاقتصاد وغيرها ، حتى لم يدع شاردة ولا واردة فى هذا الباب إلا عرض لها وأشبعها تحقيقاً ودرسا ؛ فجاء كتاباً جامعاً لفنون شتى ؛ ففيه من علم الحيوان ، وفيه من فنون الأدب ، وفيه من طرائف اللغة ، وفيه فن المقريزى وذوقه ودقة تناوله .

وقد أخرج الأستاذ الشيال هذا الكتاب إخراجاً يحمد عليه ، فحقق أصوله وأصلح أخطاء النسخ فيه ، وجلى كثيراً من غوامضه وأشار إلى طائفة غير قليلة من مراجعه ، وألمع إلى بعض مايشبهه من مؤلفات السابقين ، وقدم له بمقدمة تستحق التنويه والذكر ، وألحقه بما لابد منه من الفهارس . وهو مجهود يقتضى المكافأة وحسن الجزاء .

صديق العائلة للدكتور مصطفى الديوانى (مكتبة النهضة المصرية — القاهرة)

ليس هذا أول كتاب للدكتور الديوانى يحاول به أن ينشر الثقافة الطبية ، أو الثقافة الصحية ، بين قراء العربية . والفرق عندى بين معنى الثقافة الطبية والثقافة الصحية قد يكون مفهوما من سياق العبارة ، فلست أعنى أن الدكتور الديوانى بكتابه هذا وبما سبقه من كتب فى مثل موضوعه يطمع أن يكون قراؤه أطباء ، وإنما يطمع أن يكونوا أصحاء ، يعرفون أسباب الوقاية والخطوات العلاجية الأولى التى تسبق دعوة الطبيب .

ونحن فى مصر محتاجون إلى الثقافة الصحية أكثر من حاجاتنا إلى كثير من أنواع الثقافات ، فنحن شعب مريض . قالوا : لو وزعت أمراض المصريين على جميعهم بالتساوى لكان نصيب كل مصرى منها بضعة أمراض ، أحسبها ثلاثة أو أربعة ؛ وإن شعباً ينتشر فيه المرض إلى هذا الحد لحقيق بأن نعالجه بنشر الثقافة الصحية قبل أن نعالجه بتخريج طوائف من الأطباء يزاحم بعضهم بعضا « فى السوق » لقلة « الزبائن » والمرضى فى بيوتهم يجهلون أنهم مرضى !

وكتاب « صديق العائلة » الذى أخرجه أخيراً الدكتور الديوانى بعد كتابه « حياة الطفل » يعالج نوعا من النقص فى ثقافتنا الصحية نحن فى حاجة إلى علاجه ؛ فما أحراه أن يكون فى مكتبة كل أسرة وفى رأس كل أب وأم !

وأنا « أب » قد تفردت بخصائص ليست فى كثير من الآباء ... والحمد لله على نعمائه ؛ فلعلى بخصائصى تلك أن يكون من حق أن أدعو الآباء والأمهات جميعاً إلى التزود من هذه الثقافة الأبوية الصحية التى يقدمها لهم الدكتور الديوانى فيما ينشىء من كتب .

على أن هذا الكتاب إنما يعالج نوعاً من تلك الثقافة هو أقرب فى بعض فصوله إلى الاجتماع منه إلى الصحة ، ولا تزال فنون الحياة يجاذب بعضها بعضا ويطغى بعضها على بعض — فهو يبدأ الفصول الأولى منه بالحديث إلى الآباء والأمهات عن أسرار الأبوة والأمومة ، وأدوار الحمل والوضع وما يتصل بها من حياة الطفل ، ويبسط الحديث فى بعض ما يكون بين الأزواج والزوجات مما يزاولونه عملا دون أن يعرفوه علما ، وما قد يحتاج الصبى أو الفتاة إلى معرفته حين تتفتح ملكاتهما ؛ وهو يدير الحديث فى هذه الفصول على طريقة الحوار بين بعض الأطفال وأمهاتهم . فيرشد الأمهات ويعودهن كيف يمكنهن إذا تحدثن إلى بناتهن أو أبنائهن فى شئون لا ينطلق فيها اللسان صريحا .

ويتدرج بعد هذه الفصول فى الحديث إلى الآباء والأمهات فى مسائل تعنيهم كل العناية ولا يستغنون عن التماس أسباب علمها ، فيتحدث عن تغذية الأطفال وتربيتهم ، والأمراض التى تشيع بينهم ووسائل الوقاية منها

والخطوات الأولى لعلاجها . كل ذلك في أسلوب سهل مبسط لا يشق على قارئ ولا قارئة !

لقد كان الآباء والأمهات في الزمن القديم يقدمون لبنيهم وبناتهم وصايا يستحفظونهم عليها قبل أن يلجوا بيت الزوجية ؛ ليجدوا فيها عصمة من الخطأ ولتصحبهم تجارب آبائهم وأمهاتهم حتى بعد أن يصيروا هم آباء وأمهات . أما اليوم فلست أقصد الفكاهة إن أشرت على الآباء والأمهات أن يهدوا إلى أبنائهم وبناتهم قبيل الزواج نسخا من مؤلفات الدكتور مصطفى الديواني !

على الشاطئ المسحور ديوان شعر للشاعر اليمني الأستاذ محمد عبده غانم

(مطبعة فتاة الجزيرة بعدن)

هذا ديوان شاعر من «شعراء السابقات» وهو اسم أرجو أن يسره ؛ فقد اشترك — كما يقول في مقدمة ديوانه — في ست مباريات شعرية «فكان التوفيق حليفه في كل مرة» وظفر فيها جميعاً بالجائزة الأولى ، وقد أفرد لهذه القصائد الست الباب الثالث من ديوانه وسماها السوابق !

ويقول الشاعر في مقدمة ديوانه القصيرة إنه لم يكن على نية نشره لولا إلحاف أصدقائه ، فانه موقن بأنه لم يبلغ المنزلة التي تسمح له أن ينشر شعره على الناس . وهو شعور طيب نحو نفسه ؛ لأنه يأمل أن يبلغ في غد منزلة من الاجادة تحمله على الرضا عن نفسه ، وإننا لنأمل له مثل أمله !

على أني لا أريد أن أظلمه أو أغمطه بعض ما يستحق من الثناء ؛ فان فيه مخايل شاعر نرجو أن يتم تمامه في وقت قريب ، فان له أسلوبا وطريقة ولمحات من الشعر ! وإنه لحبيب إلينا أن يكون في اليمن الحديث شعراء وإن ينشد شعرهم في مصر ؛ ولهذا آثرت التنويه به على ازدحام مكتبي بدواوين الشعراء ، والذين يطمعون أن يكونوا شعراء !

والديوان أبواب ثلاثة : الخافقات ، والملحقات ، والسابقات ؛ أما السابقات فهي القصائد الست التي فاز بها الشاعر في المباريات ؛ وهي حقيقة بالفوز بين ما يقدم للمباريات !

وأما الخافقات فهي القصائد التي يعبر بها الشاعر عن خفقات قلبه . وأما الملحقات فهي محاولاته الشعرية للتحليق والسمو والنفاذ إلى ما وراء السموات ! . . .

ولا أحب أن ينتهي حديثي عن الشاطئ المسحور دون أن أنوه بقصيدته «حديث الجماجم» فهي محاولة شعرية تؤذن بما ينتظر أن يكون في غده إن شاء الله . ولولا ضيق المجال لآثرت أن أنشرها على القراء نموذجاً من فنه !

محمد سعيد العريان

فى مجلات الشرق

الصحافة والأدب

فى العدد الرابع من مجلة « الفكر » التى تصدر فى دمشق مقال بهـذا العنوان ، للأستاذ محمد روحى فيصل ، يتحدث فيه عما بين الأدب والصحافة من صلات ، ومن فوارق، وعما بين الصحفى والأديب ، فيقول :

« إنما تتميز الصحافة من الأدب بالانتاج، فالسرعة فى تهيئة الصحيفة ، وإيصالها إلى يد القارئ ، هى كل شىء فى الصحافة ؛ على حين أن الأناة سمة الأدب ومناط قوته وجماله وخلوده ... »

ثم يسائل : هل يجتمع الأديب والصحافى فى إهاب إنسان واحد ؟ ثم يقول :

« يجيب بول موران : نعم ، ولكن على شريطة أن يكون الأديب قد كملت أدواته ، وتمت ملكاته ، وقويت شخصيته ، وأدركت نفسه طريقها ... أما الأديب الذى لا يزال يتلمس مكانه فى دنيا المواهب فمن المحقق أن الصحافـة خطرة عليه ، تؤذيه فى صميم أدبه ولا يمكن أن يفيد منها كما يفيد الأديب المكتمل الذى استوى عوده على صعيد الانتاج الأصيل . »

ثم يسترسل الكاتب فى الحديث فيتحدث عن أدباء العربيـة الذين جمعوا بين الأدب والصحافة ، ويخص بالذكر الزميلين المازنى والعقاد « فكلاهما من الانتاج فى النقـد والشعر والقصص والدراسات الأدبيـة على العموم معروف لا يرقى إليه الشك ولا يختلف فيه اثنان . ربما أسقط الزمان شعرهما أو تجاوز عن بعض دراساتهما أو غربل جانباً كبيراً من قصصهما ، ولكنه مع ذلك سوف يضطر إلى أن يسجل اسمهما بين صفحات التاريخ الأدبى ويقر بأثرهما فى توجيه الفكر العربى والأسلوب البيانى نحو القدرة على الابداع والامتاع فى كثير من القوة والجمال ... »

مجاعة أدبية !

ويعالج الأستاذ عبد الله المشنوق فى العدد السابع من مجلة « الأديب » اللبنانية الموضوع نفسه ولكن من جوانب أخرى ، فيزعم أن انصراف طائفـة من أدبائنا المعروفين فى الآونة الأخيرة إلى الاشتغال بالصحافة قد أحدث ما يسميه « مجاعة أدبية » فينحى باللائمة على الذين سماهم من أولئك الأدباء ؛ ويبدو فى حديثه متشائماً ضيق الصدر بهذا المآل الذى انتهى إليه الأدب ، لعدم عناية الأدباء المعاصرين بتسجيل المناسبات القومية فيما يبدعون من شعر ونثر من ناحيـة ، ولانصرافهم من ناحية أخرى عن فنون من الأدب لانزال فى حاجة إلى المزيد منها — إلى الاشتغال بالصحافة والتدلى إلى مستوى رجل الشارع ، فيقول :

« ورجل الشارع فى البلاد العربيـة فى

أدنى درجات السلم الثقافى ، فاذا بأحمد أمين يهجر فجر الاسلام وضحى الاسلام وظهر الاسلام وعصر الاسلام ليكتب عن « المودة » فى مجلة « الاثنين » مقالا مزيناً بالصور والرسوم !

« وتوفيق الحكيم يهبط من برجه العاجى ويترك فيه شهر زاد وأهل الكهف ويوميات نائب فى الأرياف لينقد شريط «لص بغداد» فى مجلة « آخر ساعة » !

« وعباس العقاد يترك ابن الرومى ونيتشه والعبقريات ليكتب فى موضوع — كخادمة المنزل التى تصلح لجميع الغرف — وفى كل صحيفة يومية أوأسبوعية !

« وطه حسين يترك الأيام — أروع قصة حياة كتبها أديب عربى — وعلى هامش السيرة لينصرف إلى السياسة الحزبية ويكتب فى جريدة « البلاغ » مقالات يصف فيها خصومه السياسيين ! . . . »

كذلك زعم الأستاذ المشنوق فيما كتب ومن هذا الجانب تناول موضوعه . فليت شعرى هل أنصف الأستاذ المشنوق فى « الأديب » ؟ وهل أصاب الأستاذ روحى فيصل فى « الفكر » ؟

ضرائب المدنية !

وفى العدد نفسه من مجلة « الفكر » مقال للأستاذ روكس العزيزى بهذا العنوان يتحدث فيه عن هذا العصر المادى الذى نعيش فيه وعن مظاهر الحضارة التى ننعم بها ، ثم يخلص من ذلك إلى الحديث عن الضرائب التى تقتضينا إياها هذه الحياة المترفة التى نحياها ، فيعددها ويصف أسبابها ونتائجها ، ويوازن فى حديثه ذاك بين تلك المناعم وتكاليفها فيقول :

« نظرة فاحصة دقيقة ترينا شكوى البشر عالية ، وتسمعنا زفراتهم غير منقطعة ، وتعرض أمامنا دموعهم سيولا تجرى ، ولا تجد أحداً راضياً عن حياته ، ولو كاد يلامس حياة الغزالى فى تساميه ؛ فما سر ذلك ؟

« أنحن برمون بالمدنية ؟

« أنحن ساخطون عليها كارهون لها ؟

« لا لا ، فما نحن برمين بالمدنية ولا ساخطين عليها ، ولكننا ساخطون من الضرائب التى تتقاضانا إياها المدنية من وقتنا ، من أعصابنا ، من صحتنا ، من كرامتنا ، من أخلاقنا ، من عزة نفوسنا ، من عواطفنا ، من فصلها إيانا عن أمنا الرءوم الطبيعة ، من جنايتها على حياتنا العائلية المحتضرة ، من تدميرها لروح البساطة فى نفوسنا ، ولما أفاضت فى نفوسنا من فوضى وما أشاعت من غرور . وأعظم نكبة يصاب بها الانسان أن يسلب عواطفه ويتحجر قلبه ويرغم على أن يعيش بلا قلب . . . »

مستقبل الشرق

وفى السفر الثانى من سلسلة « اليقظة العربية » التى تصدر فى دمشق ، يرى الأستاذ محمد عابدين حمادة أن اتجاه مستقبل الشرق ذو شطرين : أولهما تطور قومى ، وثانيهما تطور ديمقراطى ، فيقول :

« أما التطور القومى فسيكون بتعزيز

فكرة الوحدة أو الاتحاد العربى، رغم العقبات التى نراها الآن، ورغم المشكلات الموجودة ضمن الكيان العربى نفسه؛ ولابد من يوم تنتصر فيه فكرة الشعب العربى فى الوحدة أو الاتحاد ...

« أجل إن هذه « الجامعة » لاتشفى غليل الشعب العربى الظامئ إلى الوحدة أو اتحاد سياسى حقيق، ولكن لا ينكر فى الوقت نفسه أنها خطوة حقيقية، نسبة إلى الحقبة القصيرة من الزمن؛ ونأمل فى المستقبل القريب أن تساير العروش إرادة الشعوب كما حدث فى إيطاليا وألمانيا حين تكوينهما.

« اما التطور الديمقراطى فما نسر له أن تعميم الثقافة ساعد على الوعى القومى، وبدأ الشعب يفهم الغث من السمين، وهو واضع لا شك حداً للسلطات المطلقة وتسيير حكوماته وفقاً لارادة شعوبها، وسيقضى على مالا يزال باقياً من الوضع الاجتماعى السابق الذى كان يجعل العالم العربى ألعوبة فى يد بعض الحكام والاقطاعيين! ... »

بين الأدب والقومية

وفى مجلة « الأديب » أيضا مقال للأستاذ عبد اللطيف شرارة بهذا العنوان يقول فيه:

« ليس المهم فى الانتاج الأدبى نوع اللغة ولا نوع الثقافة، ولا المهم أن نجعل قيمة « الفكر » فوق كل قيمة جعلا نظرياً صرفاً، ولا المهم أن تكثر المدارس والشهادات والصحف؛ وإنما المهم هو شعور الأمة بنفسها كوحدة وانطلاقها نحو تحقيق نفسها.

« هذا الشعور كاف لأن يخلق فيها الادباء والمفكرين والفنانين من كل جنس ولون؛ إذ لا بد أن تحاول التعبير عن شعورها، وهى لا تثبت وجودها إلا بهذا التعبير. والأديب مهما استقل وتمرد وتحرد وانفرد عن أمته فانه يبقى جزءاً منها، والجزء لا يفسر إلا بالكل، ولا يكون أداة صالحة إلا حين يحتل مكانه من الكل.

« أما ما يطالب من الأديب فهو أن يكون « إنساناً » قبل أن يكون كاتباً أو شاعراً، وأن يكون ذا رسالة يغلب فيها البناء على الهدم. هذان هما الشرطان الأساسيان، ولا يهم بعدهما أن يقضى الأديب أيامه فى التغزل بالمرأة والتحدث عن الحب، او فى التغنى بأمجاد الوطن وعبقرية الأمة، أو فى الدفاع عن الانسان والانسانية؛ لأنه حر فيما يختار فلا يصح أن نفرض عليه مبدأ من المبادئ أو طريقة من الطرق، وهو إنما ينتج — حين ينتج — ليفرض علينا لا لنفرض عليه! ».

عبقرية اللفظ

وفى العدد الخامس من مجلة « البطحاء » التى تصدر فى بغداد كلمة للأستاذ حسين مروة عن عبقرية اللفظ يقول فيها:

« يحسب قوم أن اللفظة مادة هينة لاحياة فيها بذاتها، ويحسب قوم أنها آلة صماء تتحرك ولكن دون وعى ولا حس، ويتجنى آخرون على اللفظ فيتهمونه بألوان شتى من أمثال هذه التهم؛ ثم يبنون على هذه الآراء

جميعاً أحكاماً فى البيان والأدب والفن . وما عجبي لشيء كعجبي لشيوع هذه الأحكام تنهض على تلك الآراء .

« وليس صحيحاً البتة أن جودة البيان وعبقرية الأدب وجمال الفن تصدر جميعاً عن ينبوع غير ينبوع اللفظ . ولقد يكون فى هذا الرأى صدمة عنيفة لأولئك الذين يهون عندهم شأن اللفظ حتى لينعتون الأدب الضعيف أكثر الأحيان بأنه أدب لفظ . . وهم يحسبون أن الأدب يتجزأ فيكون منه لفظ ويكون منه معنى ؛ أما اللفظ عندهم فكالأنبوبة الفارغة ، وأما المعنى فكالسائل الذى تملأ به الأنبوبة . فاذا بدا لهم الأدب ضعيفاً هزيلا قالوا إنه ادب لفظ ، وهم يعنون أن الأنبوبة فارغة من السائل الذى هو مصدر القوة فى الأدب والفن .

« أنا أنكر أشد الانكار أن يكون للفظ وجود مستقل عن المعنى ، بل أعجب أشد العجب كيف يتصور ناس أن يوجد لفظ دون معنى ، شرط أن يكون لفظاً من الألفاظ الموضوعة فى اللغة . وأزيد على هذا أن المعنى الذى أقصده أوسع مما تدل عليه هذه الكلمة عادة ؛ فالمعنى الذي يحمله كل لفظ إنما هو (شخصية) مركبة من حس ومنطق ومزاج وعاطفة ، كما تتركب (شخصية) الكائن الحى من الناس تماماً ... »

هل توجد الروح؟
وكم تزن؟..
هل يمكن الاحتفاظ بها؟
وهل يمكن أن تمتزج
بعد الموت روحان كانتا
مؤتلفتين أثناء الحياة؟



أندريه موروا
عضو المجمع اللغوي الفرنسي

وزن الأرواح

تعريب عبد الحليم محمود







موريس بارس
عضو المجمع اللغوي الفرنسي

على نهر العاصي

تعريب
وعبد المجيد عابدين





SCRIBE

٢٥ م
البريد ٢٠ مليمًا

محمد سعيد العريان

من حولنا

قصص مصرية

دار الكاتب المصري

جيل من الناس في أفراحهم والآمهم ،
يرى كل قارئ في مرآته صورة من نفسه ،
أو صورة من حوله ، في إطار قصصي
رائع في بيانه وفي فنه





قصتان من الأدب الروسى الرفيع

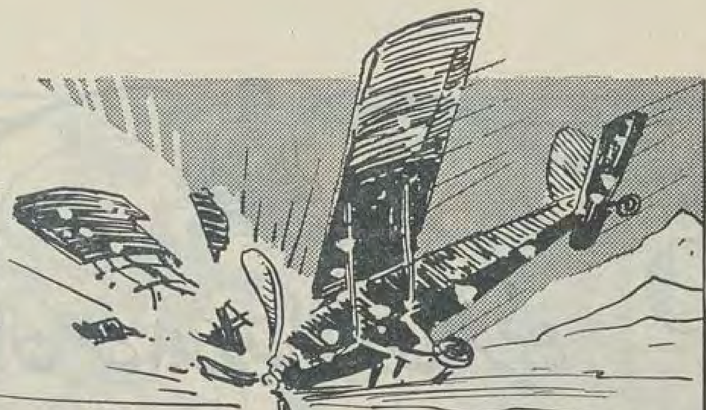


قصة شاب ممتحن
بداء القمار لقى من هذا
الداء فى حياته شرًا عظيمًا.
وهى قصة عنيفة تستأثر
بحاجة القارئ إلى الاستطلاع

الثمن ١٨
البريد ١٦ مليمًا

قصة ساذجة
تصور قلب شاب ناشئ
يندفع إلى الحب فى غير احتياط
ولا تحفظ وما يصيبه من يأس
حينما يعلم أنه كان يحب عشيقة أبيه

الثمن ١٥
البريد ١٢ مليمًا



REMINGTON RAND INC.

Remington

قريباً ...

الآلة الكاتبة رمنجتون الجديدة ذات الحروف العربية

... وفى انتظارها ، إذا كان الحظ قد أسعدك باقتناء آلة **رمنجتون**
فلا تهملها والجأ إلى قسم الصيانة **رمنجتون** للعناية بها :

بور سعيد	الاسكندرية	القاهرة
شارع محمد محمود باشا	١٨ شارع طلعت حرب باشا	٥٢ شارع قصر النيل
ت ٤٦٨	ت ٢٣٨٩٩	ت ٤٥٠٣٤ ٤٧٨١٥ ٥٤٢٧٣



الكاتب المصرى شركة مساهمة مصرية قسم الآلات واثاث وأدوات المكاتب
القاهرة الاسكندرية بورسعيد
المركز الرئيسى بالقاهرة : ٥ شارع قنطرة الدكة

SCRIBE



مطبعة الكاتب المصرى شركة مساهمة مصرية